سعر الجزءين
٣٥ ر.س

الدراسات الدعوية
٢

الصندوق الخيري لنشر البحوث والرسائل العلمية ٢٦

منهج ابن كثير

في الدعوة إلى الله والاستفادة منه في العصر الحاضر

تأليف
د. مبارك بن حمد الحامد الشريف

الجزء الأول

دار كنوز إشبيليا
للنشر والتوزيع

(١)

ⓒ دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشريف، مبارك بن حمد الحامد

منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله من خلال كتابه تفسير القرآن العظيم والاستفادة منه في العصر الحاضر/ مبارك بن حمد الحامد الشريف – الرياض ١٤٣٠هـ، ٢مج

٤٢٤ ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٥-٧٧-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٢-٧٨-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨(ج١)

١- ابن كثير، إسماعيل بن عمر ٢- الدعوة الإسلامية ١- العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٠/٣٤٩٢

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٣٤٩٢

ردمك: ٥-٧٧-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٢-٧٨-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨(ج١)

ساعد على نشره ليباع بسعر التكلفة

مؤسسة سليمان بن عبدالعزيز الراجحي الخيرية

SULAIMAN BIN ABDUL AZIZ AL RAJHI CHARITABLE FOUNDATION

- جزاهم الله خيراً -

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨– ٤٧٧٣٩٥٩ – ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: *eshbelia@hotmail.com*

الصندوق الخيري لنشر البحوث والرسائل العلمية
(٣٦)
الدراسات الدعوية
(٢)

منهج ابن كثير

في الدعوة إلى الله
والاستفادة منه في العصر الحاضر

تأليف
د. مبارك بن حمد الحامد الشريف

الجزء الأول

دار كنوز إشبيليا
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب

رسالة دكتوراه في الدعوة تقدم بها الباحث إلى جامعة أم درمان الإسلامية في السودان، ونوقشت يوم الأثنين الموافق ١٤٢٩/٣/٩هـ من قبل لجنة المناقشة المكونة من:

[١] أ.د. محمد زين الهادي (عميد كلية الدعوة بجامعة أم درمان الإسلامية) ..... مشرفاً.

[٢] أ.د. عبدالله عبدالحي (مدير جامعة الفاشر) ..... مناقشاً.

[٣] أ.د. إبراهيم علي (مدير معهد بحوث دراسات العالم الإسلامي..... مناقشاً.

ومنح الباحث درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز مع التوصية بطباعتها.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الأمة الإسلامية أحوج ما تكون اليوم وهي تتخبط في مناهج شتى وطرق عدة أدّت بها إلى الضعف والانحطاط والتخلف، بسبب بُعدها عن المنهج القويم والصراط المستقيم إلى منهج الرسول ﷺ وصحابته الكرام وسلف الأمة ومن سار على دربهم من العلماء والدعاة والمصلحين، فما أحوجها اليوم إلى الرجوع إلى حال أولها، ولا شك أن معرفة هذا المنهج ودراسته ومعرفة رجاله وأعلامه هي الخطوة الأولى – بإذن الله – التي تساعد على السير على منهجهم واقتفاء أثرهم واتباع خطاهم، ومن هؤلاء الأعلام الإمام الحافظ ابن كثير فقد كان رحمه الله كما قال العلامة العيني فيما نقله عنه ابن تغري بردي: «قدوة العلماء والحفاظ وعمدة أهل المعاني والألفاظ وسمع وجمع وصنف ودرَّس وحدَّث وألف، وكان له إطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير وله مصنفات عديدة مفيدة»[1].

لذا رغبت أن أدرس منهجه الدعوي، وخصائص هذا المنهج وأصوله وكيف نستفيد منه في وقتنا الحاضر، وذلك من خلال كتابه «تفسير القرآن

---

(١) انظر يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهره في ملوك مصر والقاهرة ١١/١٢٣ طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٤٩هـ.

العظيم»، ذلك الكتاب الذي تلقاه الناس بالقبول و أثنوا عليه لاسيما العلماء منهم، يقول السيوطي: «له في التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله»[١]، ويقول الشوكاني: «وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها»[٢].

الدراسات السابقة:

إن المكانة العلمية العالية والرفيعة التي نالها الإمام ابن كثير في تفسيره، كانت وراء السبب في تعدد هذه الدراسات والبحوث العلمية وتنوّعها عن هذا السفر النفيس، ومع تعدد هذه الدراسات وتنوعها فإنه – حسب علم الباحث – لم تكن هناك دراسة اختصت بالمنهج الدعوي لابن كثير في تفسيره، وإنما وجدت بحوث علمية عديدة ودراسات تمت فيها المقارنة بين تفسيره وتفسير الإمام الطبري مثل المقارنة بين منهجي الإمامين ابن جرير وابن كثير في التفسير[٣]، أو دراسات ركزت على تحديد وإبراز منهجه في التفسير، مثل

---

(١) ذيل طبقات الحفاظ للذهبي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ص ٣٦١، مطبعة توفيق، مصر ١٣٤٧هـ.

(٢) انظر: الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١/١٥٣، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ.

(٣) المقارنة بين منهجي الإمامين ابن جرير وابن كثير في التفسير، محمد مختار طالب بن محمد آل نوح، رسالة ماجستير، مقدمة لكلية أصول الدين، جامعة الأزهر، وقد طبعته دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع بجده ١٤٢٣هـ.

الإمام ابن كثير المفسر[١]، ومنهج ابن كثير في تفسيره[٢]، وابن كثير ومنهجه في التفسير[٣]، وابن كثير المفسر[٤]، وابن كثير ومنهجه في التفسير[٥] بينما هناك دراسات تناولت موقفه من الإسرائيليات في ضوء تفسيره، مثل موقف ابن كثير من الإسرائيليات في ضوء تفسيره[٦] ومنهج ابن كثير في روايته ونقده للإسرائيليات[٧]، وأخرى رصدت استدراكاته على ابن جرير الطبري وغيره

---

(١) الإمام ابن كثير المفسر، مطر أحمد الزهراني، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة بجامعة أم القرى عام ١٤٠٢هـ، رسالة غير منشورة.

(٢) منهج ابن كثير في تفسيره، سليمان بن إبراهيم اللاحم، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين بالرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٠هـ وقد طبعة، دار المسلم للنشر والتوزيع بالرياض ١٤٢٠هـ.

(٣) ابن كثير ومنهجه في التفسير، إسماعيل سالم عبد العال، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية العلوم – قسم الشريعة – جامعة القاهرة، ١٤٠٣هـ وقد طبعته مكتبة الملك فيصل الإسلامية – القاهرة ١٩٨٤هـ.

(٤) ابن كثير المفسر، أبو الفتوح عبد الحميد يوسف، رسالة ماجستير ١٩٧٣م جامعة الإسكندرية كلية الآداب.

(٥) ابن كثير ومنهجه في التفسير، فرمان إسماعيل إبراهيم، رسالة ماجستير ١٩٩٠م جامعة بغداد للعلوم الإسلامية.

(٦) موقف ابن كثير من الإسرائيليات في ضوء تفسيره، محمد إبراهيم تراوي، رسالة ماجستير ١٤٠٧هـ مقدمة إلى كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، رسالة غير منشورة وكذلك موقف ابن كثير من الإسرائيليات في ضوء تفسيره، محمد أنور صاحب عمر رسالة ماجستير ١٤١٤هـ، مقدمة لكلية القرآن والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٧) منهج ابن كثير في روايته ونقده للإسرائيليات، مصطفى محمد الخان، رسالة ماجستير ٢٠٠٤م، الجامعة الأردنية.

من المفسرين، مثل استدراكات ابن كثير على ابن جرير في تفسيره[١]، إضافة إلى الدراسات التي تعرضت لجهود الحافظ ابن كثير في الجرح والتعديل في تفسيره، أو تخريج أحاديث بعض السور الكريمة في تفسيره، مثل تخريج الأحاديث الواردة في سورة الرعد[٢] من تفسير ابن كثير وكذلك تخريج أحاديث سورة الكهف من تفسير ابن كثير[٣]، أو حصر موارد ابن كثير في تفسيره، مثل موارد ابن كثير في تفسيره[٤]، وإلى جانب هذه الدراسات والبحوث التي اعتنت بتفسير ابن كثير فهناك دراسات وبحوث وكتابات علمية عديدة أخرى تناولت حياة ابن كثير وسيرته ومؤلفاته، مثل ابن كثير الدمشقي الحافظ المفسر المؤرخ الفقيه[٥]،

---

(١) استدراكات ابن كثير على ابن جرير في تفسيره، أحمد عبد الله الغاني، رسالة دكتوراه ١٤٢٠هـ، مقدمة لكلية القرآن والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، رسالة غير منشورة. وكذلك استدراكات ابن كثير على ابن جرير في تفسيره، شايع عبده شايع الأسمري، رسالة دكتوراه ١٤١٧هـ، مقدمة لكلية القرآن والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ولم يتيسر الاطلاع عليها.

(٢) تخريج الأحاديث الواردة في سورة الرعد من تفسير ابن كثير، محمد عبده عبد الرحمن الكحلاني، رسالة ماجستير ١٤٠٠ هـ، مقدمة لكلية القرآن والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية، رسالة غير منشورة.

(٣) تخريج أحاديث سورة الكهف من تفسير ابن كثير، لمحمد عبده عبد الرحمن الكحلاني، رسالة دكتوراه ١٤٠٤هـ، مقدمة لكلية القرآن والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٤) موارد ابن كثير في تفسيره، د. سعود بن عبد الله الفنيسان، مطبعة التوبة – الرياض ١٤٢٧هـ.

(٥) ابن كثير الدمشقي الحافظ المفسر المؤرخ الفقيه، د. محمد الزحيلي، مطبعة درا لقلم – دمشق، ط١ ١٤١٥هـ.

ومنهجه في كتابه البداية والنهاية، مثل منهج ابن كثير وموارده في المبتدأ والسيرة والراشدين من كتابه البداية والنهاية[١]، وكذلك الإمام ابن كثير سيرته ومؤلفاته ومنهجه في كتابه التاريخ[٢]، كما أن هناك بحوثاً أخرى لإبراز جهوده في تقرير عقيدة السلف مثل منهج ابن كثير في تقرير عقيدة السلف[٣]، وكذلك عقيدة الحافظ ابن كثير بين التفويض والتأويل[٤] وآراء ابن كثير في مسائل الاعتقاد[٥]، وأشراط الساعة، مثل منهج ابن كثير في تقرير مسائل أشراط الساعة[٦]، وفي علم الحديث رواية ودراية مثل الإمام ابن كثير وأثره في علم

---

(١) منهج ابن كثير وموارده في المبتدأ والسيرة والراشدين من كتابه البداية والنهاية، شمس الله محمد صديق زال بيك جلالي، رسالة دكتوراه ١٤١٣هـ، مقدمة لكلية الدعوة قسم التاريخ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، رسالة غير منشورة.

(٢) الإمام ابن كثير سيرته ومؤلفاته ومنهجه في كتابه التاريخ، د. مسعود خان الندوي، وهو جزء من رسالة دكتوراه بعنوان « دراسة لابن كثير المؤرخ على ضوء كتابه البداية والنهاية »، مقدمة لقسم الدراسات الإسلامية بجامعة عليكره الإسلامية بالهند، وقد طبعته دار ابن كثير بدمشق ١٤٢٠هـ.

(٣) منهج ابن كثير في تقرير عقيدة السلف، علي حسين بن يحيى موسى، رسالة ماجستير ١٤٠٩هـ، مقدمة لكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، رسالة غير منشورة.

(٤) عقيدة ابن كثير بين التفويض والتأويل، عبد الآخر الغنمي، مطبعة دار الأخلاق — الدمام ١٩٩٤م.

(٥) آراء ابن كثير في مسائل الاعتقاد، عبد الله محمد محمود، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، لم يتيسر الاطلاع عليها.

(٦) منهج ابن كثير في تقرير مسائل أشراط الساعة، شداد بن عيسى والد، رسالة ماجستير ١٤٢٣هـ، مقدمة لكلية التربية قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود بالرياض، رسالة غير منشورة.

الحديث رواية ودراية[١]، وجهود ابن كثير في علم الحديث دراية ورواية[٢].

ويلاحظ كما ذكرت أن هذه البحوث والدراسات مع تنوعها وكثرتها ليس لها علاقة بالمنهج الدعوي لابن كثير في تفسيره.

ولعل من أقرب الدراسات إلى موضوع الباحث هي الدراسة التي قام بها إبراهيم بن مرشد المرشد بعنوان «منهج ابن كثير وجهوده في الدعوة إلى الله».

ولكن عند النظر في هذه الدراسة نجد أن هناك اختلافاً بينها وبين دراسة الباحث «منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله من خلال كتابه تفسير القرآن العظيم، والاستفادة منه في العصر الحاضر» وذلك للأمور التالية:

[١] إن صاحب الدراسة حينما تناول موضوع جهود ابن كثير في الدعوة إلى الله في دراسته تناولها حسب العنوان الرئيس للدراسة وهو «منهج ابن كثير وجهوده في الدعوة إلى الله»، فأفرد لهذا المبحث — جهود ابن كثير في الدعوة إلى الله -باباً كاملاً يمثل نصف خطة دراسته حيث إنها تحتوي على تمهيد وبابين، وهذا يختلف عن دراسة الباحث التي سيتناول فيها جهود ابن كثير في الدعوة إلى الله ضمن مباحث متفرقة في ثنايا موضوعات مختلفة، وليس في حجم باب كامل ومستقل عن غيره كما هو الحال في هذه الدراسة.

---

(١) الإمام ابن كثير وأثره في علم الحديث رواية ودراية، عدنان محمد عبد الله شلش، رسالة دكتوراه، مقدمة لجامعة القرآن والعلوم الإسلامية بالسودان، وقد طبعتها دار النفائس للنشر والتوزيع — الأردن، ط١ ١٤٢٥هـ.

(٢) جهود ابن كثير في علم الحديث دراية ورواية، للعجمي دمنهوري خليفة، رسالة دكتوراه ١٩٧٣م، مقدمة لكلية أصول الدين بجامعة الأزهر.

[٢] إن الباحث هنا قصد بدراسته محاولة إبراز منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله وخصائص هذا المنهج من خلال تفسيره رحمه الله، فمشكلة البحث لدى الباحث تتلخص في تحديد وإبراز خصائص منهج الدعوة إلى الله عند الإمام ابن كثير رحمه الله في كتابه «تفسير القرآن العظيم» وكيفية الاستفادة منه في العصر الحاضر، بينما الدراسة المشار إليها تناولت منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله بشكل عام ومن خلال مؤلفات ابن كثير المختلفة مما له صلة بالموضوع، وقد صرّح بذلك صاحب الدراسة في مقدمة بحثه فقال: «قمت بدراسة كل موضوع من موضوعات البحث حسب الخطة الموضوعة له وتوضيح كافة جوانبه وعرض وتحليل منهج ابن كثير فيه على ضوء النقول الوافية المستخرجة من مختلف مؤلفاته مما له صلة بالموضوع»[(١)].

[٣] وبناءً على ما سبق فقد خصص الباحث في خطته هذه باباً مستقلاً — الباب الأول — للكلام عن خصائص منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله من خلال تفسيره فقط، بينما الدراسة المشار إليها لم تتعرض لذلك بهذا القدر والتفصيل.

[٤] إن الباحث حرص أن يستفيد الداعية والمدعو في العصر الحاضر من منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله، لذا خصص باباً كاملاً لهذا المبحث — الباب الثالث — بعنوان الاستفادة من منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله في العصر

---

(١) انظر المقدمة ص ٤، ولأن المقصود هو دراسة منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله وخصائص هذا المنهج من خلال تفسير ابن كثير، فقد أفرد الباحث جزءاً من التمهيد للحديث عن تفسيره رحمه الله وأهمية مصادره، وأثره على من جاء بعده من المفسرين، وغير ذلك من الموضوعات والمباحث المتعلقة بهذا الكتاب بشيء من الاختصار والإيجاز.

الحاضر، بينما اكتفى صاحب الدراسة بالتوصية بالاستفادة من منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله فقال في التوصيات: «خامساً: أوصي الدعاة إلى الله تعالى بالاستفادة من منهج ابن كثير رحمه الله في الدعوة إلى الله نظراً لما بين العصرين من التشابه...»[(١)].

أما أوجه التشابه بين خطة الباحث وهذه الدراسة وما يمكن الاستفادة من ذلك فإنه يمكن إجمالها في الآتي:

[١] ما كتبه صاحب الدراسة عن ترجمة ابن كثير وتعريف الدعوة وأهميتها فيمكن أن يخدم الباحث في التمهيد عن ترجمة ابن كثير ومفهوم الدعوة وأهميتها عند ابن كثير.

[٢] ما كتبه صاحب الدراسة عن تحقيق شهادة أن لا اله إلا الله وتحقيق بقية أركان الإسلام فيمكن أن يخدم الباحث في المبحثين الأول والثاني من الفصل الأول في الباب الثاني عن منهج ابن كثير في الدعوة إلى العقيدة والشريعة.

[٣] ما كتبه صاحب الدراسة عن إعداد الداعية ومنهج ابن كثير في تصنيف الناس فيمكن أن يخدم الباحث في الفصل الثالث من الباب الثاني عن التوجيه العلمي والعملي للداعية، وكذلك في الفصل الثاني من الباب الثاني عن منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله باعتبار المدعو.

[٤] ما كتبه صاحب الدراسة عن جهود ابن كثير، فيمكن أن يخدم الباحث في ترجمة ابن كثير في التمهيد.

---

(١) انظر ص ٨٥٣ من الرسالة المذكورة.

وأخيراً فإن الباحث يأمل أن تحقق دراسته مع هذه الدراسة المشار إليها التكامل المطلوب في خدمة هذا الموضوع المهم وإبرازه والانتفاع به، ألا وهو منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله، كما يرجو الباحث أن تفي هاتان الدراستان ولو بشيء من حق هذا العالم الجليل والمصلح الكبير والداعية العظيم الإمام الحافظ عماد الدين ابن كثير رحمه الله تعالى.

أسباب اختيار الموضوع وأهميته:

إضافة إلى ما سبق ذكره فهناك أسباب دفعتني إلى الكتابة في هذا الموضوع منها:

[١] الحاجة الماسة – كما أشرت سابقاً – إلى الرجوع إلى المنهج الصحيح الذي سار عليه سلف الأمة في دعوتهم إلى الله تعالى.

[٢] ما تميز به الإمام ابن كثير رحمه الله من العلم والعمل والدعوة فهو الإمام الحافظ المحدث الفقيه المفسر المؤرخ الحجة في العلم والعمل، وهو تلميذ لمدرسة الإمام ابن تيمية المعروف بدفاعه عن السنة، ودعوته لمنهج السلف، فمن كان يسير على هذا المنهج فهو جدير بدراسة علمية للتعرف على منهج دعوته وخصائصها، وسبيل الاستفادة منها في زماننا الحاضر، وتزويد المكتبة الدعوية بذلك.

[٣] رغبتي في الاطلاع عن كثب على علم هذا العلامة الفاضل والاستفادة مما كتب من تآليف تعد بحق موسوعة علمية، وخاصة كتابه تفسير القرآن العظيم، والذي يعد من أحسن وأصح كتب التفسير إن لم يكن أحسنها وأصحها على الإطلاق بعد تفسير ابن جرير الطبري؛ وذلك لعنايته بمناقشة أسانيد ومتون الأحاديث والآثار، ولأن ابن كثير ثقة اختار أحسن الطرق في تفسيره القرآن – والتي سنتحدث عنها إن شاء الله أثناء البحث – ولتمسكه في

تفسيره بعقيدة السلف في كلامه عن آيات العقائد والأسماء والصفات، وغير ذلك من المميزات العظيمة لهذا الكتاب.

[٤] مشابهة عصر الإمام ابن كثير بعصرنا الحاضر من وجوه منها:

(أ) الضعف السياسي للعالم الإسلامي وتمزقه إلى دويلات حرص حكامها على مصالحهم الشخصية ومراكز نفوذهم غير مبالين بقضايا الأمة ومصالحها.

(ب) كثرة المذاهب والفرق المنحرفة عن الإسلام والتي تَدَّعي الانتساب إليه وهي في الواقع تحاربه.

(جـ) تقصير كثير من العلماء في واجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(د) أطماع الكفار في خيرات المسلمين ونهب ثرواتهم.

مشكلة البحث وأهم تساؤلاته:

إن مشكلة البحث تتلخص في تحديد خصائص وأصول منهج الدعوة إلى الله عند الإمام ابن كثير رحمه الله من خلال كتابه «تفسير القرآن العظيم» وكيفية الاستفادة منها في عصرنا الحاضر، وتنبني تساؤلات البحث على عناصر مشكلته السابقة، فهي تدور حول التساؤلات التالية:

ما مفهوم الدعوة إلى الله عند ابن كثير؟

ما خصائص منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله من خلال كتابه «تفسير القرآن العظيم»؟

ما الأصول التي بُني عليها هذا المنهج؟

ما الوسائل والأساليب التي استخدمها ابن كثير في الدعوة إلى الله؟

كيف يستفيد الداعية المعاصر من منهج ابن كثير؟

كيف يستفيد المدعو المعاصر من منهج ابن كثير؟

منهج الدراسة:

سيكون منهج الدراسة في هذا البحث قائماً على المنهج الاستقرائي والاستنباطي والتحليلي، وذلك بتتبع النصوص في تفسير ابن كثير ثم تحليلها ومحاولة استنباط الدلالات ذات العلاقة للخروج برؤية علمية مناسبة.

هيكل البحث:

ولإعطاء البحث حقه من البحث والدراسة – حسب جهدي المتواضع وعلمي القاصر – وجلباً للفائدة التي يرجوها الباحث سأجعل البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة. وهذا هو هيكله.

التمهيد: ويشتمل على النقاط التالية:

أولاً: ترجمة الحافظ ابن كثير رحمه الله.

ثانياً: كتابه «تفسير القرآن العظيم» ومكانته وأهميته.

ثالثاً: مفهوم الدعوة وأهميتها عند ابن كثير رحمه الله.

الباب الأول: خصائص منهج الدعوة إلى الله عند ابن كثير.

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: اعتماد ابن كثير على الكتاب والسنة.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تقديم ابن كثير الكتاب والسنة على ما سواهما.

المبحث الثاني: الرد إلى الكتاب والسنة عند الخلاف.

المبحث الثالث: رد ابن كثير للأقوال والآراء التي تخالف الكتاب والسنة.

الفصل الثاني: النقل والعقل ونظرية المعرفة منهج دعوي عند ابن كثير.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: عدم تعارض النقل مع العقل وفيه مطالب:

المطلب الأول: نظرة ابن كثير إلى العقل.

المطلب الثاني: إنكار ابن كثير على من عارض النصوص بالرأي.

المطلب الثالث: انحراف أصحاب الفرق الذين غلوا في العقل.

المبحث الثاني: نظرية المعرفة عند ابن كثير وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المعرفة عند ابن كثير.

المطلب الثاني: طرق المعرفة عند ابن كثير، وفيه:

أولاً: الأدلة الشرعية «الوحي».

ثانياً: الحس والتجربة «الكون».

الفصل الثالث: الاحتجاج باللغة العربية وأثره في المدعوين.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مكانة اللغة العربية من الدين.

المبحث الثاني: اعتماد ابن كثير على اللغة العربية في تفسيره للقرآن الكريم وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: رجوعه إلى اللغة واحتكامه إليها.

المطلب الثاني: اهتمام ابن كثير بشتى جوانب اللغة.

المطلب الثالث: الاستدلال باللغة في المسائل الخلافية.

المبحث الثالث: عناية ابن كثير بالمصطلحات، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: صحة نسبة المصطلح ومعناه.

المطلب الثاني: اتباع المنقول من المصطلحات.

المطلب الثالث: أثر مخالفة المصطلحات في اللغة والشرع والعقل على الاختلاف العلمي والعملي بين الأمة.

الفصل الرابع: من منهج ابن كثير الدعوي تقديم قول الصحابي على غيره.

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الصحابي.

المبحث الثاني: حجية قول الصحابي.

المبحث الثالث: عدالة الصحابة وما انفردوا به عن غيرهم.

المبحث الرابع: المدارك التي شاركهم غيرهم فيها.

المبحث الخامس: تقديم ابن كثير قول الصحابة على غيرهم من الناس.

الفصل الخامس: الشمول والموضوعية منهج دعوي أصيل.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: شمولية منهج ابن كثير في الدعوة للإسلام، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: شموله للعقيدة.

المطلب الثاني: شموله للعبادات.

المطلب الثالث: شموله الاهتمام والمناقشة لأحداث المجتمع.

المطلب الرابع: شموله لدعوة الطوائف والفرق.

المطلب الخامس: شموله لدعوة المرأة.

المبحث الثاني: الموضوعية الدعوية في منهج ابن كثير، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الإخلاص في الوصول للحق.

المطلب الثاني: محبة الآخرين والحرص على نفعهم.

المطلب الثالث: حسن الظن بالآخرين والبحث عن عذر لهم.

المطلب الرابع: العدل والإنصاف مع الخصوم.

المطلب الخامس: النظرة الواقعية للإنسان من حيث تكوينه ولوازم ذلك.

المطلب السادس: اجتناب الجدل المذموم في الدين.

المطلب السابع: نبذ الجمود الفكري والتعصب المذهبي.

الباب الثاني: منهج الدعوة إلى الله عند ابن كثير من خلال أركان الدعوة.

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله باعتبار مضمونها.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: منهجه في الدعوة إلى العقيدة، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: أسباب اهتمام ابن كثير بالدعوة إلى العقيدة.

المطلب الثاني: منهجه في الدعوة إلى الإيمان بالله.

المطلب الثالث: منهجه في الدعوة إلى الإيمان بالملائكة.

المطلب الرابع: منهجه في الدعوة إلى الإيمان بالكتب.

المطلب الخامس: منهجه في الدعوة إلى الإيمان بالرسل.

المطلب السادس: منهجه في الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر.

المطلب السابع: منهجه في الدعوة إلى الإيمان بالقدر.

المبحث الثاني: منهجه في الدعوة إلى الشريعة، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: منهجه في الدعوة إلى العبادات.

المطلب الثاني: منهجه في الدعوة إلى المعاملات.

المطلب الثالث: منهجه في الدعوة إلى الجهاد.

المطلب الرابع: منهجه في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الثالث: منهجه في الدعوة إلى الأخلاق، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أهمية الأخلاق في منظور ابن كثير.

المطلب الثاني: سمات التربية الأخلاقية عند ابن كثير.

الفصل الثاني: منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله باعتبار المدعو.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منهجه في دعوة المسلمين، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: منهجه في دعوة عامة الناس.

المطلب الثاني: منهجه في دعوة العلماء.

المطلب الثالث: منهجه في دعوة الولاة.

المطلب الرابع: منهجه في دعوة أهل البدع والمنكرات.

المطلب الخامس: منهجه في دعوة أهل النفاق.

المبحث الثاني: منهجه في دعوة غير المسلمين، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: منهجه في دعوة أهل الكتاب.

المطلب الثاني: منهجه في دعوة المشركين.

الفصل الثالث: منهج ابن كثير في توجيه الدعاة.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التوجيه العلمي للداعية، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: العلم بمضمون الدعوة.

المطلب الثاني: العلم بأساليب ووسائل الدعوة.

المطلب الثالث: العلم بأحوال المدعوين.

المطلب الرابع: التوجيه للصفات الذاتية للداعية.

المبحث الثاني: التوجيه العملي للداعية، وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: التدريب على مهمات الدعوة.

المطلب الثاني: الحث على الاجتهاد في طلب العلم والعمل به.

المطلب الثالث: توجيه الداعية للتواضع.

المطلب الرابع: توجيه الداعية للترفع عن اللغو.

المطلب الخامس: توجيه الداعية للقصد والاعتدال.

المطلب السادس: توجيه الداعية لاجتناب الموبقات.

المطلب السابع: توجيه الداعية للمبادرة للتوبة.

المطلب الثامن: توجيه الداعية بأن يكون قدوة حسنة.

الفصل الرابع: استخدام ابن كثير لوسائل الدعوة وأساليبها.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الوسيلة والأسلوب والفرق بينهما.

المبحث الثاني: الأساليب في منهج ابن كثير، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

المطلب الثاني: المجادلة والحوار والمناظرة.

المطلب الثالث: التدريس والإفتاء.

المطلب الرابع: الاستدراكات والتعقيبات على غيره من العلماء.

المبحث الثالث: الوسائل في منهج ابن كثير، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الاتصال الشخصي.

المطلب الثاني: الرسائل الشخصية.

المطلب الثالث: الكتب والمؤلفات.

المطلب الرابع: الرحلات.

الباب الثالث: الاستفادة من منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله.

وفي فصلان:

الفصل الأول: استفادة المدعو المعاصر من منهج ابن كثير.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: واقع المدعو في العصر الحاضر.

المبحث الثاني: الطريقة التي يستفيد فيها المدعو المعاصر من المنهج.

الفصل الثاني: استفادة الداعية المعاصر من منهج ابن كثير.

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: نظرة إلى الداعية في العصر الحاضر.

المبحث الثاني: الاستفادة من منهج ابن كثير في موضوع الدعوة في العصر الحاضر.

المبحث الثالث: الاستفادة في فقه المدعو في العصر الحاضر.

المبحث الرابع: الاستفادة في كيفية الدعوة في العصر الحاضر.

المبحث الخامس: الاستفادة في مؤهلات الداعية في العصر الحاضر.

الخاتمة: وتشمل على:

أولا: النتائج.

ثانيا: التوصيات.

الفهارس.

وتشمل:

[١] فهرس الآيات.

[٢] فهرس الأحاديث.

[٣] فهرس الآثار.

[٤] فهرس الأعلام.

[٥] فهرس المصادر والمراجع.

[٦] فهرس الموضوعات.

شكر وتقدير

أشكر الله سبحانه تعالى على توفيقه لإتمام هذا البحث وأسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وأن يتقبله بقبول حسن.

ثم لوالدي الكريمين على حسن تربيتهما وعظيم عنايتهما بي، فاللهم اغفر لهما وارحمهما كما ربياني صغيراً، وكذلك أشكر أبنائي وأهل بيتي لاسيما زوجتي الكريمة (أم عبدالإله) على تشجيعها ومساندتها لي أثناء البحث، وعلى صبرها وحرصها على رعاية أبنائها وتربيتهم تربية صالحة، فلهم مني جميعاً خالص الشكر والعرفان.

ثم أتقدم بالشكر لجامعة أم درمان الإسلامية ممثلة بالقائمين عليها لتهيئة الفرصة للدراسة وتوفير التسهيلات التي ساعدتني لإنجاز العمل على الوجه المنشود، وأرى من الحق أن أقدم شكري لأستاذي الفاضل الدكتور/ محمد زين الهادي العرمابي، عميد كلية الدعوة بجامعة أم درمان الإسلامية، الذي وسعني بحلمه ولطفه أثناء إشرافه على هذه الرسالة، حيث أفادني بآرائه القيمة وتوجيهاته السديدة على كثرة أعماله وأشغاله، جزاه الله عني خير الجزاء، ووفقه لما يحب ويرضاه، كما أشكر صاحبي الفضيلة الدكتور/ عبدالله عبدالحي مدير جامعة الفاشر، والدكتور/ إبراهيم محمد علي مدير معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي بالخرطوم، أعضاء لجنة المناقشة على تكرمهما بقراءة هذه الرسالة وتجشمهما عناء مراجعتها وتصحيحها.

وفي الختام أتوجه بالشكر لجميع من أسدى إليَّ نصحاً أو مشورة راجياً من الله أن يجزي الجميع خير الجزاء.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

المؤلف

التمهيـــد

ويشتمل على:

أولاً: ترجمة الحافظ ابن كثير رحمه الله.

ثانيـاً: كتابـه «تفـسير القـرآن العظـيم» ومكانتـه وأهميته.

ثالثاً: مفهوم الدعوة وحكمها وفضلها.

أولاً: ترجمة ابن كثير رحمه الله

عصره:

عاش ابن كثير رحمه الله معظم القرن الثامن الهجري (٧٠١-٧٧٤) في الفترة التي كان يحكم فيها المماليك البحرية[١] مصر والشام، وقد كانت هذه الفترة امتداداً لأحداث عظيمة مرت على العالم الإسلامي، منها الحروب الصليبية (٤٩٠-٩٦٠هـ)[٢]، ومنها سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ[٣]، ومنها

---

(١) المماليك البحرية: المماليك هم الذين اشتراهم الأيوبيون من بلاد متعددة لتقديمهم والاستعانة بهم في الداخل والخارج، حتى أصبح لهم نفوذ وكلمة مسموعة، وتدخلوا في شؤون الحكم، واستطاعوا تدبير مؤامرة لخلع الملك العادل الثاني الأيوبي وإحلال الصالح نجم الدين أيوب محله في السلطنة، فأحس نجم الدين بفضل المماليك عليه وأهميتهم له في توطيد سلطانه والاحتفاظ بملكه، فتوسع في شراء المماليك مع العناية بهم، واختار لهم جزيرة الروضة وسط نيل مصر لتكون لهم مستقرا، فأطلق عليهم اسم «المماليك البحرية» وكانوا من الأتراك والمغول والشراكسة والصقالبة والألبان.
انظر: تاريخ المماليك، للدكتور عادل زيتون، ص١ وما بعدها، المطبعة الجديدة بدمشق ١٤٠١هـ، وموجز التاريخ الإسلامي لأحمد معمور العسيري ص ٢٢٤ -٢٢٥، طبعة مطابع الابتكار بالدمام الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ، وابن كثير الدمشقي للدكتور محمد الزحيلي ص ١٦-١٧، طبعة دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

(٢) انظر: محمد علي كرد، خطط الشام ١٢٣/٢، ١٢٤، نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ، والحافظ عماد الدين إسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية ١٦٤/١٦ وما بعدها، بتحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة دار هجر بالرياض ط١ ١٤١٩هـ.

(٣) انظر يوسف تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥٠/٧، مرجع سابق.

التنازع على السلطة بين الحكام المسلمين مما سبب خلع الكثير منهم وقتله أو اعتقاله، وقد ذكر السيوطي في كتابه حسن المحاضره أن الملك علاء الدين كجك[١] بويع بعد عزل أخيه ونفيه ومعه إخوة له إلى قوص[٢]، ولقب الملك الأشرف وعمره دون ست سنين فأقام خمسة أشهر ثم خلع واعتقل حتى مات، و بعده تولى أخوه شهاب الدين أحمد ولقب الملك الناصر وبقي أربعين يوماً ثم خلع سنة ٧٤٣هـ وقيل من أول سنة ٧٤٥هـ، وأقيم بعده أخوه عماد الدين إسماعيل ولقب الملك الصالح فأقام إلى أن مات في رابع ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة وعمره نحو عشرين سنة[٣].

وذكر صاحب خطط الشام أنه في سنة ٧٤٢هـ جرى من تقلبات الملوك والنواب واضطرابهم ما لم يجر في مئات من السنين[٤]، ولعل ضعف

---

(١) هو علاء الدين بن محمد بن قلاوون الملك الأشرف ابن الملك الناصر، من سلاطين الدولة القلاوونية بمصر والشام، نصبه الأتابكي « قوصون» بعد أن قتل أخاه المنصور أبا بكر وكان الأشرف طفلاً، فأجلسه قوصون على السرير بمصر وتصرف هو في أمور المملكة، فاضطربت أحوالها، وثار الأمير أيدغمش، فظفر بقوصون وسجنه وخلع الأشرف، ولبث بضع سنين ومات سنة ٧٤٦هـ ومدة سلطته خمسة أشهر وأيام. الأعلام ٥/٢٢٠.

(٢) قوص: بالضم ثم السكون وصاد مهملة، وهي قبطية، وهي مدينة كبيرة واسعة، قصبة صعيد مصر، انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٤/٤١٣ طبعة دار بيروت ١٤٠٠هـ.

(٣) انظر: جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢/١١٦-١١٧، طبع عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٣٨٧هـ.

(٤) انظر: خطط الشام ٢/١٤٦-١٤٧ مرجع سابق.

الدين والسرف والتبذير والنزعات المذهبية بين أهل السنة والرافضة كان سبباً في هذا الاضطراب السياسي، فكان من الطبيعي أن يؤثر على الحياة الاجتماعية، فحصل كثير من المجاعات وانتشار الأمراض والأوبئة والوفيات بين الناس بسبب هذا[١]. ولكن مع ذلك فقد ساد في هذه الفترة نهضة علمية كبيرة تمثلت في كثرة المدارس ودور التعليم[٢]، وانتشار العلم وكثرة التأليف في شتى العلوم، وتعدد المجتهدين والحفّاظ الذين برزوا في كثير من العلوم كابن تيمية[٣] والحافظ الذهبي[٤] والحافظ المزي[٥] والبرزالي[٦] وابن القيم وابن كثير وغيرهم، ولعل أهم أسباب هذه النهضة العلمية والنشاط الفكري:

[١] تنافس الأمراء المماليك في تشجيع العلوم وتقريبهم العلماء وإجزال العطاء لهم.

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٦/٩٣.

(٢) ذكر النعيمي في كتابه: "الدارس في تاريخ المدارس" أن مدارس الشافعية ٦٠ مدرسة ١/١٢٩-٤٧٢، ومدارس الحنفية حوالي ٥٣ مدرسة ١/٤٧٣-٦٥٠، ومدارس المالكية أربع مدارس، ومدارس الحنابلة إحدى وعشرون مدرسة ٢/٣ وما بعدها، انظر: الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر محمد النعيمي، مطبعة الترقي، نشر المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦٧هـ. وانظر: ابن كثير الدمشقي، د. محمد الزحيلي ص ٢٢، طبعة دار القلم دمشق، ط١ ١٤٢٥هـ.

(٣) انظر ترجمته ص٤٣.

(٤) انظر ترجمته ص٤٢.

(٥) انظر ترجمته ص٤٢.

(٦) انظر ترجمته ص٤٣.

[٢] كثرة الأوقاف على المساجد والمدارس والأربطة[١] من الحكام والأمراء والعامة .

[٣] يقظة الرأي العام الإسلامي بعد تلك المحن و الأحداث المؤلمة التي مرت بالأمة الإسلامية.

[٤] وجود علماء أفذاذ وصلوا إلى مرتبة التجديد والاجتهاد في هذه الفترة وهذا العصر، أثّر على حرية الفكر في البحث والمناظرة في المسائل العلمية والقضاء على التقليد المذهبي، الذي هو جمود فكري وإضعاف للحرية الفكرية[٢] .

فهذا العصر الذي عاش فيه ابن كثير كان له أثر كبير على نشأته وتكوينه العلمي ومنهجه الفكري، وأثره الدعوي والإصلاحي، وما خلّفه من آثار ومؤلفات في التفسير والحديث والتاريخ و الفقه، وغير ذلك مما سنتعرض له في الفصول القادمة إن شاء الله.

---

(١) الرباط: هو ملجأ الفقراء من الصوفية، المعجم الوسيط للدكتور إبراهيم أنيس وزملائه، ص٣٢٣، طبعة المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، إستانبول – تركيا، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

(٢) انظر: سليمان بن إبراهيم اللاحم، منهج ابن كثير في التفسير، ص ١٥، طبعة دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض ط١، ١٤٢٠هـ.

نسبه ومولده ونشأته:

هو الإمام العالم الحافظ المفسر المؤرخ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن[1] عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع القرشي

---

(١) وكذلك ينظر ترجمته في:

تذكرة الحفاظ للذهبي ١٥٠٨/٤، وذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ٥٧-٥٩، والمعجم المختص للذهبي ٧٤-٧٥، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبه ٢٣٨/٢، والرد الوافر لابن ناصر الدين ٩٢-٩٥، إنباء الغمر لابن حجر العسقلاني ٤٥/١-٤٧، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردي ١٢٣/١١-١٢٤، وطبقات الحفاظ للسيوطي ٥٣٣-٥٣٤، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ٣٦/١-٣٧، وطبقات المفسرين للداودي ١١١/١-١١٣، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٩٩/١-٤٠٠، والمنهل الصافي والمستوفى لابن تغري بردي ٤١٤/٢-٤١٦، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للإمام السخاوي ٦٧٦-٦٧٩، وكشف الظنون للحاجي خليفة ١٠/١، ١٩، ٤٣٩، ٢٢٨، ٤٧١، ٥٥٠، ٥٧٣، ٨٣٤، ١١٠٥/٢، ١١٠٢، ١١٦٢، ١٥٢١، ١٨٤٠، ومفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده ٢٥١/١-٢٥٢، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن عماد الحنبلي ٢٣١/٦-٢٣٢، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ١٥٣/١، وإيضاح المكنون للبغدادي ١٩٤/٢، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير نفسه في حوادث سنة ٧٠٣هـ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٤٨/٢-٤٩، والأعلام للزركلي ٣٢٠/١، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحاله ٢٨٣/٢-٢٨٤.

وكذلك ينظر في ترجمته عند محققي كتب ابن كثير في مقدمة التحقيق مثل: الباعث الحثيث باختصار علوم الحديث ترجم له محمد عبد الرزاق حمزة ١١-١٣، وعمدة التفسير لأحمد شاكر ٢٢/١-٢٧، ومقدمة مسند الفاروق لابن كثير تحقيق عبد المعطي قلعجي، ومقدمة جامع المسانيد والسنن الهادي أقوم السنن تحقيق عبد المعطي قلعجي، ومقدمة الفصول في سيرة الرسول تحقيق محمد عيد الخطرواوي ومحيي الدين مستو، ومقدمة الاجتهاد في طلب الجهاد تحقيق عبد الله عبد المحسن عسيلان.

وكذلك الكتب والرسائل والأبحاث العلمية عن ابن كثير رحمه الله، وقد ذكرنا بعضاً منها في مقدمة هذا الكتاب.

البصري[١] ثم الدمشقي الفقيه الشافعي، ولد بمجدل وهي قرية شرقي بصرى من أعمال دمشق في سنة إحدى وسبعمائة إذ كان أبوه خطيباً بها ثم انتقل إلى دمشق سنة سبع وسبعمائة مع أخيه كمال الدين عبد الوهاب بعد موت أبيه، ولندع الإمام ابن كثير نفسه يحدثنا عن نشأته وأسرته وذلك حين ترجم لوالده في كتابه البداية والنهاية عند دخول سنة ثلاث وسبعمائة فيقول: «وفيها توفي الوالد وهو الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي من بني حصلة، وهم ينسبون إلى الشرف وبأيديهم نسب ووقف على بعضها شيخنا المزي فأعجبه ذلك وابتهج به فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك: القرشي — من قرية يقال لها الشركويين من غربي بصرى بينها وبين أذرعات، ولد بها في حدود سنة أربعين وستمائة واشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى..

ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقي بصرى وتمذهب للشافعي وأخذ عن النواوي[٢] والشيخ تاج الدين

---

(١) نسبة إلى بُصرى الشام. وقد ضبط بعضهم نسبتها «بُصْروي»، انظر: ابن كثير الدمشقي للدكتور محمد الزحيلي ص٥٠، مرجع سابق.

(٢) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحوراني النووي الشافعي أبو زكريا محيي الدين علامة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوا من قرى حوران بسوريا وإليها نسبته، تعلم في دمشق وأقام بها زمنا طويلاً، من كتبه: "تهذيب الأسماء واللغات"، و"منهاج الطالبين"، و"الأذكار"، و"رياض الصالحين"، وغيرها. توفي سنة ٦٧٦هـ. الاعلام ١٤٩/٨.

الفزاري[1] وكان يكرمه ويحترمه فيما أخبرني شيخنا العلامة ابن الزملكاني فأقام بها نحواً من اثنتي عشرة سنة..... وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة، ومن أخرى قبلها، أكبرهم إسماعيل ثم يونس وإدريس ثم من الوالدة عبد الوهاب وعبد العزيز ومحمد وأخوات عدة، ثم أنا أصغرهم وسُمِّيت باسم الأخ إسماعيل؛ لأنه كان قد قدم دمشق فاشتغل بها، بعد أن حفظ القرآن على والده، وقرأ مقدمة في النحو، وحفظ "التنبيه" و"شرحه" على العلامة تاج الدين الفزاري، وحصَّل المنتخب في أصول الفقه، قاله لي شيخنا ابن الزملكاني، ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانيه فمكث أياماً ومات، فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً ورثاه بأبيات كثيرة.

فلما وُلدت له أنا بعد ذلك سماني باسمه، فأكبر أولاده إسماعيل وآخرهم وأصغرهم إسماعيل فرحم الله من سلف وختم بخير لمن بقي.

توفي والدي في شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة في قرية مجدل القرية، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون وكنت إذ ذاك صغيراً من ثلاث سنين أو نحوها لا أدركه إلا كالحلم، ثم تحولنا من بعده في سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق صحبة الأخ كمال الدين عبدالوهاب، وقد كان لنا شقيقاً وبنا رفيقاً شفوقاً وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين وسبعمائة، فاشتغلت على يديه في

---

(١) هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع تاج الدين أبو محمد الفزاري الإمام العلامة، شيخ الشافعية في زمانه، وقد كان ممن اجتمعت فيه متون كثيرة من العلوم النافعة والأخلاق اللطيفة وفصاحة المنطق وحسن التنصيف وعلو الهمة، له كتاب الإقليد، واختصار الموضوعات لابن الجوزي توفي سنة ٦٩٠هـ. البداية والنهاية ١٧/٦٤١.

العلم فيسر الله تعالى ما يسر وسهل منه ما تعسر والله أعلم»[١] .

طلبه للعلم:

نشأ ابن كثير منذ طفولته على طلب العلم فبدأ على يد أخيه عبد الوهاب كما مر، ثم اتجه في تحصيله إلى كبار علماء عصره، فحفظ القرآن وختم حفظه سنة إحدى عشرة وسبعمائة[٢]، ثم قرأ شيئاً من القرآن على الشيخ محمد بن جعفر بن فرعوش اللباد المتوفى سنة ٧٢٤هـ[٣]، فقد كان يقرئ الناس بالجامع نحواً من أربعين سنة [٤].

وحفظ التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ[٥]. وعرضه في الثامنة عشرة من سنّه[٦]، وحفظ مختصر ابن الحاجب المتوفى

---

(١) البداية والنهاية ١٨/٤٠-٤٢ .

(٢) انظر: البداية والنهاية ١٨/٣٢٦ .

(٣) هو الشيخ محمد بن جعفر بن فرعوش ويقال له اللباد ويعرف بالمولّه، كان يقرئ الناس بالجامع نحوا من أربعين سنة، وكان متقللا من الدنيا لا يقتني شيئاً وليس له بيت ولا خزانة، توفي وقد جاوز السبعين رحمه الله. البداية والنهاية ١٨/٢٤٦ .

(٤) انظر: المرجع نفسه ١٨/٢٤٦ .

(٥) هو الشيخ أبو إسحاق الشيرازي إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي شيخ الشافعية ومدرس النظاميه ببغداد، وكان زاهدا عابدا ورعا كبير القدر معظماً إماما في الفقه والأصول والحديث وفنون كثيرة، توفي سنة ٤٧٦هـ. البداية والنهاية ١٦/٨٦-٨٧، الأعلام ١/٥١ .

(٦) انظر: النعيمي، الدارس ١/٣٧. مرجع سابق .

سنة ٦٤٦هـ[١]، وتفقه على الشيخين برهان الدين الفزاري المتوفى سنة ٧٢٩هـ[٢]، وكمال الدين قاضي شهبة المتوفى سنة ٧٢٦هـ، وصاهر الحافظ أبا الحجاج المزي فتزوج ابنته ولازمه وأخذ عنه علم الحديث ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال، وصحب الشيخ تقي الدين ابن تيمية وكانت له به خصوصية ومناضلة عنه واتباع له في كثير من آرائه وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق وامتحن بسبب ذلك وأوذي[٣].

وهكذا ترقى ابن كثير في تحصيل العلوم الشرعية والعربية حتى بلغ القمة وصار يشار إليه بالبنان، ولذلك قال عنه ابن تغري بردي[٤]: «وبرع في الفقه والتفسير والحديث ... وجمع وصنف ودرس وحدّث وألّف»[٥].

---

(١) هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدويني ثم المصري العلامة أبو عمرو بن الحاجب شيخ المالكية، كان أبوه حاجباً، واشتغل هو بالعلم فقرأ القراءات وحرر النحو تحريرا بليغا، وتفقه وساد أهل عصره، ثم كان رأسا في علوم كثيرة، توفي سنة ٦٤٦هـ. البداية والنهاية ١٧/٣٠٠.

(٢) انظر ترجمته ص٤٣.

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن عماد الحنبلي ٦/٢٣١، ٢٣٢، طبعة القدسي القاهرة ١٣٥٠هـ، وطبقات المفسرين للحافظ شمس الدين محمد بن علي الداودي، نشر مكتبة وهبه ط١ ١٣٩٢هـ ١/١١٠، الدارس في تاريخ المدارس للنعمي ١/٣٦، البداية والنهاية ١٨/٣١٦-٣١٧، ١٨/٣٢٧-٣٢٨.

(٤) هو يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي أبو المحاسن جمال الدين مؤرخ بحاثة من أهل القاهرة مولدا ووفاة، توفي سنة ٨٧٤هـ. الأعلام ٨/٢٢٢.

(٥) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، يوسف تغري بردي ٢/٤١٥ تحقيق الدكتور محمد محمد أمين والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.

وقال الشوكاني[١]: «برع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل»[٢].

فجهاد ابن كثير المتواصل، وحرصه الدائب على طلب العلم وتحصيله منذ نعومة أظفاره جعلت منه محدثاً كبيراً، وإماماً عالماً ومفسراً جليلاً، ومؤرخاً قديراً وفقيهاً بارعاً، وأمر آخر له أثر كبير في تنوع علوم ابن كثير وتعددها، ألا وهو مصاحبته لعلماء كبار في عصره، أمثال المزي والذهبي وابن الزملكاني والبرزالي وابن تيمية خاصة.

إضافة إلى ذلك فقد كان المنهج الذي سلكه ابن كثير في العلاقة بالسلطة في وقته هو أن علاقته ليست رسمية بقدر ما هي مشاركات في نطاق النصح والإرشاد والمشورة والتعليم وحل المنازعات ونحو ذلك، مما كان يدعى إليه من قبل الأمراء وغيرهم، والذين كانوا يحرصون على مشاركة ابن كثير في مثل هذه القضايا والأحداث، وهذا النمط من العلاقة أتاح لابن كثير الحرية الكافية في مؤلفاته وكتاباته وعدم الخضوع بالتالي لإيحاءات السلطة وإغراءاتها، بل ربما امتحن وأوذي بسبب صلابته في بعض مواقفه وآرائه خصوصاً تلك التي تابع فيها شيخه ابن تيمية[٣]، لذا نجد في مؤلفاته العلم الغزير والثقافة الواسعة

---

(١) انظر ترجمته ص٨٥.

(٢) البدر الطالع ١/١٥٣، وانظر ابن كثير الدمشقي د. محمد الزحلي ص ٧٤.

(٣) انظر: شمس الدين محمد صديق، منهج ابن كثير وموارده في المبتدأ والسيرة والراشدين من كتابه البداية والنهاية، ص٥١. رسالة دكتوراه غير منشورة.

والمعارف المتنوعة فهي مليئة – خاصة تفسيره وتاريخه – بالحديث عن أهل الكتاب وضلالاتهم وما حصل من التحريف في كتبهم المنزلة ومحاورته لقساوستهم ورجال الدين فيهم، وكذلك إلمامه بعقائد المذاهب والفرق الضالة وبيانه لانحرافها وزيغها كالقدرية والجهمية والمعتزلة، وكذلك ما حصل من المنازعات والخصومات بين السنة والرافضة.

ومعرفته للتتار وشريعتهم التي وضعها هولاكو في كتاب الياسق ليكون ديناً لهم ومرجعاً يتحاكمون إليه، إضافة بمعرفته بالعلوم الأخرى كعلم الهيئة والفلك والجغرافيا والتاريخ والأحداث السياسية والاجتماعية التي حدثت في زمانه، وغير ذلك مما يدل على سعة علمه وكثرة اطلاعه، وسنذكر بعض الأمثلة على ذلك بإيجاز فمثلاً:

* فيما يتعلق بعقائد أهل الكتاب والتحريف الذي حصل في كتبهم فيذكر رحمة الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[1] «يعني عرفاء وعلى قبائلهم بالمبايعة» وذكر قول ابن إسحاق[2] في أسماء العرفاء، ثم قال: «وقد رأيت في السفر الرابع من التوراة تعداد النقباء على أسباط بني إسرائيل وأسماء مخالفة لما ذكره ابن إسحاق»[3]، ويحكي قصة

---

(١) سورة المائدة، الآية [١٢].

(٢) هو محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني له السيرة النبوية، وكتاب الخلفاء، وكتاب المبتدأ والخبر، وهو من حفاظ الحديث، زار الإسكندرية سنة ١١٩هـ، وسكن بغداد ومات فيها سنة ١٥١هـ، الأعلام ٦/٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين بن كثير ٢/٥٣، طبعة دار عالم الكتب بالرياض، ط٢ ١٤١٨هـ.

تبديل دين المسيح وتحريفه على يد قسطنطين[١] وأنه جمعهم في محفل كبير من مجامعهم... ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم اتفقوا على قول وصمموا عليه، ومال إليهم الملك وكان فيلسوفاً فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا الأمانة الكبيرة بل هي الخيانة العظيمة ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعاً كثيرة وحرفوا دين المسيح وغيروه، فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها، بلاد الشام والجزيرة و الروم فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشر ألف كنيسة..[٢].

ومما يدل على تمكن ابن كثير من معرفة عقائد النصارى أن بعض النصارى يسأله ويستشيره في دينه النصرانية كما فعل البترك بشارة، حينما بايعه مطارنة الشام وجعلوه بتركاً بدمشق عوضاً عن البترك بأنطاكية، فذكر له ابن كثير أن هذا أمر مبتدع في دينهم وبين له السبب في ذلك ثم قال ابن كثير: «وقد تكلمت معه في دينهم ونصوص ما يعتقده كل من الطوائف الثلاثة وهم الملكية واليعقوبية — ومنهم الإفرنج والقبط — والنسطورية فإذا هو يفهم بعض الشيء ولكن حاصلة أنه حمار من أكفر الكفار»[٣].

---

(١) هو قسطنطين الكبير واسمه فلايفيسو فاليريوس، ولد في نايسا (نيس حاليا) وأصبح والده أمبراطورا للمقاطعات الغربية عام ٣٠٥م، وعندما توفي عام ٣٠٦ أعلن الجيش قسطنطين خلفا لوالده، وهو أول أمبراطور روماني يدخل النصرانية، توفي سنة ٣٣٧م. انظر: الموسوعة العربية العالمية ١٨/١٧١، الناشر مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع بالرياض ١٤١٦هـ.

(٢) التفسير ٣/١٥٤، وانظر كذلك المرجع نفسه ٣/٥٢٤.

(٣) البداية والنهاية ١٨/٧١٦.

* وكذلك إلمامه ومعرفته بالجغرافيا والفلك، يقول رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾[١]: «كانت الجنان بحافتي هذا النهر من أوله إلى آخره في الشقين جميعاً ما بين أسوان إلى رشيد وكان له سبع خُلَج، خليج الإسكندرية وخليج دمياط وخليج سردوس، وخليج مَنْف، وخليج الفيوم، وخليج المَنْهى، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى أخره ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها»[٢].

ويقول عن أنواع الرياح عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣]: «أي جنوباً وشاماً ودبوراً، وصبا بحرية وبرية ليلية ونهارية ومنها ما هو للمطر ومنها ما هو للّقاح ومنها ما هو غذاء الأرواح ومنها ما هو عقيم»[٤].

ويقول عن الكواكب التي في السماء: «وأن منها سيارات وهي المتحيّرة في اصطلاح علماء التسيير، وهو غالبه صحيح بخلاف علم الأحكام فإن غالبه باطل، ودعوى ما لا دليل عليه، هي سبعة: القمر في سماء الدنيا وعطارد في الثانية والزهرة في الثالثة... وعندهم أن الأفلاك السبعة بل الثانية تدور بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات في اليوم والليلة دورة كلية من الشرق إلى الغرب،

---

(١) سورة الدخان، الآيتان [٢٥-٢٧].

(٢) التفسير ٤/١٦٨.

(٣) سورة الجاثية، الآية [٥].

(٤) المرجع نفسه ٤/١٧٥.

وعندهم أن كل واحد من الكواكب السيارات يدور على خلاف فلكه من المغرب إلى المشرق، فالقمر يقطع لفلكه في شهر والشمس تقطع فلكها، وهو الرابع في سنة فإذا كان السَّيْران ليس بينهما تفاوت وحركاتهما متقاربة كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا اثنتي عشرة مرة، وزحل يقطع لفلكه وهو السابع في ثلاثين سنة، فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلاثمائة وستين مرة»[1].

---

(١) البداية والنهاية ١/٧٦-٧٧،

ونظراً لعدم نضوج بعض العلوم آنذاك في عصر ابن كثير كعلم الفلك والطب والكيمياء - يراد بها عند القدماء تحويل بعض المعادن إلى بعض، وعلم الكيمياء عندهم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية وجلب خاصة جديدة لها ولا سيما تحويلها إلى ذهب. المعجم الوسيط ص ٨٠٨ - ونحوها من العلوم الطبيعية كما هي عليه الآن، فإنه يلتمس العذر لابن كثير فيما يقع فيه أحياناً من الآراء والأحكام التي تظهر مخالفتها لما هو معلوم في الواقع الحالي، وذلك مثل قوله: « ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو» وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن ٢٢]، التفسير ٢/٢٣١)، وقد ثبت أن بعض الأنهار الحلوة الماء قد يستخرج منها اللؤلؤ كما نصت الآية، ففي القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي تم استخراج اللؤلؤ من بعض الأنهار الواقعة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، حيث يعيش بعض أنواع المحار في المياه العذبة، واستخرج اللؤلؤ النهري من أنهار اسكتلندا، وعرف باللؤلؤ الإنجليزي، وقد بيع قسم منه إلى فرنسا والدول المجاورة الأخرى.(منتدى الساحات الالكترونية www.arabsys.net) وكذلك في سنة ١٩٨٨م أنتجت اليابان ٧١,٦ طن من اللؤلؤ من بينها ٧٠ طنا من المياه المالحة و ١,٧ طناً من المياه العذبة. (موقع جامعة الملك عبد العزيز صفحة الدكتور / سامي عبد العزيز رحيم الدين www.kau.edu.sa).

وانظر: إسماعيل عبد العال، ابن كثير ومنهجه في التفسير، ص٣٤٣-٣٤٧، مطبعة الملك فيصل الإسلامية، القاهرة، ط١ ١٩٨٤م.

وأخيراً عندما تحدث عن الياسق وهو الكتاب الذي وضعه جنكيز خان ملك التتار ليكون شرعاً متبعاً للتتار يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]، «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم «الياسق» وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام تم اقتباسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يُحكم سواه في قليل ولا كثير»[2].

شيوخه:

تلقى الحافظ ابن كثير العلم على شيوخ كثيرين[3] لهم قدم راسخة في العلم ومكانة عظيمة عند العامة والخاصة فمنهم:

---

(١) سورة المائدة، الآية [٥٠].

(٢) التفسير ٢/٨٨.

(٣) بلغ مجموعهم أربعة وأربعين شيخاً، انظر: الإمام ابن كثير سيرته ومؤلفاته ومنهجه في كتابه التاريخ، د. مسعود عبد الرحمن الندوي، ص٤٣، مطبعة دار ابن كثير بدمشق، ط١ ١٤٢٠هـ.

[١] إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن ضياء بن سباع الفزاري المعروف ببرهان الدين ابن الفِرْكاح، شيخ المذهب وعلمه ومفيد أهله شيخ الإسلام مفتي الفرق بقية السلف سمع عليه ابن كثير صحيح مسلم وغيره وقال: «وبالجملة فلم أر شافعياً من مشايخنا مثله»[(١)]، توفى سنة ٧٢٩هـ.

[٢] شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن أبي طالب بن نعمه بن حسن الصالحي الحجازي المعروف بابن الشحنه، سمع ابن كثير عليه بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحو من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع[(٢)]. توفي سنة ٧٣٠هـ.

[٣] الحافظ أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك جمال الدين ابن الزكي أبو محمد القضاعي الكلبي المشهور بالمزي المتوفى سنة ٧٤٢هـ، وقد لازم ابنُ كثير المزي وسمع منه أكثر تصانيفه واستفاد منه في الحديث والرجال وتخرج على يديه، وصاهره فتزوج ابنته وصار قريباً منه في بيته، وترجم له ووصف يوم وفاته[(٣)].

[٤] الحافظ الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز أبو عبد الله شمس الدين الدمشقي، الحافظ للحديث المحقق مؤرخ الإسلام والمسلمين، المتوفى

---

(١) البداية والنهاية ١٨/٣١٦-٣١٧.

(٢) المرجع نفسه ١٨/٣٢٧-٣٢٨.

(٣) المرجع نفسه ١٨/٤٢٧-٤٢٨.

سنة ٧٤٨هـ، وتكرر وصف ابن كثير له بـ«شيخنا» وقال: «وقد ختم به شيوخ الحديث وحفاظه»[١].

[٥] كمال الدين أبو المعالي بن الشيخ علاء الدين علي بن عبد الواحد بن خطيب زمكلا عبدالكريم بن خلف من نبهان الأنصاري الشافعي ابن الزملكاني المتوفى سنة ٧٢٧هـ، وصفه ابن كثير بشيخنا[٢] العلامة وقال: «انتهت إليه رياسة المذهب تدريساً وإفتاء ومناظرة»[٣].

[٦] الحافظ علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد البرزالي الشافعي المتوفى سنة ٧٣٩هـ، مؤرخ الشام، تكرر ذكر ابن كثير له بشيخنا[٤]، واعتبر كتابه البداية والنهاية ذيلاً لتاريخ البرزالي وقال: «هذا آخر ما أرّخه شيخنا الحافظ البرزالي في كتابه الذي ذيّل به على تاريخ شهاب الدين أبي شامه، وقد ذيلت على تاريخه إلى زماننا هذا، وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء ٢٠ جمادى الآخرة من سنة ٧٥١هـ»[٥].

[٧] شيخ الإسلام أحمد ابن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨هـ، صحبه ابن كثير وتعلم منه وتفقه عليه

---

(١) البداية والنهاية ١٨/٥٠٠.

(٢) انظر ص ٥٠ من هذا الكتاب.

(٣) المرجع نفسه ١٨/٢٨٦.

(٤) انظر ص ٥٠ من هذا الكتاب.

(٥) المرجع نفسه ١٨/٤٠٨.

وأحبه[١] بل فتن بحبه كما قال ابن حجر: «وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه وامتحن بسببه»[٢]، وقال ابن العماد[٣]: «وصحب ابن تيمية – يعني ابن كثير – وكانت له خصوصية بابن تيمية ومناضلة عنه واتباع له في كثير من آرائه، وكان يُفتي برأيه في الطلاق وامتحن بسبب ذلك وأوذي»[٤].

ويظهر هذا الحب في عبارات ابن كثير المتكررة التي ملؤها الإطراء والثناء والإعجاب بشيخه، فمثلاً: حينما ذكر وصف المجلس الذي حضره القضاة والعلماء عند نائب السلطة بالقصر لقراءة عقيدة الشيخ ابن تيمية «الواسطية»، وتكلم الشيخ صفي الدين الهندي[٥] مع ابن تيمية كلاماً

---

(١) كانت صلة ابن كثير بابن تيمية ومحبته له مبكرة، يقول ابن كثير في حوادث سنة ٧٠٩هـ، أي: لما كان عمره ثمان سنوات أو تسع: «وجلست يوماً إلى القاضي صدر الدين الحنفي بعد مجيئه من مصر قال لي: أتحب ابن تيمية؟ قلت: نعم. فقال لي وهو يضحك: والله لقد أحببت مليحاً»، البداية والنهاية ١٨/٩٦.

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ١/٤٠٠ دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ.

(٣) هو عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي أبو الفلاح، مؤرخ، فقيه، عالم بالأدب، ولد في صالحية دمشق، وأقام في القاهرة مدة طويلة، ومات بمكة حاجا، توفي سنة ١٠٨٩هـ. الأعلام ٢/٢٩٠.

(٤) شذرات الذهب ٦/٢٣١-٢٣٢.

(٥) هو محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي أبو عبد الله، صفي الدين الهندي، فقيه أصولي، ولد بالهند وخرج من دهلي سنة ٦٦٧هـ فزار اليمن وحج ودخل مصر والروم واستوطن دمشق، له مصنفات، توفي سنة ٧١٥هـ. الأعلام ٦/٢٠٠.

كثيراً، فقال ابن كثير: «ولكن ساقيته لا طمت بحراً»[١]. ولما طلب السلطان العلماء لمناظرة ابن تيمية قال ابن كثير: «فاعتذروا بأعذار بعضهم بالمرض، وبعضهم بغيره لمعرفتهم بما ابن تيمية منطوٍ عليه من العلوم والأدلة، وأن أحداً من الحاضرين لا يطيقه»[٢]، وقد تكررت هذه العبارات كثيراً عند ابن كثير[٣].

وليس غريباً أن يعجب ابن كثير بشيخه هذا الإعجاب، ويصل إلى حد الافتتان كما قال ابن حجر[٤]، فليس هو وحده الذي بهره ابن تيمية وأعجبه، بل إن جهابذة العلماء وأكابرهم في ذلك العصر، من شيوخ ابن تيمية وأقرانه

---

(١) البداية والنهاية ١٨/٥٣.

(٢) المرجع نفسه ١٨/٧٤.

(٣) وقد تكررت مثل هذه العبارات عن ابن كثير حينما يذكر شيخه أو يتحدث عن مواقفه، انظر مثلاً: البداية والنهاية ١٨/٤٦، ١٨/٥٠، ١٨/٥٣، ١٨/٥٥، ١٨/٦٧، ١٨/٨٤، ١٨/٩٤، ١٨/١٠٧، ١٨/٢٥٦، ١٨/٢٥٨، ١٨/٢٩٣، ١٨/٢٩٨.

(٤) هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر، من أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان بفلسطين ومولده ووفاته بالقاهرة، ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ، وعلت له شهرة فقصده الناس للأخذ عنه وأصبح حافظ الإسلام في عصره من تصانيفه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ولسان الميزان، والإصابة في تمييز الصحابة، وأبناء الغمر بأنباء العمر، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري، وغيرها. توفي سنة ٨٥٢هـ. الأعلام ١/١٧٨.

وتلاميذه، وممن يحبه ويعاديه، كل أولئك أعجبوا بابن تيمية وأدهشتهم شخصيته وهالهم غزارة علمه وتنوع معارفه، فمثلاً يقول الذهبي وهو من تلاميذ ابن تيمية: «وهو – أي ابن تيمية – أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته فلو حلّفت بين الركن المقام لحلفت ما رأيت بعيني مثله ولا رأى هو مثل نفسه في العلم»[١].

وابن الزملكاني وهو ممن اختلف مع ابن تيمية في آخر حياته، وهمَّ بإيذائه ولكن عاجلته المنية[٢] ومع ذلك فقد وجد ابن كثير بخط الزملكاني: «أنه – ابن تيمية – اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين وكتب على مصنف له هذه الأبيات:

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلّت عن الحصر

هو حجة الله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر

هو آية في الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر[٣]

كما أن هذا الثناء جاء من شخص بينه وبين ابن تيمية مودة ومحبة منذ الصغر وسماع الحديث والطلب في نحو خمسين سنة»[٤]، وقال بعد مناظرة له «لم ير

---

(١) البداية والنهاية ١٨/٢٩٨.

(٢) المرجع نفسه ١٨/٢٩٨.

(٣) المرجع نفسه ١٨/٢٩٨ - ٢٩٩.

(٤) المرجع نفسه ١٨/٢٩٨-٢٩٩.

من خمسمائة سنة ... أحفظ منه»[١]، وكذلك ابن مخلوف[٢] قاضي القضاء بمصر، وهو من ألد أعداء ابن يتيمة وممن حرّض السلطان على قتله، لم يسعه إلا أن يعترف بفضل ابن تيمية بل وأنه ما رأى مثله فيقول: «ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا»[٣].

وقال ابن دقيق العيد[٤]: «لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين يديه يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد»[٥].

---

(١) الرد الوافر للإمام ابن ناصر الدين الدمشقي ص ١٠٣، طبعة المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ بيروت.

(٢) هو علي بن مخلوف قاضي القضاة زين الدين بن ناهض بن مسلم بن خلف النويري المالكي، سمع الحديث واشتغل وحصّل وكان غزير المروؤة والاحتمال والإحسان إلى الفقهاء ومن يقصده توفي سنة ٧١٨هـ. البداية والنهاية ١٨/١٨٥-١٨٦.

(٣) البداية والنهاية ١٨/٩٥.

(٤) هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع أبو الفتح، تقي الدين القشيري، المعروف كأبيه وجده بابن دقيق العيد، قاض من أكابر العلماء بالأصول، مجتهد، تعلم بدمشق والإسكندرية ثم بالقاهرة وولي قضاء الديار المصرية سنة ٦٩٥هـ، له تصانيف، توفي سنة ٧٠٢هـ. الأعلام ٦/٢٨٣.

(٥) العقود الدرية لابن عبد الهادي ص١٠، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيميه، تأليف مرعي بن يوسف الكرمي ص٢٩، تحقيق وتعليق نجم عبد الرحيم خلف، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.

هذا هو ابن تيمة في عيون محبيه وأصحابه وأعدائه فلا عجب إذاً بعد إيراد مثل هذه النصوص وهي كثيرة[١] أن يُحب ابن كثير شيخه بل يفتن في ذلك ويمتحن ويؤذى بسببه[٢].

---

(١) للاستزادة انظر مثلاً ما قاله:

- أبو الفتح محمد بن محمد بن سعيد الناس اليعمري الشافعي المتوفى سنة ٧٣٤هـ قال: «.... برز في كل فن على أبناء جنسه ولم تر عين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه... كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجمّ الغفير... إلى أن دب إليه من أهل بلدة زاد الحسد». الرد الوافر ص ٥٧-٥٨، والشهادة الزكية ص ٢٦.
- وقال المزي: «ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا اتباع لهما منه» الرد الوافر ص ٢١٣-٢١٤، الشهادة الزكية ص ٤٤-٤٥.
- وقال أحمد بن طرخان الملكاوي الشافعي المتوفى سنة ٨٠٣هـ: «مع ذلك والله إن الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخ الإسلام لو دروا ما يقول لرجعوا إلى محبته وموالاته»، وقال: «كل صاحب بدعة ومن ينتصر له — لو ظهروا - لابد من خمودهم وتلاشي أمرهم، وهذا الشيخ تقي الدين ابن تيمية كلما تقدمت أيامه تظهر كرامته ويكثر محبوه وأصحابه»، الرد الوافر ص ١٣٤. وغيرهم كثير. انظر: دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها على الحركات الإسلامية تأليف صلاح الدين مقبول أحمد، ج٢ ص٦٢٩-٦٣٨، طبعة دار ابن الأثير الكويت، ط٢ ١٤١٦هـ.

(٢) وليس كما يقول الإمام تقي الدين الحسيني رحمه الله أنه لا يؤخذ بقول ابن كثير وغيره من الذين جالسوا ابن تيمية وهم شباب فافتتنوا بحبه وبمجالسته يقول: «إن ابن كثير والشمس ابن عبد الهادي والصلاح الكتبي لا يؤخذ بأقوالهم في ابن تيمية لافتتانهم بمجالسته وهم شباب». الحسيني: ذيل تذكرة الحفاظ ص٥٩.

ولا أدري هل ابن دقيق العيد والمزي والذهبي وابن الزملكاني والبرزالي وغيرهم كان غاية إعجابهم بابن تيمية وشدة مدحهم وإطرائهم له هو بسبب افتتانهم بمجالستهم له وهم شباب!!!.

ولا شك أن هذه الصحبة لابن تيمية أثرت في حياة ابن كثير تأثيراً عميقاً، وأفادته في علمه ودينه وخلقه وتكوين شخصية مستقلة له، فالتجديد الذي تميز به ابن كثير مع غزارة العلم وأصالة الفكر كان فضله يعود بعد توفيق الله إلى علاقته بابن تيمية[١].

بل إن ابن كثير نفسه قد تفوق على شيخه في تطبيق المنهج النظري الذي صاغه ابن تيمية في تفسير القرآن، وأخذ هذه النظرية عنه تلميذه ابن كثير، نجد أنه يعد خير من طبقها «ولا نغالي إذا قلنا إنه كان أكثر التزاماً بها من أستاذه الذي طالما استطرد وضمَّن مباحث ومسائل وقضايا كان الواجب أن لا تندرج تحته»[٢].

وهناك غيرهم ممن ذكرت صرّح ابن كثير أنه تتلمذ عليهم واستفاد منهم[٣]، ومنهم من ذكرهم بقوله: «شيخنا»[٤].

---

(١) انظر: الإمام ابن كثير سيرته ومؤلفاته، د. مسعود الندوي، ص٤٩، مطبعة دار ابن كثير بدمشق، ط١ ١٤٢٠هـ.

(٢) ابن كثير منهجه في التفسير، د. اسماعيل عبد العال، ص٢٧٦.

(٣) انظر: البداية والنهاية، ١٨/٢٢٩-٢٣٠، ١٨/١٥٩، ١٨/٣٢٦، ١٨/٣٩٧، ١٨/٢٤٨، ١٨/٢٤٦، ١٨/٢٥٨، ١٨/١٧٠، ١٨/٣١٥، ١٨/٣٤١-٣٤٢.

(٤) مثلاً: ابن تيمية: انظر التفسير ٢/٣٨٩، والبداية والنهاية ٨/٥٤٩، ٨/٥٧٩، ٨/٥٨٧، ٩/٢٨٩، ١٢/٢٨٧، ١٢/٥٩٨، ١٥/١١٢، ١٥/١٨٤، ١٥/٢٧٨، ١٧/٤٥١، ١٧/٤٨٣، ١٧/٥٩١، ١٧/٥٩٢، ١٨/٢١٣، ١٨/٢٣٧، ١٨/٤٦٦، ١٨/٤٨٦، ١٨/٥١٠. =

تلاميذه:

ذكر ابن العماد الحنبلي أن تلاميذ ابن كثير عدد كبير[1]، ويؤيد ذلك أن ابن

=والذهبي: البداية والنهاية ٢١١/٤، ٦٦٨/٧، ٦٧٧/٧، ٦٧٨/٧، ٦٨١/٧، ٥٦٨/٨، ٢٩١/٩، ٣٦٧/٩، ٦٠٤/٩، ٦٤٣/٩، ٦٤٤/٩، ٦٦٨/٩، ٦٦٩/٩، ٦٧١/٩، ٣٠/١٠، ٧٦/١٠، ١٠٩/١٠، ١٦٠/١٠، ١٧٠/١٠، ١٩٩/١٠، ٢٠٢/١٠، ٢٣٤/١٠، ١٠٣٤٦، ٤٠٠/١٠، ٧٦/١١، ٨٠/١١، ١١٨٣، ٧١٩/١١، ١٦٩/١٢، ٣٧١/١٢، ٤٢٠/١٢، ٦٠٠/١٢، ٦٥٩/١٢، ٣٦/١٣، ٢٠٣/١٣، ٤٣٤/١٣، ٦٥٤/١٤، ٦٨٤/١٤، ٦٨٧/١٤، ١١٢/١٥، ١٦/١٩، ٢١٢/١٧، ٣٦٣/١٧، ٤٣٢/١٨، ١٦٣/١٨، ١٦٥/١٨، ١٧٥/١٨، ١٨٣/١٨، ١٨٧/١٨، ٢٠٠/١٨، ٢٠٨/١٨، ٢١٠/١٨، ٢١٤/١٨، ٢١٦/١٨.

والمزي، المرجع نفسه ٩/١، ٣١٨/١، ٦٧/٥، ٥٥٢/١٤، ٦٥٤/١٤، ٦٨٤/١٤، ٣٩٦/١٤، ٤٠/١٨، ١٨١/١٨، ٢٣٥/١٨، ٢٨٦/١٨، ٢٨٩/١٨، ٣٠٠/١٨، ٣٠٥/١٨، ٣١٩/١٨، ٤٢٣/١٨، ٤٣٠/١٨، ٥٠٥/١٨، ٦٥/١٩، ١٥٢/١٩، ٣٠٧/١٩، ٣٢٣/١٩، ٤٣٧/١٩، ٤٣٢/١٩، ٤٦٩/١٩، ٤٧١/١٩.

وابن الزملكاني، المرجع نفسه ٣١٠/٩، ٣٢٨/٩، ٣٣٤/٩، ٣٤٧/٩، ٣٤٨/٩، ٣٥١/٩، ٣٥٢/٩، ٣٥٤/٩، ٣٥٥/٩، ٣٦٥/٩، ٣٩٠/٩، ٣٩٢/٩، ٣٩٥/٩، ٣٨٥/١٧، ٤١/١٨، ٢٨٦/١٨. والبرزالي، المرجع نفسه ٢٤٥/١٧، ٥١٤/١٧، ٤٢/١٨. وابن حامد البجلي، المرجع نفسه ٢٢٠/١٨. والدمياطي، المرجع نفسه ٦٠/١٨. والزربندي، المرجع نفسه ٢٣٠/١٨، وبرهان الدين الفزاري، المرجع نفسه ٣١١/١٨، ٢٣٩/١٨، ٣١٦/١٨، وعفيف الدين الأزجي، المرجع نفسه ٣٠٦/١٨، والعفيف المقدسي، المرجع نفسه ٣٩٧/١٨.

(١) انظر: شذرات الذهب ٢٣١/٦.

كثير نفسه تولى التدريس في عدة مدارس مثل النجيبية[١] والفاضلية[٢]، كما تولى مشيخة الحديث بالمدارس ودور الحديث الكبرى مثل المدرسة الصالحية[٣] ودار القرآن والحديث التنكيزية[٤] ودار الحديث الأشرفية الجوانية[٥] وغيرها من المدارس.

ومن أشهر تلاميذه:

[١] شهاب الدين حجي بن أحمد بن حجي بن موسى بن أحمد شهاب الدين الشافعي[٦] المتوفى سنة ٨١٦هـ، وقد استفاد ابن حجي من شيخه ابن كثير وأثنى عليه وقال: «ما اجتمعت به قط إلا استفدت منه ولازمته ست سنين»[٧].

[٢] الزركشي محمد بن بهادر بن عبد الله بدر الدين الزركشي

---

(١) انظر: الدارس في تاريخ المدارس للنعمي ١/٤٦٨-٤٧٢.

(٢) انظر: إنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر ١/٦٨، تحقيق الدكتور حسن حبش، إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة ١٣٨٩هـ.

(٣) انظر: الدارس ١/٣٦-٣٢٦.

(٤) انظر: المرجع نفسه ١/١٢٣-١٢٧.

(٥) انظر: المرجع نفسه ١/١٩-٤٧.

(٦) انظر: شذرات الذهب ٧/١١٧، الدارس ١/١٣٨-١٤٣، والأعلام لخير الدين الزركلي ١/١٠٥. طبعة دار العلم للملايين، بيروت – لبنان ط ١٥، ٢٠٠٢م.

(٧) إنباء الغمر ١/٣٩، الدارس ١/٣٦.

الشافعي[١] المتوفى سنة ٧٩٤هـ، قال ابن حجر[٢]: «رحل إلى دمشق فأخذ عن ابن كثير الحديث وقرأ عليه مختصره في علوم الحديث ومدحه ببيتين»[٣].

[٣] ابن الجزري شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الشافعي[٤] المتوفى سنة ٨٣٣هـ، وقد صرح ابن الجزري نفسه بالسماع من ابن كثير حيث قال: «وأما حديث أم زرع فسمعت شيخنا الحجة عماد الدين إسماعيل ابن كثير يقول ...»[٥].

---

(١) شذرات الذهب ٦/٣٣٥، الدر الكامنه ٣/٣٩٧.

(٢) الدر الكامنه ٣/٣٩٧.

(٣) والبيتان هما:

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا وجادوا بدمع لا يبيد غزير

ولو مزجوا ماء المدامع بالدما لكان قليلاً فيك يا ابن كثير

وذكرهما ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ١١/١٢٤.

(٤) مفتاح دار السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد مصطفى طاش كبرى زاده ١/١٩٢ دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٨م، الأعلام ٧/٢٧٤.

(٥) المصعد لأحمد بن الجزري، وهو منشور في أول مسند الإمام أحمد بتحقيق أحمد شاكر ١/٣١.

[٤] سعد الدين سعد بن يوسف بن إسماعيل النووي[١] المتوفى ٨٠٥هـ، قال النعمي: «حمل عن ابن كثير وقرأ عليه تأليفه اختصار علوم الحديث وأذن له ابن كثير في الفتوى»[٢] وغيرهم كثير.

مؤلفاته:

ومنها المطبوع والمخطوط والمفقود وسنذكر ذلك مفصلاً في الباب الثاني عند الحديث عن الكتب والمؤلفات لابن كثير.

صفات ابن كثير وفضائله:

لقد حبا الله سبحانه وتعالى الإمام ابن كثير حافظة قوية ومتميزة وموهبة عالية ومتفوقة ونبوغاً مبكراً، فحفظ القرآن كما مر معنا وهو في الحادية عشرة من عمره، وحفظ التنبيه في الفقه الشافعي وعرضه وهو في السنة الثامنة عشرة من سِنّه[٣].

فلذلك وصفه عدد من العلماء بحفظ المتون فقال شيخه الذهبي: «ويحفظ جُملة صالحة من المتون والرجال وأحوالهم وله حفظ ومعرفة»[٤].

وقال عنه تلميذه ابن حجي: «أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ورجالها

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ٩/٧.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس ٣٢٠/١.

(٣) راجع ص٣٤ من هذا الكتاب.

(٤) معجم محدثي الذهبي المعجم المختص لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ص٥٦، حققه وعلق عليه الدكتورة روحية عبدالرحيم السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

وأعرفهم بجرحها وصحيحها وسقيمها وكان أقرانه يعترفون له بذلك»[١][٢].

ثم إنه مع حفظه يتصف بكثرة الاستحضار فيصفه ابن العماد فيقول: «كان كثير الاستحضار قليل النسيان... وكان يستحضر التنبيه ويكرر عليه إلى آخر الوقت»[٣].

---

(١) طبقات المفسرين للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي ١/١١١، نشر مكتبة وهبة – القاهرة ط١ ١٣٩٢هـ، والدارس للنعيمي ١/٣٦.

(٢) ومع اعتراف أقران ابن كثير له بذلك وشهادة الجهابذة منهم له كالذهبي، إلا أن الحافظ ابن حجر رحمه الله قلل من شأن ابن كثير في معرفة علوم الحديث ورجاله، حيث قال في الدرر الكامنة: «ولم يكن على طريقة المحدثين في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من محدثي الفقهاء» (١/٣٧٤)، وهذا عجيب!! فكيف يكون ذلك وابن كثير المعروف بسعة علمه في الحديث وعلومه ومعرفة الأسانيد والعلل، فهو صاحب الموسوعة الضخمة في الحديث «جامع الأسانيد والسنن» الذي جمع فيه أحاديث الكتب الستة والمسانيد الأربعة (الصحيحان وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة ومسند الإمام أحمد والبزار وأبي يعلى الموصلي ومعجم الطبراني)، وكتاب التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل، وكتاب اختصار علوم الحديث اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح في المصطلح، إلى جانب أنه لازم شيخه الإمام الحافظ المزي، ولذلك لما نقل السيوطي في ذيل طبقات الحفاظ كلام ابن حجر في أنه: «لم يكن على طريقة المحدثين..» تعقبه بقوله: «العمدة في علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه وعلله واختلاف طرقه ورجاله جرحاً وتعديلاً وأما العالي والنازل فهو من الفضلات لا من الأصول المهمة» (ص٣٦٢)، «وهذا حق» كما يقوله الأستاذ أحمد شاكر في تعقيبه على كلام السيوطي (عمدة التفسير ١/٢٧).

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن العماد الحنبلي ١/٢٣، طبعة القدسي القاهرة ١٣٥٠هـ.

وقال تلميذه ابن حجي: «وكان يستحضر كثيراً من الفقه والتاريخ قليل النسيان»[١]، ثم إنه رحمه الله مع قوة حفظه واستحضاره فهو جيد الفهم كما يقول تلميذه ابن حجي: «وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح الذهن»[٢]، ويقول ابن حجر: «كان.. جيد الفهم»[٣]، ويقول ابن العماد عنه بأنه: «جيد الفهم»[٤].

ثم إنه رحمه الله صاحب خلق وفضيلة، شعاره العدل والإنصاف، فإن العدل كما يقول رحمه الله: «واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال .. والعدل به قامت السماوات والأرض»[٥]، ويتجلى ذلك في المواقف التي مر بها والأحداث التي عايشها وهي كثيرة جداً، وسنتحدث عن ذلك بشكل أكثر في الفصول القادمة إن شاء الله .

ثناء العلماء عليه:

إن مكانة ابن كثير العلمية، ومنزلته الرفيعة، وصفاته الحميدة، وأخلاقه العالية، ومحبته للناس، وعدله وإنصافه في التعامل معهم، جعلت شيوخه ورجال عصره يثنون عليه ويعترفون بعلمه ويشيدون بفضله ويُقرُّون بأمانته وحفظه، فهذا

---

(١) طبقات المفسرين ١/١١١.

(٢) المرجع نفسه ١/١١١، وطبقات الشافعية أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن تقي الدين بن قاضي شهبه ٢/٢٣٨، نشر مؤسسة الندوة الجديدة ١٤٠٧هـ.

(٣) إنباء الغمر بأبناء العمر للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق الدكتور حسن حبش ١/٣٩، إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٩هـ.

(٤) شذرات الذهب ٦/٢٣١. وانظر ابن كثير د. محمد الزحيلي ص ١١٨-١٢٣، مطبعة دار القلم بدمشق ١٤١٥هـ.

(٥) التفسير ٢/١٠.

الإمام العيني[١] يقول فيما نقله عنه ابن تغري بردي: «كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، سمع وجمع وصنّف ودرّس وحدّث وألّف، كان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، انتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير وله مصنفات عديدة ومفيدة»[٢].

وقال عنه شيخه الحافظ الذهبي: «الإمام المفتي المحدث البارع ثقة متفنن ومحدث متقن ومفسر نقاد»[٣]، وقال أيضاً عنه: «له عناية بالرجال والمتون والفقه خرّج وألّف وناظر وصنّف وفسّر وتقدم»[٤].

وأما ابن حبيب[٥] فيقول عن ابن كثير: «إمام ذوي التسبيح والتهليل وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف وأطرب الأسماع بالفتوى وصنف وحدث

---

(١) هو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد أبو محمد بدر الدين العيني الحنفي، مؤرخ علامة من كبار المحدثين، أصله من حلب، ولي في القاهرة الحسبة وقضاء الحنفية، ثم صُرف عن وظائفه وعكف على التدريس والتصنيف إلى أن توفي بالقاهرة، توفي بالقاهرة سنة ٨٥٥هـ، (الأعلام ١٦٣/٧).

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٣/١١.

(٣) الدرر الكامنه ٤٠٠/١، وطبقات المفسرين ١١١/١.

(٤) تذكرة الحفاظ للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، طبعة دار التراث العربي بيروت ١٩٥٨.

(٥) هو حسن بن عمر بن الحسن بن حبيب أبو محمد بدر الدين الحلبي، مؤرخ، من الكتاب المترسلين، ولد في دمشق، ونُصب أبوه محتسباً في حلب فانتقل معه، فنشأ فيها ونسب إليها، ثم رحل إلى مصر والحجاز وعاد، وتنقل في بلاد الشام واستقر في حلب. له نسيم الصبا، ودرة الأسلاك في دولة الأتراك، والمقتفى في فضائل المصطفى وغيرها، توفي سنة ٧٧٩هـ. (الأعلام ٢٠٨/٢-٢٠٩).

وأفاد، وطارت فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير»[١].

وقال ابن ناصر الدين[٢] الدمشقي: «الشيخ العلامة الحافظ عماد الدين ثقة المحدثين وعمدة المؤرخين وعلم المفسرين»[٣].

وقال الداودي[٤]: «كان قدوة العلماء والحفاظ وعمدة أهل المعاني والألفاظ»[٥].

وغير ذلك من عبارات المدح والثناء والإعجاب والتي لو ذكرناها لطال بنا المقام.

وفاته:

اتفق المؤرخون على أن ابن كثير رحمه الله توفي بدمشق سنة ٧٧٤هـ في شعبان يوم الخميس في خامس عشر شعبان[٦].

---

(١) شذرات الذهب ٦/٢٣١، ومفتاح دار السعادة ١/٢٥٢.

(٢) هو محمد بن أبي بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن مجاهد القيس الدمشقي الشافعي شمس الدين الشهير بابن ناصر الدين، ولد بدمشق سنة ٧٧٧هـ ونشأ بها وتفقه وأتقن العلوم، توفي مسموما سنة ٨٤٢هـ، شذرات الذهب ٧/٢٤٣، والبدر الطالع ٢/١٩٨.

(٣) الرد الوافر ص ٩٢.

(٤) هو محمد بن علي بن أحمد شمس الدين الداودي المالكي، شيخ أهل الحديث في عصره، مصري من تلاميذ جلال الدين السيوطي، له كتب منها: "طبقات المفسرين"، و"ذيل طبقات الشافعية للسبكي للحافظ السيوطي"، توفي في القاهرة سنة ٩٤٥هـ (الأعلام ٦/٢٩١).

(٥) طبقات المفسرين ١/١١٠.

(٦) أنباء الغمر ١/٤٠٠.

وحدد الداودي وفاته فقال: «مات في يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة»[١]، وقال ابن تغري بردى: «توفي يوم الخميس سادس وعشرين شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة بدمشق عن أربع وسبعين سنة»[٢].

ودفن رحمه الله بتربة شيخ الإسلام ابن تيمية بمقبرة الصوفية خارج باب الصغير من دمشق وكانت جنازته مشهودة[٣].

وقد رثاه أحد طلابه فقال:

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا وجادوا بدمع لا يبيد كثير
ولو مزجوا ماء المدامع بالدما لكان قليلاً فيك يا ابن كثير[٤]

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وجزاه على ما قدم للإسلام والمسلمين خيراً.

---

(١) طبقات المفسرين ١/١١١.

(٢) المنهل الصافي ٢/٤١٥.

(٣) النجوم الزاهرة ١١/١٢٤.

(٤) المرجع نفسه ١١/١٢٤، المنهل الصافي ٢/٤١٥.

ثانياً: تفسير القرآن العظيم «لابن كثير» مكانته وأهميته

يعتبر تفسير[1] القرآن العظيم لابن كثير من أفضل التفاسير وأهمها قال الإمام

---

(١) لم يبدأ الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير القرآن من أول الكتاب العزيز وإنما بدأ بالتفسير من أول الآية ١٠٠ من سورة الأنعام، حتى أتم تفسير القرآن، ثم رجع عوداً على بدء فكتب تتمة التفسير من أوله إلى آخر الآية ٩٩ من سورة الأنعام (عمدة التفسير ٥/٨).

وقد حاول الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله أن يجد تعليلاً وتفسيراً لهذا الأسلوب الذي سلكه ابن كثير حيث لم يبدأ من أول القرآن كعادة المفسرين، فذكر الأستاذ شاكر بأن «الحافظ ابن كثير رحمه الله بدأ دروساً علمية لتلاميذه في تفسير القرآن تفسيراً شفوياً في الدرس فقط، وأن الرغبة كانت تساوره ليكتب ما يفسر به، فيتردد في الكتابة، أو أن طلابه كانوا يسألونه كتابة التفسير فيتراوح بين الإقدام والإحجام، حتى أتم التفسير الشفوي في الدرس إلى نهاية الآية [٩٩] من سورة الأنعام، ثم زال تردده ووفقه الله للعزم على كتابة هذا التفسير الجليل، فلم يرد أن يقطع الدرس ويستأنف التفسير فكتب من حيث انتهى في القراءة من بدء الآية [١٠٠] من سورة، الأنعام حتى إذا أتم درس التفسير العظيم قراءة وكتابة استأنف إتمام التفسير من أول الكتاب العزيز إلى حيث انتهى من قبل، فكان القسم الذي كتبه من سورة الأنعام إلى آخر الآية [٩٩] هو آخر الجزء الأول من تفسيرها في خطه فهو جزء أول في تفسيرها لهذا السبب، لا قصداً إلى تقسيم سورة الأنعام إلى أجزاء، ولا قصداً إلى تقسيم التفسير نفسه إلى أجزاء، إذ لو قصد هذا لم يكن من أول سورة الأنعام أول أجزاء التفسير كما هو بديهي» (عمدة التفسير ٥/٨).

ومع تقديرنا لهذا التعليل من الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله إلا أن هذا التحليل التنبّئي يبقى احتمالاً ظنياً وليس هو عين الحقيقة، وهو ما أكده الأستاذ أحمد شاكر بنفسه حيث قال: «ولعلنا نجد فيما نستقبل من العمل فيه إن شاء الله ما يدلنا على حقيقة ما كان وهذا غاية جهدنا الآن» (عمدة التفسير ٥/٩)، ويمكن أن يقال أن السبب - في ظني والله أعلم - أن ابن كثير رحمه الله قد تأثر بشيخه ابن تيمية في عدم الحاجة إلى كتابة تفسيرٍ للقرآن كاملاً، فقد ذكر ابن عبد الهادي في العقود الدرية ص٢١-٢٢، أن شيخ الإسلام ابن تيمية لما طلب منه ابن رشيق المغربي المتوفى ستة ٧٤٥هـ أن يكتب على جميع القرآن تفسيرا مرتبا كتب له ابن=

السيوطي[١]: «لم يؤلف على نمطه مثله»[٢]، وهذا راجع إلى سلامة المنهج الذي سار عليه ابن كثير في تفسيره وهو التفسير بالمأثور، وقد بيّن ذلك في مقدمة التفسير بقوله: «فإن قال قائل فما أحسن التفسير؟ فالجواب إنّ أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أُجمل في مكان فإنه قد يبسط في موضع آخر، فإن أعياك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ... وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح ....»[٣].

=تيمية (أن القرآن فيه ماهو بين بنفسه وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب.....) ولذلك لم يكتب رحمه الله تفسيراً للقرآن كاملاً، وإنما فسر بعض الآيات في مواطن مختلفة للقرآن، فلعل ابن كثير تأثر بشيخه في هذا ولذلك كان متردداً في كتابة التفسير، ثم زال هذا التردد، وبالتالي بدأ الكتابة في التفسير من حيث انتهى في القراءة في الدرس الشفوي وهو الآية [٩٩] من سورة الأنعام، كما قال الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله.

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي جلال الدين، إمام حافظ مؤرخ أديب، نشأ في القاهرة يتيماً ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل، توفي سنة ٩١١هـ (الأعلام ٣/٣٠١).

(٢) ذيل طبقات الحفاظ ص٣٦١، وقد أثنى عليه من المعاصرين الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني مدرس علوم القرآن بالأزهر في كتابه مناهل العرفان في علوم القرآن بقوله: «وتفسير ابن كثير من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها جميعاً» ١/٤٩٨، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

(٣) التفسير ١/١٠.

ثم قال «فصل إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عند الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر[١] فإنه كان آية في التفسير وكسعيد بن جبير[٢] وعكرمة ﷺ مولى ابن عباس، وعطاء ابن أبي رباح ﷺ، والحسن البصري ﷺ، ومسروق بن الأجدع ﷺ[٣]، وسعيد بن المسيب ﷺ[٤]»[٥].

وهذه الطريقة تعتبر أحسن الطرق في تفسير القرآن الكريم، وقد اعتنى العلماء والمسلمون بهذا التفسير عناية عظيمة، فمنهم من حققه وصححه وعلق

---

(١) انظر: ترجمته ص ٧٨.

(٢) هو سعيد بن جبير الأسدي بالولاء، الكوفي أبو عبد الله، تابعي كان أعلمهم على الإطلاق وهو حبشي الأصل، من موالي بني والية من الحارث من بني أسد، أخذ العلم عن عبدالله ابن عباس وعبد الله بن عمر ﷺ، ولما خرج عبد الرحمن الأشعث على عبد الملك بن مروان كان سعيد معه إلى أن قتل عبد الرحمن، فذهب سعيد إلى مكة فقبض عليه واليها خالد القسري وأرسله إلى الحجاج فقتله بواسط سنة ٩٥هـ (الأعلام ٣/٩٣).

(٣) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة تابعي ثقة من أهل اليمن، قدم المدينة في أيام أبي بكر، وسكن الكوفة، وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه بالقضاء، توفي سنة ٦٣هـ (الأعلام ٧/٢١٥).

(٤) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي أبو محمد سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءً، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته حتى سمي راوية عمر، توفي بالمدينة سنة ٩٤هـ (الأعلام ٣/١٠٢).

(٥) التفسير ١/١٢.

عليه ومنهم من اختصره[1].

---

(١) من أشهر طباعته:

- طبعة بولاق بمصر عام ١٣٠٢هـ.
- طبعة السيد محمد رشيد رضا مع تفسير البغوي في تسعة مجلدات.
- طبعة دار أحياء التراث العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه، عام ١٣٧٢هـ في أربع مجلدات.
- طبعة مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة عام ١٣٤٤هـ في أربع مجلدات.
- طبعة دار الفكر، ودار الأندلس عام ١٣٨٥هـ في سبع مجلدات.
- طبعة دار الشعب سنة ١٣٩٠هـ في ثمانية أجزاء.
- طبعة دار الأرقم في الكويت صدر الجزء الأول عام ١٤٠٥هـ.
- طبعة دار طيبه سنة ١٤١٨هـ في ثمانية مجلدات تحقيق سامي محمد سلامة.
- طبعة دار عالم الكتب بالرياض في أربع مجلدات ١٤١٨هـ.

انظر منهج ابن كثير في التفسير د. سليمان اللاحم ص٦٥-٦٧، وانظر: حياة ابن كثير وكتابه تفسير القرآن العظيم، د. محمد الفالح ص ٧١-٧٥.

أما المختصرات فمن أقدمها:

- مختصر تفسير ابن كثير لابن اليونانيه محمد علي البعلي الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٢هـ، وهذا المختصر لا يزال مفقوداً، انظر حياة ابن كثير، للفالح، ص ١٢٩ مرجع سابق.
- عمدة التفسير لأحمد محمد شاكر عام ١٣٧٦هـ في دار المعارف بمصر في خمسة أجزاء من أول التفسير إلى نهاية آية [٨] من سورة الأنفال، وقد استمر مطبوعا على هذا النحو حتى عام ١٤٢٣هـ وذلك ظنا من الباحثين أن المنية عاجلت المؤلف قبل أن يتم هذا العمل، والحقيقة أن المؤلف قام باختصار تفسير ابن كثير إلى آخر سورة الناس حيث إن دار الوفاء اتصلت بآل شاكر وحصلت على النسخة التي قام فضيلة الشيخ أحمد شاكر باختصارها بخط يده والتي ختمها بقوله: «أتممت اختصار هذا السفر الجليل في المسودة ليكون "عمدة التفسير بين=

=العشائين يوم الأحد الثاني عشر من محرم سنة ١٣٧٦هـ" انظر: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير في اختصار القرآن العظيم، المحقق الشيخ أحمد شاكر، أعده أنور الباز ص ٦، ٧ طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ. وأعادت طبعته دار الوفاء ثانية عام ١٤٢٦هـ.

- تيسير العلي القدير لاختصار ابن كثير، لمحمد نسيب الرفاعي طبع في أربعة مجلدات سنة ١٣٩٢هـ.
- مختصر ابن كثير، لمحمد علي الصابوني طبع سنة ١٣٩٣هـ، في ثلاث مجلدات.
- مختصر تفسير ابن كثير لمحمد كريم راجح طبع سنة ١٤٠٣هـ في مجلدين.
- لباب التفسير من ابن كثير طبع سنة ١٤١١هـ في أربع أجزاء للدكتور عبد الله محمد بن عبدالرحمن آل الشيخ.
- فتح القدير في تهذيب تفسير ابن كثير، لمحمد أحمد كنعان، طبع سنة ١٤١٢هـ.

انظر منهج ابن كثير للدكتور اللاحم ص٦٩-٧٠، مرجع سابق، وانظر حياة ابن كثير، د. الفالح ص ١٢٩-١٣٢، مرجع سابق. وكان آخر الطبعات التي وقفت عليها طبعة دار الحديث بالقاهرة عام ١٤٢٢هـ في ثمانية مجلدات بتحقيق الدكتور السيد محمد السيد، والدكتور وجيه محمد أحمد، ومصطفى فتحي عبد الحكيم وسيد إبراهيم صادق، وكذلك طبعة دار عالم الكتب بالرياض عام ١٤٢٥هـ في خمسة عشر مجلداً بتحقيق مصطفى السيد محمد، ومحمد السيد رشاد، ومحمد فضل العجماوي، وعلي أحمد عبد الباقي، وحسن عباس قطب.

أما آخر المختصرات التي وقفت عليها:

- المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير في مجلد واحد، إعداد جماعة من العلماء بإشراف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، مطبعة دار السلام بالرياض ١٤٢٠هـ.
- اليسير في اختصار تفسير ابن كثير في مجلد واحد، اختصار وتحقيق صلاح محمد عرفات، محمد عبد الله الشنقيطي، خالد فوزي عبد الحميد، إشراف د. صالح بن حميد، مطبعة دار الهداة للنشر جدة، ط١ ١٤٢٦هـ.

منهجه في التفسير:

سبق وأن قلنا إن مكانة تفسير ابن كثير ترجع أهميته إلى أنه تفسير بالمأثور، وهذا النوع من التفسير هو الطريق الوحيد لفهم القرآن فهماً صحيحاً سليماً من الزيغ والضلالات[١] وقد التزم ابن كثير بهذا المنهج في تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين إضافة إلى اللغة العربية.

تفسير القرآن بالقرآن:

وقد اعتمد ابن كثير على هذه الطريقة اعتماداً كبيراً، واعتبر هذه الطريقة هي أولى ما يفسر به القرآن الكريم، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[٢]، بعدما أورد أقوال المفسرين في معنى الصلصال: «والظاهر أنه كقول الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[٣] وتفسير الآية بالآية أولى»[٤].

تفسير القرآن بالسنة:

فبعد أن يفسر القرآن بالقرآن ينتقل إلى التفسير بالسنة، فيذكر الأحاديث التي تفسر وتوضح معنى الآية والتي لها علاقة بالآية من أي وجه من الوجوه كما

---

(١) منهج ابن كثير، د. اللاحم، ص١٨١، مرجع سابق.

(٢) سورة الحجر، الآية [٢٦].

(٣) سورة الرحمن، الآيتان [١٤-١٥].

(٤) التفسير ٢/٦٧٩.

كانت طريقته في تفسير القرآن بالقرآن، فمن السنة ما جاء بياناً لمجمل القرآن[١]، ومنها ما جاء لتوضيح مشكل[٢]، ومنها ما جاء مخصصاً لعموم بعض الآيات[٣]، ومنها ما جاء مقيداً لبعض

---

(١) مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة ١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة ١٩٦]، فقد بينت السنة ذلك بفعل الرسول ﷺ وتقريره في حجته وعُمرته، انظر التفسير ١/٢٤٧، ١/٢٨٧.

(٢) مثل قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة ١٨٧]، فقد أشكل المراد على بعض الصحابة حتى أخذ عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض، فلا يزال يأكل حتى يتبين له الأسود من الأبيض فقال ﷺ: **(إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل)**، انظر التفسير ١/٢٧٥.

و الحديث متفق عليه و أخرجه البخاري في كتاب الصوم باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة ١٨٧] رقم (١٩١٦) وكذلك في كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة ١٨٧] رقم (٤٥٠٩) (٤٥١٠)، ومسلم في كتاب الصيام باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر رقم (١٠٩٠)، وأبو داود في كتاب الصيام باب وقت السحور رقم (٢٣٤٩).

(٣) مثل تحديد السنة لقدر النصاب التي تقطع به يد السارق كما في مسلم عن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **(لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً» فهذا الحديث وغيره مخصص لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾)** [المائدة ٣٨] التفسير ٢/٧٢.

والحديث متفق عليه و أخرجه البخاري في كتاب الحدود باب قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة ٣٨] وفي كم يقطع ؟ رقم (٦٧٩٠)، ومسلم في كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها رقم (١٦٨٤).

الآيات[١]، ومنها ما جاء موافقاً لما جاء في القرآن بغرض تأكيد الحكم وتقويته[٢]، فابن كثير رحمه الله تعالى أعطى هذا المصدر من مصادر التفسير اهتماماً عظمياً واعتماداً كبيراً، ففسر القرآن بالقرآن ثم بالمروي عن الرسول ﷺ من الأحاديث، مع مناقشة الأسانيد والمتون وبيان الصحيح والضعيف منها[٣].

تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

فالصحابة رضوان الله عليهم هم أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ؛ لأنهم صحبوا الرسول ﷺ وعاصروا نزول الوحي، يقول ابن تيمية رحمه الله: «وحينئذ إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعت في ذلك إلى أقوال

---

(١) كتقييد السنة لليد المقطوعة في السرقة في قوله تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة ٣٨]، باليمين لقول الرسول ﷺ لما أخبروه بالمرأة التي سرقت فقال: **(اقطعوا يدها اليمنى)**، التفسير ٢/٧٤. والحديث أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ١١/٢٣٧، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

(٢) ومن ذلك موافقة الحديث النبوي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل)** فهذا الحديث موافق لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة ٢٨٦]، التفسير ١/٤١٨.

والحديث أخرجه البخاري في كتاب الطلاق باب الطلاق في الإعلان والكره والسكران والمجنون حديث رقم (٥٢٦٩).

(٣) انظر: سليمان اللاحم، منهج ابن كثير، مرجع سابق، ص٢٥٨.

الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح»[١].

ثم يأتي بعد تفسير الصحابة تفسير التابعين وهم الذين عاصروا الصحابة يقول ابن تيمية: «إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عند الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين»[٢]، لذا فالإمام ابن كثير رحمه الله إذا لم يجد التفسير في القرآن ولا في السنة انتقل بعد ذلك إلى التفسير بأقوال الصحابة ثم التابعين، فيذكر عند كل آية ما ورد من الآثار والأقوال في تفسيرها[٣]، وابن كثير حينما يروي هذه الأقوال لا ينقلها على عَلاّتها وإنما يناقشها ويختار أصحها وأرجحها حسب موافقتها للأدلة من الكتاب والسنة. وبهذا امتاز عن غيره من الذين اقتصروا على الجمع دون المناقشة والترجيح.

---

(١) مقدمة أصول التفسير لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ص٩٥، نشر دار الفرقان بالكويت ومؤسسة الرسالة بيروت، ط٢ سنة ١٣٩٢هـ.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٢.

(٣) فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد ٤١]، أورد عدة أقوال للصحابة والتابعين، فعن ابن عباس أنه فسرها بالفتوحات الإسلامية للرسول ﷺ، وفي رواية عنه أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية، وقال مجاهد وعكرمة المراد خرابها وقال الحسن والضحاك وهو ظهور المسلمين على المشركين وفي رواية عن ابن عباس أيضا نقصان أهلها وبركتها وعن مجاهد أيضاً نقصان الأنفس والثمرات، وقال عكرمة هو الموت وفي رواية عن ابن عباس أيضاً خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير فيها وكذا قال مجاهد أيضاً موت العلماء، التفسير ٢/٦٤٢.

تفسير القرآن بلغة العرب:

فقد اعتمد ابن كثير على اللغة العربية في تفسيره، وذلك برجوعه إليها واحتكامه لها من خلال الاستشهاد بكلام العرب شعراً أو نثراً أو بذكر أقوال علماء اللغة والاحتجاج بها[1].

مصادر تفسير ابن كثير:

اعتمد ابن كثير رحمه الله تعالى مصادر كثيرة ومتنوعة في تفسيره، سواء من كتب التفسير وكتب السنة التي هي عمدته، أو كتب الفقه والعقائد والتاريخ والسير واللغة العربية، أو غيرهما من المصادر الأخرى[2].

---

(١) فمثلاً عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ (البقرة ٤٩)، قال: «معنى يسومونكم أي يولونكم قال أبو عبيدة: يقال سامه خطة خسف إذ أولاه إياها قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الخسف فينا».

التفسير ١/١١٦، وانظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ص ٣٥١، طبعت المكتبة العصرية بيروت، ط١ ١٤٢٣هـ،

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم ١٣] يقول: «فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب حنّت الناقة على ولدها وحنّت المرأة على زوجها» التفسير ٣/١٤٤.

وسيأتي الكلام مفصلاً على اعتماد ابن كثير على اللغة العربية في تفسيره للقرآن الكريم في المباحث القادمة ان شاء الله.

(٢) أورد الدكتور مطر الزهراني ١٦٤ مصدراً منوعاً ورتبها على حروف الهجاء، انظر: الإمام ابن كثير المفسر، رسالة ماجستير ص ١١٢-١٧٢، رسالة غير منشورة، وكذلك د. إسماعيل عبد العال، حصر ما يقارب ٢٤١ مصدراً ورتبها حسب الموضوعات، انظر: ابن كثير ومنهجه في التفسير، د. إسماعيل عبد العال ص ١٧٢-٢٣٢، رسالة دكتوراه مطبوعة، طبعة مكتبة فيصل الإسلامية بالقاهرة ١٩٨٤م، الطبعة الأولى.

فمثلاً في التفسير:

تفسير الطبري[١]، وابن أبي حاتم[٢]، وابن مردويه[٣]، والبغوي[٤]، والزمخشري[٥]، وابن عطية[٦]، والرازي[٧]،

---

(١) محمد ابن جرير بن زيد بن كثير بن غالب الإمام أبو جعفر الطبري كان مولده سنة ٢٢٤هـ وتوفى سنة ٣١٠هـ. له من المصنفات: "التفسير الكامل الذي لا يوجد له نظير"، و"التاريخ الكامل المشهور بتاريخ الأمم والملوك"، و"تهذيب الآثار"، لكنه لم يتمه، انظر البداية والنهاية ١٤/٨٤٦.

(٢) هو أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم بن إدريس الرارزي، توفي سنة ٣٢٧هـ، وله كتاب الجرح والتعديل وكتاب العلل وكتاب التفسير الذي وصفه ابن كثير بقوله: « وله التفسير الحافل الذي اشتمل على النقل الكامل الذي يربو فيه على تفسير ابن جرير وغيره من المفسرين إلى زماننا». انظر: البداية والنهاية ١٥/١١٣-١١٤.

(٣) الحافظ العلامة أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني ولد سنة ٣٢٣هـ وتوفي سنة ٤١٠ هـ صاحب التفسير والتاريخ، انظر طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٤١٢.

(٤) هو أبو محمد الحسن بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء اللغوي الفقيه الشافعي المحدث المفسر الملقب بمحيي السنة له عدة مؤلفات، توفي سنة ٥١٠هـ، انظر: طبقات المفسرين للسيوطي ص ١٣.

(٥) هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوازمي الزمخشري ولد سنة ٤٦٧هـ وتوفي سنة ٥٣٨هـ وله عدة مؤلفات منها: "الكاشف في التفسير"، و"أساس البلاغة"، و"الفائق والمفصل"، انظر: طبقات المفسرين للسيوطي ص ٤١.

(٦) هو القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ولد سنة ٤٨١هـ وتوفي سنة ٥٤٦هـ، وله عدة مؤلفات منها: "التفسير المسمى المحرر الوجيز في الكتاب العزيز". انظر: بغية الوعاة في طبقاة النحاه للسيوطي ص٢٩٥.

(٧) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن علي القرشي التميمي البكري الطبرستاني فخر الدين الفقيه الشافعي ولد سنة ٥٤٤هـ وقيل سنة ٥٤٣هـ وتوفي سنة ٦٠٦هـ، قال ابن كثير: «وله أكثر من مائتي مصنف، ومن أجل مصنفاته التفسير المسمى مفاتيح الغيب»، انظر: البداية والنهاية ١٧/١١، ومعجم المؤلفين لرضا كحاله ١١/٧٩.

والقرطبي[١] ... وغيرهم.

ومن كتب الحديث:

صحيح البخاري[٢]، وصحيح مسلم[٣]، وسنن أبي داود[٤]، والنسائي[٥]،

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، توفي ليلة الإثنين التاسع من شهر شوال سنة ٦٧١هـ، وله عدة مؤلفات من أهمها: الجامع لأحكام القرآن، انظر الأعلام ٦/٢١٧-٢١٨.

(٢) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله حبر الإسلام والحافظ لحديث رسول الله ﷺ صاحب الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري، ولد في بخارى سنة ١٩٤هـ ونشأ يتيماً وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠هـ في طلب، الحديث فزار خراسان والعراق ومصر والشام وسمع من نحو ألف شيخ. توفي سنة ٢٥٦هـ رحمه الله. الأعلام ٦/٣٤.

(٣) مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري أبو الحسين حافظ من أئمة المحدثين ولد بنيسابور سنة ٢٠٤هـ، ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق وتوفي بظاهر نيسابور سنة ٢٦١هـ. أشهر كتبه: "صحيح مسلم" فيه اثني عشر ألف حديث كتبها في خمسة عشرة سنة، وهو أحد الصحيحين المعول عليهما عند أهل السنة في الحديث، وقد شرحه كثيرون، الأعلام ٧/٢٢١.

(٤) سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني أبو داود، إمام أهل الحديث في زمانه، ولد سنة ٢٠٢هـ، أصله من سجستان، رحل رحلة كبيرة وتوفي بالبصرة سنة ٢٧٥هـ رحمه الله، له السنن وهو أحد الكتب الستة جمع فيه ٤٨٠٠ حديث انتخبها من ٥٠٠٠٠٠ حديث، الأعلام ٣/١٢٢.

(٥) أحمد بن شعيب بن علي بن سفيان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن النسائي القاضي الحافظ شيخ الإسلام، أصله من نسا بخراسان، رحل في البلاد واستوطن مصر فحسده مشايخها فخرج إلى الرملة بفلسطين، فسئل عن فضائل معاوية فأمسك عنه فضربوه في الجامع وأخرج عليلاً فمات سنة ٣٠٣هـ، ودفن ببيت المقدس، وكانت ولادته سنة ٢١٥هـ، الأعلام ١/١٧١.

والترمذي[١]، وابن ماجه[٢]، والمستدرك على الصحيحين للحاكم[٣]، وصحيح ابن خزيمة[٤]، وابن حبان[٥]، وموطأ مالك[٦]، ومعجم

---

(١) محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي الترمذي أبو عيسى، من أئمة علماء الحديث وحفاظه، من أهل ترمذ، وكان يضرب به المثل في الحفظ. مات بترمذ سنة٢٧٩هـ وكان مولده ٢٠٩ هـ من تصانيفه: "الجامع الكبير"، الأعلام ٣٢٢/٦.

(٢) محمد بن يزيد الربعي القزويني أبو عبد الله ابن ماجة أحد الأئمة في علم الحديث من أهل قزوين، رحل إلى البصرة وبغداد والشام ومصر والحجاز والري في طلب الحديث، وصنف كتابه سنن ابن ماجه توفي سنة ٢٧٣هـ، الأعلام ١٤٤/٧.

(٣) محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني النيسابوري الشهير بالحاكم أبو عبدالله، من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه، مولده ووفاته بنيسابور، رحل إلى العراق سنة ٣٤١هـ وتوفي سنة ٤٠٥هـ رحمه الله، الأعلام ٢٢٧/٦.

(٤) محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي أبو بكر إمام نيسابور في عصره، كان فقيهاً مجتهداً عالماً بالحديث، مولده ووفاته بنيسابور، رحل إلى العراق والشام والجزيرة ومصر، ولقبه السبكي بإمام الأئمة، توفي سنة٣١١هـ، الأعلام ٢٩/٦.

(٥) محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي أبو حاتم البستي ويقال له ابن حبان بن مؤرخ علامة جغرافي ومحدث، ولد في بست من بلاد سجستان وتنقل في الأقطار، فرحل إلى خراسان والشام ومصر والعراق والجزيرة وتولى قضاء سمرقند، توفي سنة ٣٥٤هـ، الأعلام ٧٨/٦.

(٦) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري أبو عبد الله إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية، مولده ووفاته بالمدينة، وسأله المنصور أن يضع كتاباً للناس فصنفَ الموطأ، توفي سنة ١٧٩هـ رحمه الله، الأعلام ٢٥٧/٥.

الطبراني[١]، وسنن الدار قطني[٢]، وسنن البيهقي[٣]، وسنن سعيد بن منصور[٤]، ومسند الإمام أحمد بن حنبل[٥]، ومسند البزار[٦]، والشافعي[٧]،

---

(١) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم من كبار المحدثين، أصله من طبريه الشام، وإليها نسبته ولد بعكا ورحل إلى الحجاز واليمن ومصر والعراق وفارس والجزيرة وتوفي بأصبهان سنة ٣٦٠هـ، الأعلام ١٢١/٣.

(٢) علي بن عمر بن أحمد بن مهدي أبو الحسن الدارقطني الشافعي إمام عصره في الحديث وأول من صنف القراءات وعقد لها أبواباً، ولد بدارقطن من أحياء بغداد، ورحل إلى مصر وعاد إلى بغداد فتوفي بها سنة٣٨٥هـ، الأعلام ٣١٤/٤.

(٣) أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر من أئمة الحديث ولد في خسروجرد من قرى بيهق، بنيسابور، ونشأ في بيهق ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما وطلب إلى نيسابور فلم يزل فيها إلى أن مات سنة ٤٥٨هـ، الأعلام ١١٦/١.

(٤) سعيد بن منصور ابن شعبة الحافظ الإمام شيخ الحرم أبو عثمان الخراساني المروزي، سمع بخرسان والحجاز والعراق ومصر والشام والجزيرة، وتوفي بمكة في شهر رمضان سنة٢٢٧هـ، سير أعلام النبلاء ٥٨٦/١٠-٥٨٧.

(٥) أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني الوائلي، إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة، ولد ببغداد فنشأ منكباً على طلب العلم، وسافر في سبيله أسفاراً كثيرة إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والثغور والمغرب والجزائر والعراقين وفارس وخراسان والجبال والأطراف، وسجنه المعتصم ثمانية عشر شهراً لامتناعه عن القول بخلق القرآن. توفي سنة ٢٤١هـ. الأعلام ٢٠٣/١.

(٦) أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار، حافظ من العلماء بالحديث من أهل البصرة، حدّث في آخر عمره بأصبهان وبغداد والشام، وتوفي في الرملة سنة ٢٩٢هـ. الأعلام ١٨٩/١.

(٧) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي الكلبي أبو عبد الله أحد الأئمة عند أهل السنة، ولد في غزة بفلسطين وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين وزار بغداد مرتين وقصد مصر سنة ١٩٩هـ فتوفي بها سنة ٢٠٤هـ، الأعلام ٢٦/٦.

وأبي يعلى[١]، والطيالسي[٢]، ومصنف عبد الرزاق[٣]، وابن أبي شيبة[٤].

ومن كتب التاريخ والسير:

تاريخ ابن عساكر[٥]، والسيرة النبوية لابن إسحاق، والواقدي[٦]، ودلائل

---

(١) أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي أبو يعلى حافظ من علماء الحديث ثقة مشهور لقبه الذهبي بمحدث الموصل عمّر طويلاً حتى ناهز المائة، ورحل الناس إليه وتوفي بالموصل سنة ٣٠٧هـ، الأعلام ١/١٧١.

(٢) هشام بن عبد الملك الباهلي مولاهم أبو الوليد الطيالسي من كبار حفاظ الحديث من أهل البصرة، روى عنه البخاري ١٠٧ أحاديث توفي سنة ٢٢٧هـ، الأعلام ٨/٨٧.

(٣) عبد الرزاق بن نعمان بن نافع الحميري مولاهم أبو بكر الصنعاني من حفاظ الحديث الثقات من أهل صنعاء، له الجامع الكبير، توفي سنة ٢١١، الأعلام ٣/٣٥٣.

(٤) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي مولاهم الكوفي أبو بكر حافظ للحديث له فيه كتب منها المسند والمصنف في الأحاديث والآثار، توفي سنة ٢٣٥هـ، الأعلام ٤/١١٧-١١٨.

(٥) علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم ثقة الدين بن عساكر الدمشقي المؤرخ الحافظ الرحالة كان محدث الديار الشامية، مولده ووفاته بدمشق له تاريخ دمشق الكبير يعرف بتاريخ ابن عساكر، توفي سنة ٥٧١هـ، الأعلام ٤/٢٧٣.

(٦) محمد بن عمر بن واقد السهمي بالولاء المدني أبو عبد الله الواقدي من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم ومن حفاظ الحديث ولد بالمدينة، تولى القضاء ببغداد واستمر إلى أن توفي فيها سنة ٢٠٧هـ، الأعلام ٦/٣١١.

النبوة للأصبهاني[١]، وكتاب الشفاء للقاضي عياض[٢].

ومن كتب العقائد:

الأسماء والصفات للبيهقي، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وكتاب الرد على الجهمية للإمام أحمد بن حنبل، وكتاب السنة لأبي القاسم اللالكائي[٣].

ومن كتب الفقه:

الاستذكار لابن عبدالبر[٤]، والشرح الكبير للرافعي[٥]، والأم للشافعي،

---

(١) إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطلحي التميمي الأصبهاني أبو القاسم الملقب بقوام السنة من أعلام الحفاظ كان إماماً في التفسير والحديث واللغة، توفي سنة ٥٣٥هـ، الأعلام ١/٣٢٣.

(٢) عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي أبو الفضل عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ولي قضاء سبتة ثم قضاء غرناطة، توفي بمراكش مسموماً سنة ٥٤٢هـ، الأعلام ٥/٩٩.

(٣) هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي أبو القاسم اللالكائي حافظ للحديث من فقهاء الشافعية من أهل طبرستان، استوطن بغداد وخرج في آخر أيامه إلى الدينور فمات بها كهلاً سنة ٤١٨هـ، الأعلام ٨/٧١.

(٤) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي أبو عمر من كبار حفاظ الحديث مؤرخ أديب رحل رحلات طويلة في غربي الأندلس وشرقها، توفي بشاطبة سنة ٤٦٣هـ، الأعلام ٨/٢٤٠.

(٥) عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم أبو القاسم الرافعي القزويني فقيه من كبار الشافعية، كان له مجلس بقزوين للتفسير والحديث وتوفي سنة ٦٢٣ هـ، الأعلام ٤/٥٥.

والأموال لأبي عبيدالقاسم بن سلام[١]، والشامل لأبي نصر الصباغ[٢].

ومن كتب اللغة:

الصحاح للجوهري[٣]، والأسماء واللغات للنووي، والغريب لأبي عبيد القاسم، وغيرها من المصادر الأخرى الكثيرة والمتنوعة.

هل يعد تفسير ابن كثير اختصاراً لتفسير الطبري ؟

قد يظن البعض أن تفسير ابن كثير يعد مختصراً لتفسير الطبري والسبب في ذلك كثرة نقوله من ابن جرير، فلا تكاد تجد صفحة من تفسير ابن كثير إلا وقد نقل فيها عن ابن جرير، وأحياناً ينقل أسطراً كاملة، ولكن الحق أن ابن كثير وإن أكثر من النقل عن ابن جرير الطبري إلا أن له طريقته الخاصة وأسلوبه المتميز الذي يجعل تفسيره يختلف عن تفسير ابن جرير الطبري، وقد ذكر الدكتور اللاحم جملة من الفروق التي توضح اختلاف طريقة ابن كثير في عرضه وأسلوبه عن ابن جرير الطبري رحمهما الله ومنها:

[١] اعتماد الحافظ ابن كثير على تفسير القرآن بالقرآن كمصدر أول من مصادر التفسير، بينما نجد الإمام الطبري لا يعتمد في تفسيره على تفسير القرآن

---

(١) القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزاعي بالولاء الخراساني البغدادي أبو عبيد من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، من أهل هراة ولد وتعلم بها ورحل إلى بغداد فولي القضاء بطرسوس ثمان عشرة سنة، وتوفي بمكة سنة ٢٢٤هـ، الأعلام ١٧٦/٥.

(٢) عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد أبو نصر ابن الصباغ، فقيه شافعي من أهل بغداد ولادة ووفاة، كانت الرحلة إليه في عصره وتولى التدريس بالمدرسة النظامية، توفي سنة٤٧٧هـ، الأعلام ١٠/٤.

(٣) إسماعيل بن حماد الجوهري أبو نصر أول من حاول الطيران، ومات في سبيله لُغوي من الأئمة أشهر كتبه الصحاح مات سنة ٣٩٣هـ، الأعلام ٣١٣/١.

بالقرآن كمصدر أول من مصادر التفسير .

[٢] الغالب على الإمام الطبري إيراد الأحاديث الضعيفة بدون مناقشة أو تضعيف لها ، لأنه رحمه الله يرى أن من أسند لك فقد حملك البحث عن رجال السند ومعرفة حالهم من العدالة والجرح ، فيكون بهذا قد خرج من العهدة ، بينما الحافظ ابن كثير يقلل من ذكر الأحاديث الضعيفة ويناقشها ويبين ضعفها في كثير من المواضع .

[٣] الإكثار من ذكر الأسانيد في تفسير الآية ونقلها على كثرتها بطولها عند ابن جرير ، بينما ابن كثير يختصر في ذكره للأسانيد ويكتفي بذكر مصدرها وأسماء من رويت عنهم كعلي وابن مسعود وابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم .

[٤] الغالب على ابن جرير ذكر الأسانيد من غير نقد لها ولا تعريف بأحوال رجالها ، بينما ابن كثير يناقش هذه الأسانيد ويكشف النقاب عن أحوال رواتها.

[٥] الإكثار من ذكر الإسرائيليات عند ابن جرير الطبري بدون تعقب لها في الغالب ، بينما الحافظ ابن كثير يتعقبها في كثير من الأحيان بنقدها وبيان ضعفها فهي عنده تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد .

[٦] أن ابن جرير رحمه الله يكثر المناقشات والاستفسارات ويورد على نفسه الإشكالات ويجيب عنها ، بينما الحافظ ابن كثير أقل من ابن جرير في هذا .

[٧] يَتَّسم أسلوب ابن جرير في تفسيره بالارتقاء والارتفاع بحيث قد يستعصي فهم بعض عباراته على أواسط الناس وبعض المتعلمين بينما نجد أسلوب ابن كثير ميسراً للخاصة والعامة على السواء.

[٨] أن ابن كثير رحمه الله نقل في تفسيره كتباً كثيرة من التفسير والحديث واللغة والعقائد والأحكام والتاريخ والأدب وغالبها مما جاء بعد ابن جرير إضافة إلى أن هناك كثيراً من الآيات لم ينقل الحافظ ابن كثير في الكلام عنها في تفسيرها شيئاً عن ابن جرير[١].

موقفه من الإسرائيليات:

رسم الحافظ ابن كثير منهجاً له في التعامل مع الإسرائيليات فقال: «ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد، فإنها على ثلاث أقسام أحدها ما علمنا صحته بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذلك صحيح، والثاني ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه، والثالث ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم وغالب ذلك مما لا فائدة تعود إلى أمر ديني[٢].

لذا نجد أن ابن كثير رحمه الله استخدم هذا المنهج الذي حدّده والخطة التي رسمها عند إيراده للروايات والأحاديث الإسرائيلية فمثلاً:

---

(١) انظر: سليمان اللاحم، منهج ابن كثير في التفسير، ص٩٨-١٠٠ بتصرف، مرجع سابق. وهناك رسالة دكتوراه مطبوعة للدكتور محمد مختار طالب آل نوح بين فيها الكاتب الاختلاف بين منهج ابن جرير وابن كثير في التفسير وهي بعنوان «المقارنة بين منهج الإمامين ابن جرير وابن كثير في التفسير» مطبعة دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع بجدة، ط١ ١٤٢٣هـ.

(٢) التفسير ١/١١.

- لما ذكر قصة بقرة بني إسرائيل عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً..﴾[١]، قال: «وهذه السياقات كلها عن عبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا نصدق ولا نكذب، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم»[٢].

ويقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ...﴾[٣]، «وقد رويت قصة هارون وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد[٤] والسدي[٥] والحسن[٦] ... وحاصلها راجع - في تفصيلها - إلى

---

(١) سورة البقرة، الآية [٦٧].

(٢) التفسير ١/١٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية [١٠٢].

(٤) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي مولى بني مخزوم، تابعي مفسر من أهل الكوفة، قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات يقف عند كل آية يسأله فيم أنزلت وكيف كانت؟ مات سنة ١٠٤هـ (الأعلام ٥/٢٧٨).

(٥) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي، تابعي، حجازي الأصل سكن الكوفة وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس، توفي سنة ١٢٨هـ (الأعلام ١/٣١٧).

(٦) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد تابعي، كان أمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمانه وهو أحد العلماء الفقهاء والنصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب، وسكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب وله مع الحجاج بن يوسف مواقف، وسلم من أذاه، أخباره كثيرة وله كلمات سائرة، توفي سنة ١١٠هـ. (الأعلام ٢/٢٢٦).

أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراد الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال»[١]، وكذلك لما ذكر الخلاف في أول من بنى الكعبة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٢]، قال: «وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب وهي مما لا يصدق ولا يُكذَّب ولا يعتمد عليها بمجردها وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى العين والرأس»[٣].

وكذلك لما أورد قول كعب الأحبار بأن الله لما كلم موسى كلّمه بالألسنة كلها سوى كلامه، فقال له موسى: يا رب هذا كلامك. قال: ولو كلمتك بكلامي لم تستقِم له، فقال ابن كثير: «فهذا موقوف على كعب الأحبار وهو يحكي عن أهل الكتب المتقدمة المشتملة على أخبار بني إسرائيل وفيها الغث[٤] والسمين»[٥].

---

(١) التفسير ١/١٧٨.

(٢) سورة البقرة، الآية [١٢٥].

(٣) التفسير ١/٢١٦.

(٤) الغث والغثيث: اللحم المهزول، وهو أيضاً الحديث الرديء الفاسد، مختار الصحاح، محمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ص٤٦٩، طبعة دار الكتاب العربي بيروت، ط١، ١٩٦٧م.

(٥) التفسير ١/٧١٨.

وأحياناً يورد الخبر وينتقده ويرد عليه كما في خبر عوج بن عنق، من العماليق عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[1]، فقال: «وقد ذكر كثير من المفسرين ها هنا أخباراً من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين وأن فيهم عوج بن عنق وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع تحرير الحساب! وهذا شيء يستحيى من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: **(إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن)**[2]، ثم ذكروا أن هذا الرجل كافر وأنه كان ولد زنيه وأنه امتنع من ركوب السفينة، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته، وهذا كذب وافتراء فإن الله ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[3]. وإذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر وولد زنية، هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر والله أعلم»[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية [٢٢].

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري بلفظ خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً.... فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن، أول كتاب الاستئذان، باب السلام رقم٦٢٢٧ ٣/١١ من فتح الباري طبعة دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤١٠هـ.

(٣) سورة نوح، الآية [٢٦].

(٤) التفسير ٢/٥٠-٥١.

وكذا رده على قول كعب الأحبار إن ذا القرنين كان ربط خيله في الثريا وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[1]، فقال: «وتأويل كعب قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحفه من أنه كان يربط خيله بالثريات غير صحيح ولا مطابق فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك ولا إلى الترقي في أسباب السموات»[2].

وكذلك رده على من قال بأن «ق» جبل يحيط بجميع الأرض يقال له قاف وذلك عند تفسيره لآية: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾[3]، فقال: «وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذَّب، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يُلبِّسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم للخمور وتحريف علمائهم الكلام عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما يُجَوِّزه العقل،

---

(١) سورة الكهف، الآية [٨٤].

(٢) التفسير ٣/١٢٩.

(٣) سورة ق، الآية [١].

فأما فيما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل والله أعلم»[١] .

بل إن ابن كثير رحمه الله يعتبر ما صح في الأخبار الإسرائيلية قليل الفائدة بقوله رحمه الله : «ثم ليعلم أن أكثر ما يحدثون به – يقصد أهل الكتاب – غالبه كذب وبهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقلَّ الصدق فيه ، ثم ما أقلَّ فائدة كثير منه لو كان صحيحاً»[٢] .

وهكذا نجد أن ابن كثير يتعقب الإسرائيليات عند ذكره لها ، ويرد عليها ويخضعها للمنهج الذي رسمه والخطة التي تبناها في مقدمة تفسيره[٣] بشأن الإسرائيليات .

ومع ذلك فإن ابن كثير رحمه الله أورد في تفسيره أحاديث وروايات وأخبار إسرائيلية دون مناقشة لها أو تعقيب أو حتى التنبيه عليها ، فمثلاً ما ذكره عن ابن أبي حاتم[٤] عن ابن عباس[٥] في قصة سفينة نوح عليه السلام وأنها دارت بالبيت

---

(١) التفسير ٤/٢٦٠.

(٢) المرجع نفسه ٣/٥١٤.

(٣) المرجع نفسه ١/١١.

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم ابن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي أبو محمد ، حافظ للحديث له تصانيف ، توفي سنة ٣٢٧هـ. الأعلام ٣/٣٢٤.

(٥) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي أبو العباس حبر الأمة الصحابي الجليل ، ولد بمكة ولازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث ، وشهد مع علي الجمل وصفين ، وكف بصره في آخر عمره فسكن الطائف وتوفي بها سنة ٦٨هـ . الأعلام ٤/٩٥.

أربعين يوماً[١]، وكذلك ما أورده عن ابن حزم وابن عساكر[٢] وابن إسحاق[٣] في قصة «بلعم» الذي أوتي النبوة فانسلخ منها وأنه اندلع لسانه على صدره فهو كالكلب[٤] ...، أو قصة المرأة التي أخذها الطلق، فأمرت أجيرها أن يأتيها بنار فخرج فإذا هو برجل واقف على الباب فقال ما ولدت المرأة؟ قال: جارية، فقال: أما إنها ستزني بمائة رجل ثم يتزوجها أجيرها ويكون موتها بالعنكبوت ..»[٥].

وغير ذلك من الأخبار والحكايات الإسرائيلية التي ساقها ابن كثير دون التعليق عليها برد أو قبول أو توقف، بل إن بعض الحكايات لا ينبه على أنها إسرائيلية كما في حكاية المرأة التي أخذها الطلق...، الأمر الذي جعله كما قال أحمد شاكر: «لم يستطع أن يسير على ما رسم وغلبه ما وجده من الروايات في كثير من المواطن فأثبت طائفة منها غير قليلة»[٦]، ولذا فإننا نجد الأستاذ أحمد شاكر في كتاب عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير حذف جميع الأخبار الإسرائيلية وأشار إلى ذلك في المقدمة بقوله: «نفيت عن كتابي هذا الأخبار الإسرائيلية وما أشبهها»[٧]؛ لأنه يرى

---

(١) المرجع نفسه ٢/٥٥١، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود ٤٤].

(٢) انظر ترجمته ص ٧٣.

(٣) انظر ترجمته ص٣٧.

(٤) التفسير ٢/٣٣٣-٣٣٥، وذلك عند تفسير الآية: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف ١٧٥].

(٥) المرجع نفسه ١/٦٤٢ عند تفسير الآية: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء ٧٨].

(٦) عمدة التفسير ١/٩.

(٧) المرجع نفسه ١/٩.

«أن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه وكذبه شيء وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات أو في تعيين ما لم يعين فيها وتفصيل ما أجمل فيها شيء آخر، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مُبين لمعنى قول الله سبحانه ومفصل لما أجمل فيه وحاشا لله ولكتابه ذلك»[١].

ولكننا نقول مع ذلك إن تنبيه ابن كثير رحمه الله على أورده من الإسرائيليات — عدا القليل منها —، وتصديّه لها وبيان حكمها وبطلانها، وتوضيح زيفها وعدم الفائدة منها، ووقوفه منها موقف الناقد البصير لها، فلعل ذلك يزيل الحرج الذي ذكره الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله والذي قال هو بنفسه: «فإن المؤلف رحمه الله — يعني ابن كثير — قد جدبها[٢] في مواضع كثيرة من تفسيره وأبان خطأها وضررها»[٣].

---

(١) عمدة التفسير ص١٥.

(٢) أي ذمها وعابها. انظر المعجم الوسيط مادة: جدب ص ١٠٩.

(٣) عمدة التفسير ص ٩.

وقد أثنى كثير من المعاصرين على موقف ابن كثير من الإسرائيليات في تفسيره، كالدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرين ١/١٧٥، والدكتور محمد محمد أبو شهبة في كتابه الإسرائيليات والموضوعات في كتب تفسير ص ١٨٢-١٨٣ وغيرهم، كما أن هناك رسائل علمية تناولت هذا الجانب سبق وأن أشرنا إليها في ص٧ عند ذكرنا للدراسات السابقة.

والحاصل أن تفسير ابن كثير كما ذكرنا من قبل هو من أفضل التفاسير وأحسنها إن لم يكن أحسنها كما قال الشوكاني: «وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها»[١]، وقد تلقاه الناس بحمد الله بالقبول وأثنوا عليه لا سيما العلماء منهم، «فلا عجب أن يدرس في المساجد والجامعات وأن تجده في كل مكتبة بل قد لا يخلو منه بيت مسلم»[٢].

أثر تفسير ابن كثير على من جاء بعده من المفسرين:

لقد كان لتفسير الحافظ ابن كثير أثر كبير على من جاء بعده من المفسرين وغيرهم لذا «قل أن تجد تفسيراً من التفاسير المؤلفة بعد عصر ابن كثر إلا وتجد صاحبه استفاد واستضاء بتفسير ابن كثير وآرائه»[٣]، وسنذكر بعضاً منهم على سبيل الإيجاز:

[١] محمد بن علي الشوكاني[٤] المتوفى سنة ١٢٥٠هـ في تفسيره «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير»فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى:

---

(١) البدر الطالع ١/١٥٣.

(٢) حياة ابن كثير وتفسيره، د. الفالح ص١٢٠، مرجع سابق.

(٣) ابن كثير المفسر للدكتور مطر الزهراني ص ٤٣٠، مرجع سابق.

(٤) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء، ولد بهجرة شوكان ونشأ بصنعاء وولي قضاءها وكان يرى تحريم التقليد، له ١١٤ مؤلفاً منها نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وفتح القدير في التفسير، توفي سنة ١٢٥٠هـ، الأعلام ٦/٢٨٩.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[١] قال: «قال ابن كثير: أن الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً، وهكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي[٢] وأحمد بن حنبل[٣] وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص».

وكذلك نقل كلام ابن كثير في سبب تسمية الفاتحة بالسبع المثاني فقال: «قال ابن كثير في تفسيره: وصح تسميتها بالسبع المثاني؛ قالوا لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة»[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية [٣].

(٢) سبق ترجمته ص٧٢.

(٣) سبق ترجمته ص٧٢.

(٤) فتح القدير ١/ ٧٤، وتفسير ابن كثير ١/ ١٨.

وهناك مواضع أخرى مثل:

- ما ذكره عند تفسير الآية ٢٥ من سورة النساء، انظر فتح القدير ١/ ٧٣، وتفسير ابن كثير ١/ ٨٥٢.
- وعند تفسيره الآية ٢٢ من سورة المائدة، انظر فتح القدير ٢/ ٣٩، وتفسير ابن كثير ٢/ ٥٠.
- وعند تفسيره الآية ٨٠ من سورة الإسراء، انظر فتح القدير ٣/ ٣٥٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٧٧.
- وعند تفسير الآية ١١١ من سورة الإسراء، انظر فتح القدير ٣/ ٣٧٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٩١.
- وعند تفسيره الآية ١١٠ من سورة الكهف، انظر فتح القدير ٣/ ٤٤٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ١٤٠.

[٢] جمال الدين القاسمي[١]، المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ في كتابه «محاسن التأويل»، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]، قال: «قال ابن كثير: وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾[٣]، وحديث العنبر في الصحيح وفي المسند والموطأ والسنن، قوله ﷺ: **(في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته)**»[٤].

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥] فقال: «قال ابن كثير: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦]».

---

(١) جمال الدين بن محمد بن قاسم الحلاق من سلالة الحسين السبط، إمام أهل الشام في عصره علماً بالدين وتضلعاً في فنون الأدب، مولده ووفاته في دمشق، كان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد، توفي سنة ١٣٣٢هـ، الأعلام للزركلي ١٣٥/٢.

(٢) سورة البقرة، الآية [١٧٣].

(٣) سورة المائدة، الآية [٩٦].

(٤) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة باب الوضوء بماء البحر رقم (٨٣)، وابن ماجه في كتاب الطهارة باب الوضوء بماء البحر رقم (٣٨٦)، والترمذي في كتاب الطهارة باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور رقم (٦٩). انظر محاسن التأويل ٣٨/٢، وانظر تفسير ابن كثير ٢٥٥/١.

(٥) سورة الأنعام، الآية [١٦١].

(٦) سورة النحل، الآية [١٢٣].

وعنـــد تفسير قولـــه تعـــالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[1]، فنقل عن ابن كثير قوله: «ذكر غير واحد من المفسرين من أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى بالأمة بعمومها فإن اللفظ لفظ العموم وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة»[2].

---

(١) سورة الليل، الآيات [١٧-٢١].

(٢) محاسن التأويل ٨٠٧/٤، تفسير ابن كثير ٢٥١/٢.

وهناك مواضع أخرى مثل:

- ما ذكر القاسمي عند تفسير الآية ١٥٨من سورة البقرة، محاسن التأويل ١٠/٢، وانظر تفسير ابن كثير ٢٤٨/١.
- ما ذكر القاسمي عند تفسير الآية ١٧٨من سورة البقرة، محاسن التأويل ١١٦/٢، وانظر تفسير ابن كثير ٢٧٥/١.
- ما ذكر القاسمي عند تفسير الآية ١٢٩من سورة الأنعام، محاسن التأويل ٧٢١/٤، وانظر تفسير ابن كثير ٢٢٥/٢.
- ما ذكر القاسمي عند تفسير الآية ١٤١ من سورة الأنعام، محاسن التأويل ٧٤٢/٤، وانظر تفسير ابن كثير ٢٣١/٢.
- ما ذكر القاسمي عند تفسير الآية ٣ من سورة المائدة، محاسن التأويل ٢٩/٤، وانظر تفسير ابن كثير ١١/٢.
- ما ذكر القاسمي عند تفسير سورة النصر، محاسن التأويل ٢٨٢/١٠، وانظر تفسير ابن كثير ٦٧٩/٤.

[٣] الشيخ محمد بن الأمين الشنقيطي[١]، المتوفى سنة ١٣٩٣هـ في كتابه «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢] فقال: «قال ابن كثير: وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣]»[٤].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[٥]، قال: «قال ابن كثير في تفسيره وتخرج من أفواههم أي ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافترائهم، ولذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾»[٦].

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾[٧]، فقال: «قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار

---

(١) هو الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، مفسر ومدرس من علماء شنقيط موريتانيا، ولد وتعلم بها وحج سنة ١٣٦٧هـ واستقر مدرساً في المدينة المنورة ثم الرياض وأخيراً في الجامعة الإسلامية بالمدينة ١٣٨١هـ، توفي بمكة سنة ١٣٩٣هـ، الأعلام ٦/٤٥.

(٢) سورة النحل، الآية [٩].

(٣) سورة الأنعام، الآية [١٥٣].

(٤) أضواء البيان ٣/٢٢٠، تفسير ابن كثير ٢/٦٩٦.

(٥) سورة الكهف، الآية [٥].

(٦) أضواء البيان ١٤/١٣-١٤، تفسير ابن كثير٣/٩٣.

(٧) سورة الكهف، الآية [١٨].

لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن»[١].

[٤] وكذلك القاضي أبو السعود[٢]، في تفسيره «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» أو المسمى تفسير أبي السعود عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[٣] عند ذكر ذي القرنين وصفة موته وعمره فنقل أبو السعود كلاماً من تفسير ابن كثير فقال: «قال ابن كثير: وهذا غريب، والصحيح أنه ما كان نبياً ولا ملكاً، وإنما كان ملِكاً صالحاً عادلاً ملك الأقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم ودانت له البلاد»[٤]، ثم قال أبو السعود وأما ذو القرنين الثاني فقد قال ابن كثير إنه الإسكندر بن فيلبس بن مصيرم .... وإنما بيَّنا هذا لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهم واحد، وأن المذكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير... وقد كان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة فأين هذا من ذاك»[٥].

---

(١) المرجع نفسه ٤/٤٧-٤٨، تفسير ابن كثير ٣/٩٨.

(٢) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين، ولد بقرب القسطنطينية، وكان حاضر الذهن سريع البديهة، توفي سنة ٩٨٢هـ. الأعلام ٧/٥٩.

(٣) سورة الكهف آية ٨٤.

(٤) تفسير أبو السعود ٥/٢٤٠-٢٤١، وانظر تفسير ابن كثير ٣/١٢٩.

(٥) تفسير أبو السعود ٥/٢٤١، تفسير ابن كثير ٣/١٢٨.

[٥] وكذلك الألوسي[١] في تفسيره «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[٢]، قال: «وفي تفسير ابن كثير أن عثمان بن طلحة[٣] بن أبي طلحة دفع المفتاح بعد ذلك إلى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة[٤] فهو في يد ولده إلى اليوم»[٥]،

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾[٦]، قال: وأخرج ابن عساكر في تاريخه من حديث عبيدالله بن

---

(١) هو محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي شهاب الدين أبو الثناء مفسر محدث أديب تقلد الإفتاء ببلده سنة١٢٤٨هـ وعزل فانقطع للعلم، توفي سنة ١٢٧٠هـ، الأعلام ١٧٦/٧.

(٢) سورة النساء، الآية [٥٨].

(٣) هو عثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشي العبدري من بني عبد الدار صحابي، كان حاجب البيت الحرام، أسلم مع خالد بن الوليد في هدنة الحديبية، وشهد فتح مكة، فدفع رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة إليه وإلى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، مات سنة ٤٢هـ، الأعلام ٢٠٧/٤.

(٤) هو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة القرشي من بني عبد الدار، صحابي من أهل مكة، أسلم يوم الفتح وكان حاجب الكعبة في الجاهلية ورث حجابتها عن آبائه، وأقره النبي ﷺ على ذلك ولا يزال بنوه حجابها إلى اليوم توفي سنة ٥٩هـ. الأعلام ١٨١/٣.

(٥) تفسير الألوسي ٦٣/٥ وانظر تفسير ابن كثير ٦٣٠/١.

(٦) سورة الأعراف، الآية [٨٥].

عمر رضي الله عنهما[١] مرفوعاً أنه قدم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً ..... ثم قال: «وهو كما قال ابن كثير غريب وفي رفعه نظر واختار أنهما أمة واحدة»[٢].

وكذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣]، قال: «وذكر ابن كثير أن من العرب من ليس من ذريته - أي إسماعيل - كعاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق وأمم غيرهم»[٤].

وغير ذلك من التفاسير الأخرى والتي استفاد أصحابها من تفسير الحافظ ابن كثير والتي يصعب حصرها، وكما قال الدكتور سليمان اللاحم: «ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن جميع المفسرين ممن جاء بعد ابن كثير واطلع على هذا التفسير قد استفاد منه من مقلّ ومستكثر وتأثر به»[٥].

لذلك أصبح هذا الكتاب العظيم «مصدراً لمن أتى بعده من المفسرين والباحثين في علوم القرآن ولشراح الحديث والفقهاء وغيرهم، وقلّ أن تجد

---

(١) هو عبيد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي صحابي، ولد في عهد رسول الله ﷺ وأسلم بعد إسلام أبيه، ثم سكن المدينة وغزا أفريقية مع عبدالله بن سعد، ورحل إلى الشام في أيام علي فشهد صفين مع معاوية، وقتل فيها سنة ٣٧هـ. الأعلام ٤/١٩٥.

(٢) روح المعاني ٨/١٧٥.

(٣) سورة يوسف، الآية [٢].

(٤) روح المعاني ١٢/١٧٢.

(٥) منهج ابن كثير في التفسير، د. سليمان اللاحم ص ٤٦٩، مرجع سابق.

تفسيراً من التفاسير المؤلفة بعد عصر ابن كثير إلا ونجد صاحبه استفاد واستضاء بتفسير ابن كثير وآرائه [١]»[٢].

---

(١) الإمام ابن كثير المفسر، د. مطر الزهراني ص ٤٣٠، مرجع سابق.

(٢) يرى د. إسماعيل سالم عبد العال أنه لم يتأثر أحد من المفسرين ممن جاء بعد ابن كثير بتفسيره فيقول: «هل تأثرت التفاسير التي تلت ابن كثير بتفسيره؟ الحقيقة – وهي حقيقة مدهشة – أنه لم يتأثر أحد من المفسرين بتفسيره، إنك لو تصفحت تفسير أبي السعود والفتوحات الإلهية أو تفسير الشيخ طنطاوي جوهري أو تفسير الألوسي، فلن تجد ما يمكن أن نسميه تأثراً بابن كثير... ولعل السبب في هذا أن تفسير ابن كثير تفسير بالأثر، وقد اتخذ أكثر المفسرين بعده مناهج أخرى غير هذا المنهج، كالمنهج الصوفي أو المنهج العلمي أو القصصي أو غير ذلك» انتهى كلامه. (ابن كثير ومنهجه في التفسير ٤٥١، رسالة دكتوراه بحث مطبوع).

وهذا الكلام فيه نظر، لأن تصفح مثل هذه التفاسير المحدودة التي ذكرها د. عبد العال لا يكفي دليلاً للخروج بحكم دقيق ونتيجة مقبولة بأن لتفسير ابن كثير أثراً على غيره من التفاسير أو ليس له أثر، علماً بأن الألوسي و أبو السعود – واللذان ذكرهما عبد العال – قد استفادا نقلاً عن ابن كثير كما أشرت إلى ذلك ضمن الذين استفادوا من ابن كثير من المفسرين، والأمر الآخر هو أن السبب الذي ذكره الدكتور عبد العال: «بأن تفسير ابن كثير تفسير بالأثر، وأن هناك مناهج أخرى غير هذا المنهج كالصوفي والعلمي والقصصي» وهذا تحليل لا يرقى أن يكون دليلاً قاطعاً على عدم وجود أثر لتفسير ابن كثير على غيره ممن جاء بعده والتي لا يمكن حصرها في هذه المناهج التي ذكرها الدكتور عبد العال فقط، فيتعين على الدكتور أن لا يعطي حكمه هذا من خلال هذه الدائرة الضيقة وهي رجوعه وتصفحه لبعض التفاسير المحددة، أو افتراضه بأن المناهج السائدة والغالبة هي المناهج التي أشار إليها والتي من خلالها تعرف مدى أثر تفسير ابن كثير على غيره من التفاسير الأخرى لا سيما والدكتور يعد بحثا علميا ورسالة علمية عن منهج ابن كثير في تفسيره والله أعلم.

ثالثاً: مفهوم الدعوة وأهميتها عند ابن كثير

تعريف الدعوة لغة: الدعوة؛ لها معان متعددة كلها تدور حول الطلب والسؤال والنداء والدعاء والبيان والإرشاد[١].

ولفظ الدعوة يطلق على الدعوة إلى الخير والدعوة إلى الشر كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾[٢].

ودعوت الله أدعوه دعاء ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير، ودعوت زيداً ناديته وطلبت إقباله، ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة فهو داعي الله، والجمع دعاة وداعون[٣].

والدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة، وأحدهم داع، ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى دين أو بدعة، أُدخلت الهاء للمبالغة[٤].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، ٢/٢٧٩ مادة (دعو دعا). طبعة دار الجيل بيروت ١٤٢٠هـ.

لسان العرب لابن منظور ١٤/٢٥٧ وما بعدها مادة (دعا). طبعة دار صادر بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ.

الصحاح للجوهري ٥/١٨٦٥ مادة (دعا). طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

(٢) سورة البقرة، الآية [٢٢١].

(٣) المصباح المنير، أحمد محمد الفيومي المقرئ ص٧٤، طبعة مكتبة لبنان، ١٩٨٧م.

(٤) لسان العرب لابن منظور ١٤/٢٥٩.

معنى الدعوة في الاصطلاح: جاءت تعاريف العلماء للدعوة إلى الله متباينة ومختلفة وذلك حسب اختلافهم في المقصود بالدعوة، فمن يقول إن المقصود بالدعوة هو الدين أو الإسلام يُعَرِّفها بقوله: «الدعوة الإسلامية هي الدين الذي ارتضاه الله للعالمين وأنزل تعاليمه وحياً على رسول الله ﷺ وحفظها في القرآن الكريم وبينها في السنة النبوية»[١].

وأما عن القول بأن الدعوة هي تبليغ وبيان لما جاء به الإسلام فالدعوة هي: «تبليغ الإسلام للناس وتعليمه إياهم وتطبيقه في واقع الحياة»[٢].

وعرفها بعضهم بأنها «برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم وليستكشفوا معالم الطريق التي تجمعهم راشدين» ، وقال آخر بأن الدعوة إلى الله هي: «استخدام كافة فنون القول ومهارات التبليغ لجذب المدعوين إلى الإسلام بطريقة مشروعة»[٤]

وهناك تعريف شامل لمعنى الدعوة إلى الله في الاصطلاح يقول بأنها: «حركة علمية لنشر الإسلام وتعليمه للناس وتعريفهم به على وجهه الصحيح وفق

---

(١) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش ص١٢-١٣، مطبعة دار الكتاب المصري بالقاهرة، ط٢ ١٤٠٧هـ.

(٢) المدخل إلى علم الدعوة، د. محمد أبو الفتح البيانوني ص١٧، مؤسسة الرسالة دمشق ط١ ١٤١٢هـ.

(٤) الدعوة إلى الله، د. حمد العمار ص١٦، مطبعة دار كنوز إشبيليا ١٤٢٥هـ.

منهج علمي مدروس بوسائل وأساليب راقية ومتجددة، بواسطة دعاة مسلمين يقومون به في الناس على هدى وبصيرة»[١].

وهذا التعريف هو المختار لأنه شامل لجميع أركان الدعوة، حيث اشتمل على موضوع الدعوة والداعية والمدعوين ووسائل الدعوة وأساليبها ومنهجها التي تقوم عليه.

مفهوم الدعوة الى الله وحكمها وفضلها ومنزلتها عند ابن كثير:

لقد اعتنى الحافظ ابن كثير رحمه الله بموضوع الدعوة إلى الله خاصة في تفسيره القرآن العظيم، فبين ونوّه في عدة مواضع من التفسير عن مفهوم الدعوة إلى الله وأهميتها وحكمها وفضلها ومنزلتها في الدين، وكذلك تحدّث عن الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الدعاة إلى الله، وعن طبيعة المدعوين وأصنافهم وأساليب الدعوة ووسائلها، إلى غير ذلك من الموضوعات الدعوية، ولعلي أشير هنا إلى مفهوم الدعوة وحكمها وفضلها بشيء من الاختصار والإيجاز، حيث إن تفصيل بقية المباحث وبسطها سيكون في الفصول القادمة إن شاء الله.

مفهوم الدعوة إلى الله:

يُعرف الإمام ابن كثير الدعوة إلى الله بأنها هي: «الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يدعو الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة وبرهان

---

(١) الدعوة الإسلامية الشمول والاستيعاب، د. محمد زين الهادي ص ١٠، مطابع السودان للعملة ٢٠٠٥م.

عقلي وشرعي»[١].

حكم الدعوة إلى الله:

يرى ابن كثير رحمه الله ويؤكد على أنه لا بد للأمة أن تقوم بأمر الدعوة إلى الله، وأن ذلك واجب عليها، فيقول عند تفسير الآية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢]، «يقول تعالى: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك هم المفلحون... والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم...: قال رسول الله ﷺ: **(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)**[٣].

ويقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا

---

(١) التفسير ٢/٦١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية [١٠٤].

(٣) التفسير ١/٤٧٧، والحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب كون النهي عن المنكر من الإيمان رقم (٤٩)، وأبو داود في كتاب الصلاة باب الخطبة يوم العيد رقم (١١٤٠)، والترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب رقم (٢١٧٢).

أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾[١]: «يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض... وقد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غِيَره وفجأة نِقَمه، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر»[٢].

كما يحذر رحمه الله من التولي عن نصرة دين الله بالدعوة إليه، وإقامة شرعه، فإن الله يستبدل به من هو خير منه فيقول عند تفسير الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٣]: «يقول الله تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلاً»[٤].

كما يُذكّر رحمه الله بالوعيد الشديد لمن كتم ما جاءت به الرُسل من الدلالات البيِّنة والهدي النافع للقلوب، فيقول عند تفسير الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة هود، الآية [١١٦].

(٢) التفسير ٢/٥٧٢.

(٣) سورة المائدة، الآية [٥٤].

(٤) المرجع نفسه ٢/٩١.

يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[١]: «هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البيّنة على المقاصد الصحيحة والهدي النافع للقلوب من بعد ما بيّنه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسوله ﷺ... وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون»[٢].

فضل الدعوة إلى الله:

وهكذا نجد أن الإمام ابن كثير رحمه الله يؤكد على أهمية الدعوة إلى الله وبيان فضلها ومنزلتها العظيمة من هذا الدين وذلك:

[١] لأنها وظيفة الرسل ومهمتهم التي من أجلها بعثوا إلى الناس، فالله سبحانه أرسل الرسل لدعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾[٣]، «أي وإن دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له»[٤]، فمهمة الرسل جميعاً دعوة الناس إلى هدى الله وشرعه، مبشرين ومنذرين، كما قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[٥]، «أي يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات وينذرون من خالف أمره وكذّب رسله

(١) سورة البقرة، الآية [١٥٩].

(٢) التفسير ١/٢٤٩.

(٣) سورة المؤمنون، الآية [٥٢].

(٤) المرجع نفسه ٣/٣١٠.

(٥) سورة النساء، الآية [١٦٥].

بالعقاب والعذاب: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[١]، أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه لئلا يبقى لمعتذر عذر»[٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[٣]، «أي مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات»[٤].

فحين يقع الناس في ظلمات الشرك والشبهات والضلالات تكون مهمة الأنبياء والرسل عليهم السلام الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ونبذ ما سواه، يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[٥]: «أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة .... وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له»[٦]، ويقول عند تفسير الآية: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾[٧]، «أي فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك

---

(١) سورة النساء، الآية [١٦٥].

(٢) المرجع نفسه ١/٧١٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية [٤٨].

(٤) التفسير ٢/١٧١.

(٥) سورة الزمر، الآية [٣].

(٦) المرجع نفسه ٤/٥٥.

(٧) سورة الزمر، الآية [٢].

وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد»[١].

فوظيفة الرسل عليهم السلام، التي بعثوا من أجلها وأنزلها على ألسنتهم هي الدعوة إلى عبادته سبحانه وترك عبادة ما سواه، يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾[٢]، «أي طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر، أي نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك»[٣].

ولذلك نجد أن نبي الله عيسى عليه السلام يطلب من الحواريين أن يكونوا أنصارا له في تبليغ دينه إلى الناس: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾[٤]، يقول ابن كثير عند تفسيره هذه الآية: «أي من معيني في الدعوة إلى الله عز وجل، فقال الحواريون وهم أتباع عيسى عليه السلام: نحن أنصار الله، أي نحن أنصارك على ما أرسلت به ونؤازرك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام...»[٥]، وختم الله سبحانه أنبياءه ورسله عليهم السلام بسيدهم وخاتمهم محمد بن عبدالله

---

(١) المرجع نفسه ٤/٥٤.

(٢) سورة الفرقان، الآية [١٨].

(٣) التفسير ٣/٣٨٩.

(٤) سورة الصف، الآية [٦].

(٥) المرجع نفسه ٤/٤٢٧.

صلوات الله وسلامه عليه، حيث بعثه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[١]، «فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله .... وجمع له تعالى – وله الحمد والمنه – جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه مالم يعط أحداً من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين»[٢].

[٢] ولأن الدعاة إلى الله والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر هم خير الناس، ولذا كانت الأمة المحمدية خير الأمم؛ لأنها اتصفت بهذه الصفات فاستحقت المدح والثناء من الله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[٣]، «فيخبر سبحانه عن هذه الأمة المحمدية بأنها خير الأمم فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ يعني خير الناس للناس، والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾»[٤].

---

(١) سورة الجمعة، الآية [٢].

(٢) المرجع نفسه ٤/٤٢٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية [١١٠].

(٤) التفسير ١/٤٧٩.

[٣] ولما كان الدعاة إلى الله والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر خير الناس، فهم أيضاً أحسن الناس قولاً وحديثاً كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، يقول ابن كثير «يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي دعا عباد الله إليه: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي هو في نفسه مهتدياً بما يقوله فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه بل يأتمر بالخير ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى...

وعن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين هذا خليفة الله»[2].

---

(١) سورة فصلت، الآية [٣٣].

(٢) التفسير ٤/١١٩.

الباب الأول

خصائص منهج الدعوة إلى الله عند ابن كثير

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: اعتماد منهج ابن كثير الدعوي على الكتاب والسنة.

الفصل الثاني: النقل والعقل ونظرية المعرفة منهج دعوي عند ابن كثير.

الفصل الثالث: الاحتجاج باللغة العربية منهج دعوي لدى ابن كثير.

الفصل الرابع: من منهج ابن كثير الدعوي تقديم قول الصحابي على غيره.

الفصل الخامس: الشمول والموضوعية منهج دعوي أصيل عند ابن كثير.

الفصل الأول

اعتماد منهج ابن كثير الدعوي على الكتاب والسنة

ويحتوي توطئة وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تقديم ابن كثير الكتاب والسنة على ما سواهما.

المبحث الثاني: الرد إلى الكتاب والسنة عند الاختلاف.

المبحث الثالث: رد ابن كثير الأقوال والأفعال التي تخالف الكتاب والسنة.

توطئة

إن أول خصائص منهج الدعوة إلى الله تعالى عند ابن كثير رحمه الله في تفسيره القرآن العظيم اعتماده على الكتاب والسنة، فكل مصدر سواهما إنما هو تبع لهما، فهما المقدمان على غيرهما، وعند الخلاف يجب الرجوع والاحتكام إليهما، فكل قول أو رأي مهما كان قائله وأيا كان مصدره مما يخالف الكتاب والسنة فهو مردود على صاحبه، فالداعية إلى الله والسالك إليه لا يسعه في دعوته وسلوكه إلا الإلتزام بالكتاب والسنة حتى يسلم منهجه في الدعوة إلى الله ويصح سيره إليه، وقد أكد علماء السلف رحمهم الله على ذلك في كثير من أقوالهم وكتاباتهم، فمن ذلك مثلا قول الجنيد بن محمد رحمه الله[1]: «علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ الكتاب والسنة لا يصلح أن يتكلم في علمنا»[2].

وقول أبي سليمان الداراني[3] «إنه ليقع في قلبي النكتة (كلمة الحق) من نكتب القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين اثنين الكتاب والسنة»[4]. يقول ابن تيمية

---

(١) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي أبو القاسم، صوفي من العلماء بالدين، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد وعده العلماء شيخ مذهب التصوف، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة، سالما من كل ما يوجب اعتراض الشرع، توفي سنة ٢٩٧هـ. الأعلام.٢/١٤١

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١١/٢١٠، طبعة دار عالم الكتب بالرياض، ط١٤١٢هـ.

(٣) هو أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن عطية العنسي المذحجي أبو سليمان زاهد، مشهور من أهل «داريّا» بغوطة دمشق، رحل إلى بغداد، ثم عاد إلى الشام، ، كان من كبار المتصوفين توفي سنة ٢١٥هـ. الأعلام ٣/٢٩٣-٢٩٤.

(٤) المرجع نفسه ١١/٢١٠.

رحمه الله: «على كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله ﷺ فيفعله وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه، هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[١].

وهذا المنهج هو ما قرره ابن كثير رحمه الله في ثنايا تفسيره، وهو ما يدعوني إلى الحديث عنه في المباحث التالية:

وقبل البدء في الحديث عن اعتماد ابن كثير على الكتاب والسنة أود أن أبدأ بتعريف الكتاب والسنة في اللغة والاصطلاح:

تعريف القرآن لغة:

قيل إن القرآن اسم لكتاب الله وإنه غير مشتق، فهو لم يؤخذ من مادة «قرأ» ولا غيرها، بل هو اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل، وهذا القول ينسب إلى الشافعي رحمه الله وغيره[٣]، وقيل إن لفظ القرآن مشتق من قرأ قراءة وقرآناً بمعنى تلا فهو مصدر كالرجحان والغفران ثم نقل هذا المصدر وجعل اسما لكلام الله المنزل على رسول الله ﷺ ومنه قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[٤] أي: قراءته[٥].

---

(١) الفتاوى لابن تيمية ١١/٢٦.

(٣) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١/٢٧٨ مطبعة دار المعرفة، ط الثانية١٣٩١هـ.

(٤) سورة القيامة، الآية [١٧-١٨].

(٥) انظر: معجم مقاييس اللغة ٥/٧٦-٧٩، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/١٨٦.

تعريف القرآن في الاصطلاح:

القرآن في الاصطلاح هو «اللفظ المنزل على النبي ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس»[١]، وعرّفه بعضهم «بأنه علم مخصوص على كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته»[٢].

السنة في اللغة:

السنة لغة: الطريقة محمودة كانت أم مذمومة، ومنه قول النبي ﷺ: **(من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)**[٣] [٤].

وأما السنة في الاصطلاح:

فهي عند المحدثين «ما أُثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلْقية أو خُلُقيه) وهي بهذا التعريف تكون مرادفة للحديث، وأما عند علماء أصول الفقه فهي: «ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، ويضيف بعضهم «مما يصلح أن يكون دليلاً شرعياً»، والسنة عند الفقهاء:

---

(١) مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ١/١٨، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت ط٣ بدون تاريخ.

(٢) علوم القرآن والسنة د/ محمد اليحياوي ود/ فالح الصغير ص ٢ ط دار اشبيليا ط الأولى ١٤٢٣هـ.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار رقم (١٠١١٧).

(٤) السنة ومكانتها في التشريع مصطفى السباعي ص٤٧، المكتب الإسلامي ط ٢، ١٣٩٦هـ.

ترادف المستحب وهو ما يُثاب فاعله ولا يُعاقب تاركه، وعند علماء العقيدة: هي كل ما ثبت بالدليل الشرعي أو ما دل عليه الدليل الشرعي سواء كان قرآنا أو حديثا، أو من القواعد الشرعية العامة، فهم نظروا إلى السنة من حيث مقابلتها للبدعة[١].

ونحن نريد بالسنة ما عناه الأصوليون لأنها بتعريفهم هي مصدر التشريع.

(١) علوم القرآن والسنة ١٠١-١٠٢ مرجع سابق، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص٤٧-٤٨ مرجع سابق.

المبحث الأول

تقديم ابن كثير الكتاب والسنة على ما سواهما

ليس لمسلم يشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن يتردد في الأخذ بالكتاب والسنة، أو أن يعرض عن التحاكم إليهما، لأنه «لا يسع مسلما يقر بالتوحيد أن يرجع عند التنازع إلى غير القرآن والخبر عن رسول الله ﷺ ولا أن يأبى عما وجد فيهما»[١]. ولا عجب في ذلك فالرسول ﷺ لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر ولذلك أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نأخذ ما أمرنا به وننتهي عما نهانا عنه كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٢]، «أي: مهما أمركم به فاتبعوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمركم بخير وإنما ينهاكم عن شر»[٣].

فابن كثير رحمه الله يقرر أن تقديم الكتاب والسنة على ما سواهما أمر لا خيار فيه لأن هذا مقتضى الإيمان بالله ورسوله ومخالفة ذلك يعتبره ابن كثير تقدم بين يدي الله ورسوله فيقول عند تفسير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٤]، «أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه أي قبله بل كونوا تبعا له في جميع الأمور حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ، قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: **(بم تحكم؟)** قال: بكتاب الله، قال:

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١/ ٩١، تحقيق أحمد شاكر، طبعة دار الآفاق الجديدة بيروت ط ١ ١٤٠٠هـ.

(٢) سورة الحشر، الآية [٧].

(٣) التفسير ٤/ ٣٩٧.

(٤) سورة الحجرات، الآية [١].

(فإن لم تجد؟) قال: بسنة رسول الله، قال: **(فإن لم تجد؟)** قال: أجتهد رأيي فضرب في صدره وقال: **(الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي الله)**[١]..

فالغرض منه أنه أخّر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله»[٢].

فمن ترك العمل بكتاب الله أو قدم عليه ما سواه من الأقوال والآراء والقوانين والأحكام البشرية فقد هجره، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[٣]، يقول ابن كثير: «وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه وترك العمل به من امتثال أوامره واجتناب زواجر من هجرانه والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناءٍ أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنّان القادر على ما يشاء أن يخلصنا مما يسخطه ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه إنه كريم وهاب»[٤].

وكيف يسوغ للمسلم أن يقدم قول أحد أو رأيه كائناً من كان على القرآن العظيم وهو: «أشرف كتاب أنزله الله ومحمد صلوات الله وسلامه عليه أعظم نبي أرسله الله»[٥].

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي كتاب الأحكام، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي رقم (١٣٢٧). وأبو داود كتاب القضاء، باب اجتهاد الرأي في القضاء رقم (٣٥٩٢).

(٢) التفسير ٤/٢٤٢.

(٣) سورة الفرقان، الآية [٣٠].

(٤) التفسير ٣/٣٩٤.

(٥) المرجع نفسه ٣/٣٩٥.

فإذا قضى الله ورسوله أمراً فلا يسع لأحد مخالفة ذلك الأمر أو تقديم غيره عليـــــه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

فالمسلم الذي يتحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويظن أن ذلك هو الذي يتناسب مع هذا العصر ويتماشى معه هو مخطئ في تصوره، وجاهل بحكم الله وشرعه، لأن «حكم الله ورسوله لا يختلف في ذاته باختلاف الأزمان وتطور الأحوال وتجدد الحوادث، فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ نصا أو ظاهرا، أو استنباطا أو غير ذلك، علمه من علمه وجهله من جهله»[2]. إضافة إلى ذلك فقد عصى الله ورسوله وتعدى حدوده فهو بذلك يُعَرِّض نفسه لسخط الله وعذابه ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3]، «أي لكونه غيّر ما حكم الله به، ومعادٍ لله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم»[4].

فالحاصل أن مقتضى الإيمان ولازمه تقديم الكتاب والسنة على ما سواهما من القوانين الوضعية، التي يضعها الناس بأهوائهم وآرائهم وتصوراتهم من

---

(١) سورة الأحزاب، الآية [٣٦].

(٢) فتاوى محمد بن إبراهيم ١٢/٢٨٨، جمع وترتيب وتحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، طبعة مطبعة الحكومة بمكة المكرمة ط١ ١٣٩٩هـ.

(٣) سورة النساء، الآية [١٤].

(٤) التفسير ١/٥٦٥.

عند أنفسهم، ويتخذونها شرعاً من دون الله ويقدمونها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

يقول الشيخ الشنقيطي رحمه الله[١]: «الإشراك بالله في حكمه والإشراك به في عبادته كلها بمعنى واحد لا فرق بينهما البتة، فالذي يتبع نظاما غير نظام الله وتشريعا غير تشريع الله كالذي يعبد الصنم ويسجد للوثن لا فرق بينهما البته بوجه من الوجوه فهما واحدٌ وكلاهما مشرك بالله»[٢]. ولقد أفاض كثير من العلماء قديما وحديثا في تقرير هذه المسألة وبيان خطورتها وأهميتها وعلاقتها بإيمان المسلم وعقيدته[٣].

---

(١) سبق ترجمته ص ٨٩.

(٢) أضواء البيان ٥/٢٢٧.

(٣) فمنهم على سبيل المثال لا الحصر الإمام ابن عبد البر في التمهيد (٤/٢٢٦، ٧/٦١١) و شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٢٨/٤٧١، ٣٥/٧٠٤، ٣٦٣)، والإمام ابن القيم في أعلام الموقعين (١/٤٩، ٥٠) وابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية (١/٢٢٨)، والإمام محمد بن عبدالوهاب في رسالته نواقض الإسلام وهي ضمن مجموعة مؤلفاته (١/١٩٠)، والأستاذ محمد رشيد رضا في تفسيره المنار (٥/٢٢٧)، والإمام الشوكاني في تفسيره فتح القدير (١/٤٨٤)، والشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تفسيره (٣/١٥٦)، ومفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم في فتاواه (١٢/٢٥١)، ورسالته تحكيم القوانين، و الشيخ أحمد محمد شاكر في عمدة التفسير (١/١٢٥)، والشيخ عبد العزيز باز في فتاواه (١/٢٧٣) وفي رسالة وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما يخالفه، و الشيخ محمد بن عثيمين في فتاواه (١/٣٦) وغيرهم كثير من علماء الإسلام في القديم والحديث. =

فواجب الدعاة إلى الله أن يعيدوا الأمة إلى رشدها ويرجعونها إلى التمسك بدينها في جميع مجالات الحياة وأن يردوا على الشبه التي يثيرها أعداء الإسلام من المستشرقين وأصحاب التغريب والعلمانيين حول صلاحية تطبيق الشريعة ومناسبتها لهذا العصر، فالشريعة والدين هو النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة كلها ومناهج السلوك للإنسان التي أوحى بها الله عز وجل إلى نبيه ﷺ وأمر بتبليغها إلى الناس كافة مع ما يترتب على التقيد بها أو عدمه من ثواب وعقاب، وأن الدين والشريعة مرتبطة بالدولة في الإسلام ارتباط القاعدة بالبناء، فالدين والشريعة أساس الدولة وموجهها فلا يمكن تصور دولة إسلامية

= للاستزادة حول هذا الموضوع انظر:

١. حد الإسلام وحقيقة الإيمان للشيخ عبد المجيد الشاذلي، من إصدارات مركز البحوث وإحياء التراث جامعة أم القرى.

٢. حكم الله وما ينافيه، د. عبد العزيز محمد العبداللطيف، من إصدارات دار الوطن بالرياض الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٣. الحكم بغير ما أنزل الله حكمه وحال من فعل ذلك، د. صالح السدلان، من إصدار دار المسلم بالرياض الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٤. إن الله هو الحاكم محمد شاكر الشريف، إصدار دار الوطن الطبعة الأولى ١٤١٣هـ

٥. وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما يخالفه للشيخ عبد العزيز بن باز، إصدارات الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية.

٦. الحاكمية في تفسير أضواء البيان د. عبد الرحمن السديس، دار طيبه ط الأولى ١٤١٢هـ.

٧. الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه د. عبد الرحمن المحمود، مطبعة دار طيبه ط الأولى ١٤٢٠هـ.

٨. أقسام تطبيق الشريعة في أقطار العروبة لأحمد عطار، طبعة دار الأندلس ط الأولى ١٤٠٠هـ.

٩. وجوب تطبيق الشريعة د. محمد الأمين مصطفى الشنقيطي جدة مطبعة دار العلوم ط١ ١٤١٢هـ.

بلا دين وشريعة كما لا يمكن تصور الدين الإسلامي والشريعة الإسلامية فارغا من توجيه المجتمع وسياسة الدولة ؛ لأنه حينئذ لا يكون إسلاما ولا تكون شريعة إسلامية[١].

(١) انظر مفرح القوسي، الموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية ص ٦٠٠ ، طبعة دار الفضيلة بالرياض ط١ ١٤٢٣هـ.

المبحث الثاني

الرد إلى الكتاب والسنة عند الخلاف

إن أهم ما يميز منهج السلف الذي ينتمي إليهم ابن كثير أنهم يلتزمون بنصوص الكتاب والسنة عند الخلاف، فلا يعارضونها باجتهاداتهم وأقوالهم ولا يترددون في الأخذ بها، بل يعظمونها ويُسَلِّمون لها ويرون الزيغ والهلاك في مخالفتها، يقول سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[1].

يقول ابن كثير رحمه الله: «وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2]، فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾[3]، أي: رُدُّوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فدل على أن من لم يتحاكم في مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ

---

(١) سورة النساء، الآية [٥٩].

(٢) سورة الشورى، الآية [١٠].

(٣) سورة النساء، الآية [٥٩].

خَيْرٌ﴾، أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والرجوع في فصل النزاع إليهما خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾، أي: وأحسن عاقبة ومآلاً»[١].

ويقول سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢]، قيل إنها نزلت في الزبير بن العوام رضي الله عنه[٣] وحاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه[٤] لما اختصما في ماء فقضى النبي ﷺ أن يسقي الأعلى ثم الأسفل[٥]، يقول ابن كثير في تفسير الآية: «يقسم تبارك وتعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، أي: إذا حَكَّموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به

---

(١) التفسير ١/٦٣٣.

(٢) سورة النساء، الآية [٦٥].

(٣) هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي أبو عبد الله الشجاع أحد العشرة المبشرين بالجنة، وشهد بدرا وأحدا وغيرها، قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل بوادي السباع سنة ٣٦هـ. الأعلام ٣/٤٣.

(٤) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي صحابي شهد الوقائع كلها مع النبي ﷺ وكان من أشد الرماة في الصحابة، وكانت له تجارة واسعة، بعثه النبي ﷺ بكتابه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وكان أحد فرسان قريش وشعرائها في الجاهلية، توفي سنة ٣٠هـ. الأعلام ٢/١٥٩.

(٥) انظر: المرجع نفسه ١/٦٣٦.

وينقادون له في الظاهر والباطن، فيُسلِّمون لذلك تسليماً كلياً من غير مخالفة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: **(والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)**[١]»[٢].

ولهذا تضافر كلام السلف رحمهم الله على أن الواجب الرد إلى الكتاب والسنة عند الخلاف وعدم تجاوزهما، وأنكروا على من لم يأخذ بهما، فالشافعي رحمه الله لما أتاه رجل فسأله عن مسألة فقال له: «قضى ﷺ كذا وكذا، قال الرجل: ما تقول أنت؟ فقال: سبحان الله تُراني في كنيسة؟ تُراني في بيعة[٣]؟ ترى على وسطي زنار[٤]؟ أقول قضى ﷺ كذا وكذا وأنت تقول لي ما تقول أنت»!!

فالسلف رحمهم الله يجعلون كلام الله وكلام رسول الله ﷺ هو الأصل الذي يعتمد عليه، وإليه يرد ما تنازع الناس فيه فما وافقه كان حقاً وما خالفه كان باطلاً. فرد التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إنما هو لرفع الخلاف ودفع النزاع بين الناس في أمر دينهم ومعتقداتهم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتابه السنة ١/١٢، طبعة المكتب الإسلامي ١٤٠٠هـ رقم الحديث (١٥).

(٢) التفسير ١/٦٣٥.

(٣) البيعة: مُتعبَّد النصارى، ترتيب القاموس ١/٣٥٠ للطاهر أحمد الزاوي، ط عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٤) الزنار: وهو ما على وسط النصارى والمجوس، ترتيب القاموس ٢/٤٨٢.

(٥) سورة النحل، الآية [٦٤].

يقول ابن كثير: «ثم قال تعالى لرسوله ﷺ أنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين لهم أي الناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه وهدى أي للقلوب ورحمة أي لمن تمسك به»[١].

كما أن رد التنازع إلى الكتاب والسنة فيه تحقيق الإيمان بالله واليوم الآخر كما قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾[٢]، وإن عدم رد التنازع إلى الكتاب والسنة هو من صفات المنافقين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾[٣].

«فلا يسع المسلم الذي يقر بالتوحيد أن يرجع عند التنازع إلى غير القرآن والخبر عن رسول الله ﷺ، ولا أن يأبى عما وجد فيهما فإن فعل بعد قيام الحجة عليه فهو فاسق، وأما من فعله مستحلاً الخروج عن أمرهما موجباً لطاعة أحد دونهما فهو كافر لا شك عندنا في ذلك»[٤].

ويقول الشوكاني رحمه الله: «فقد اتفق المسلمون سلفهم وخلفهم من عصر الصحابة إلى عصرنا هذا — وهو القرن الثالث عشر من الهجرة النبوية — أن

---

(١) التفسير ٢/٧٠٩.

(٢) سورة النساء، الآية [٥٩].

(٣) سورة النساء، الآية [٦١].

(٤) الأحكام لابن حزم ١/١١٠، وانظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة، عثمان علي حسن ١/٣٠٧-٣٠٨، طبعة مكتبة الرشد، الرياض ط١، ١٤٢٢هـ.

الواجب عند الاختلاف في أي أمر من أمور الدين بين الأئمة المجتهدين هو الرد إلى كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ الناطق بذلك الكتاب العزيز: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1]، ومعنى الرد إلى الله سبحانه الرد إلى كتابه ومعنى الرد إلى رسوله ﷺ الرد إلى سنته بعد وفاته وهذا مما لا خلاف فيه بين جميع المسلمين»[2].

وأخيراً يجب رد التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأن ذلك وحي من الله فالرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى فما قاله حق وما أخبر به حق، يقول الإمام ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾[3]: «وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه على سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فما قاله فهو حق وما أخبر به فهو صدق، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه فما يوافق أقواله و أفعاله فهو الحق وما يخالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان»[4].

---

(١) سورة النساء، الآية [٥٩].

(٢) شرح الصدور بتحريم رفع القبور للشوكاني ص ٥٩٣، مطبعة العيكان، ط٣ ١٤٠٨هـ، الرياض، وانظر المرجع نفسه ١/٣٠٣.

(٣) سورة الفرقان الآية [٥٩].

(٤) التفسير ٣/٤٠٢.

المبحث الثالث

رد ابن كثير الأقوال والآراء التي تخالف الكتاب والسنة

ينطلق الإمام ابن كثير رحمه الله في رده للأقوال والآراء التي تخالف الكتاب والسنة من قول الرسول ﷺ: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)**[1]، ويعتبر أن دليل محبة الإنسان لله هي اتباع محمد ﷺ فيما أمر به وتصديقه فيما أخبر به واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع، يقول عند تفسير الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله.

كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)**، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي يحصل فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم هو أعظم من الأول.... ثم قال:

---

(١) متفق عليه، وأخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود رقم (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور رقم (١٧١٨).

(٢) سورة آل عمران، الآية [٣٠-٣٢].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته ثم قال: آمراً لكل أحد من خاص وعام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: خالفوا أمره فإن الله لا يحب الكافرين، فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه والدخول في طاعته واتباع شريعته»[(١)].

فالميزان الذي يوزن به الأقوال والأفعال هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فما وافق ذلك قبل وما خالفه فهو مردود على صاحبه كائناً من كان، يقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[(٢)]، «أي أَمْر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)**»[(٣)].

ولذا كان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أن لا يقبل من أحد قط معارضته القرآن برأيه ولا ذوقه كالمتصوفة، ولا معقوله ولا قياسه كالفلاسفة والمتكلمين والمناطقة، ولا وجده كالباطنية، فإن السلف ثبت

---

(١) التفسير ١/٤٤٠-٤٤١.

(٢) سورة النور، الآية [٦٣].

(٣) المرجع نفسه ٣/٣٨٢، والحديث سبق تخريجه ص١٢٤.

عنهم بالبراهين القاطعة والآيات البينات أن الرسول ﷺ جاء بالهدي والقرآن يهدي للتي هي أقوم[١]، وإذا حكم الله ورسوله فليس لأحد مخالفته ويجب رد جميع الأحكام إلى حكم الله ورسوله ﷺ، يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٢]، «فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، ليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحدها هنا ولا رأي ولا قول»[٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٤]. يقول ابن كثير: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: يبتغون ويريدون وعن حكم الله يعدلون: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء»[٥]، وابن كثير رحمه الله حينما يتبنىّ هذا المنهج ويدافع عنه وينكر على من

---

(١) انظر الفتاوى ١٣/١٧-٢٩ بتصرف.

(٢) سورة الأحزاب، الآية [٣٦].

(٣) التفسير ٣/٦٠٣.

(٤) سورة المائدة، الآية [٥٠].

(٥) المرجع نفسه ٢/٨٨.

يخالفه، فهو أيضاً من أشد الناس حرصاً على تطبيقه والالتزام به سواء في آرائه واجتهاداته العلمية أو مواقفه العملية «فهو مستقل الرأي يدور مع الدليل حيث دار لا يتعصب لمذهبه ولا لغيره وكتبه العظيمة وخاصة هذا التفسير الجليل فيه الدلائل الوافرة، ونجده – مع أنه شافعي المذهب – يُفتي في مسألة طلاق الثلاث بلفظ واحد بما رجحته الدلائل الثابتة الصحاح أنه يقع طلقة واحدة ثم يمتحن ويلقى الأذى فيثبت على قوله ويصر على ما يلقى في سبيل الله»[١].

ومن الأمثلة على ذلك ترجيحه لمذهب الإمام مالك وأحمد رحمهما الله في وجوب مسح جميع الرأس حيث يقول في إيراده النصوص الدالة على ذلك: «ففي هذه الأحاديث الدلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد... وذهب أصحابنا - يعني الشافعية - إلى أنه يجب ما يطلق عليه اسم مسح، لم يُقدّر ذلك بحد، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه...» ثم يقول مرجحاً قول المالكية والحنابلة: «ونحن نقول بذلك وأنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا أولى وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل العمامة والله أعلم»[٢].

---

(١) عمدة التفسير ١/٢٨.

(٢) التفسير ٢/٣٣.

فابن كثير رحمه الله يدور مع الدليل حيث دار، فلا غرابة أن يخالف مذهبه الذي ينتسب إليه، بل قد يخالف إمام مذهبه وهو الإمام الشافعي رحمه الله، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا﴾[١]، فبعد أن ذكر تفسير الشافعي وغيره لمعنى تعولوا بمعنى تكثر عيالكم فقال رحمه الله: «وفي هذا التفسير ها هنا نظر فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر لذلك يخشى من تعداد السراري أيضاً» ثم قال: «والصحيح قول الجمهور ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي: تجوروا واستدل بحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي: تجوروا»[٢][٣].

ثم إنه أيضاً في مواقفه العملية ملتزم بالكتاب والسنة ويقف عند حدود الشريعة المطهرة فعندما غدر الإفرنج بمدينة الإسكندرية، وأشاعوا الرعب وارتكبوا الفظائع، وغدروا بالناس كما قال هو في تاريخه: «وعاثوا في أهلها فساداً، يقتلون الرجال ويأخذون الأموال ويأسرون النساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير المتعال»، ثم ذكر: «أن الأمير الكبير يلبغا ظهر يومئذ ولكن قد

---

(١) سورة النساء، الآية [٣].

(٢) الحديث متفق عليه، وأخرجه البخاري في كتاب الحيل، باب ما ينهى عن الاحتيال للولي في اليتيمه المرغوبة، وأن لا يكمل لها صداقها، رقم (٦٩٦٥)، ومسلم في كتاب التفسير، باب في تفسير آيات متفرقة رقم (٣٠١٨).

(٣) التفسير ١/٥٥٢.

تفارط الحال وتحولت الغنائم كلها إلى الشواني[١] بالبحر، فسمع للأسارى من العويل والبكاء والجأر إلى الله والاستعانة به، وبالمسلمين ما قَطَّع الأكباد وذرفت له العيون وأصم الأسماع، فإنا لله وإنا إليه راجعون... وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة وأن يُأخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خُرِّب من الإسكندرية ولعمارة مراكب تغزو الفرنج، فأهانوا النصارى وطلبوا من بيوتهم بعنف وخافوا أن يقتلوا ولم يفهموا ما يراد منهم فهربوا كل مهرب ولم تكن هذه الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعاً»[٢].

ولم يكتف رحمه الله بهذا الحكم والبيان بل اتخذ موقفاً عملياً بالاجتماع بنائب السلطنة بشأن هذا الأمر، يقول رحمه الله بعد اجتماعه به: «فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى، فقال إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك، فقلت له هذا مما لا يسوغ شرعاً ولا يجوز أن يفتى بهذا ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون لنا الجزية ملتزمين بالذمة والصغار وأحكام الملة، فإنه لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد الفرد فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير...»[٣].

---

(١) الشواني: هي السفن الحربية القديمة، انظر: المعجم الوسيط ص٥٠١.

(٢) البداية والنهاية ١٨/٧٠٦.

(٣) المرجع نفسه ١٨/٧٠٥-٧٠٦.

يقول الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله تعليقاً على موقف ابن كثير من هذه الحادثة: «فانظر إلى هذا الإمام العظيم الذي يقف عند حدود الشريعة المطهرة، ويقيم ميزان العدل الصحيح كما عرفه من دينه الحنيف، ويألم ويسترجع لما ناب النصارى من مصادرة ظالمة من أمراء طغاة جائرين، كما ألم واسترجع من قبل لما أصاب المسلمين غدر النصارى وبغيهم، وشتان هذا وذلك، ولكنه لا يرضى إلا أن يقيم ميزان العدل»[1].

وإذا قارنا بين موقف ابن كثير العادل والمنصف من النصارى والذي هو موقف كل مسلم ملتزم بتعاليم دينه وشريعته في كل زمان ومكان، وهو الإنصاف والعدل وعدم الظلم، وهو الموقف الذي سار عليه الرسول ﷺ وخلفاؤه من بعده وقادة المسلمين، وبين ما كان يفعله النصارى واليهود مع المسلمين، وهو الغدر والخيانة والظلم، بل والقتل والتشريد، فمثلا ما ذكره صاحب كتاب حضارة العرب عن معاملة النصارى للمسلمين في الأندلس، يقول: «وعاهد فرديناند "نصراني أسباني كاثوليكي استولى على آخر مملكة إسلامية وهي غرناطة سنة ١٤٩٢م" العرب على منحهم حرية التدين واللغة، ولكن لم تكد تحل سنة ١٤٩٩م حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قرونا والذي لم ينته إلا بطرد العرب من أسبانية...

وكان تعميد العرب كرهاً فاتحة ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين على أنهم من النصارى ولم تتم عملية التطهر بالنار

(١) عمدة التفسير ١/ ٣٢.

إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة... ونصح كاردينال طليطلة التقي.... الذي كان رئيسا لمحاكم التفتيش بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالا ونساءً وشيوخاً وولدانا... ولم ير الراهب الدومينيكي بليدا الكفاية في ذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ومن بقي على دينه منهم وحجته في ذلك أن من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من العرب، فمن المستحب إذن قتل جميع العرب بحد السيف لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم!!

إلى أن قال: وخسرت أسبانيا بذلك مليون مسلم من رعاياها في بضعة أشهر ويقدر كثير من العلماء ومنهم سيديو عدد المسلمين الذين خسرتهم إسبانية منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير بثلاثة ملايين ولا تعد ملحمة سان باتلمي إزاء تلك المذابح سوى حادثة تافهة لايُؤبه لها، ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد من الوحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين[1].... الخ.

وليس ما فعله النصارى الصرب ضد المسلمين في البوسنة والهرسك عنا ببعيد، وكذلك ما تفعله جيوش النصارى في العراق وأفغانستان والصومال وغيرها من بلدان المسلمين، مما يدل على شدة العداوة والحقد والبغضاء

(١) حضارة العرب، غوستاف لوبون نقله إلى العربية عادل زعيتر ص ٢٧٠-٢٧٢، طبعة بمطابع عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ١٩٦٩م.

للإسلام والمسلمين[١].

وأما اليهود فهم أهل الغدر والخيانة، شعارهم المكر والخديعة، وطبيعتهم نقض العهود والمواثيق، وهم أشد عداوة للذين آمنوا، وتاريخهم الطويل مع المسلمين مليء بالكيد والتحريض والدسائس ضد الإسلام والمسلمين وما يفعله اليهود اليوم في فلسطين ضد المسلمين من إنزال أشد أنواع العذاب من البطش والتعذيب في السجناء المسلمين والقتل وتدمير المنازل وغير ذلك من ألوان العذاب شاهد على ذلك، وقد اعترفت منظمة العفو الدولية بذلك حتى أصدرت بتاريخ ١٩٨٦/٩/١٦م تقريرا دعت فيه إلى إجراء تحقيقات وافية عن تعذيب اليهود للمعتقلين المسلمين في داخل الأراضي المحتلة.

أما المجازر التي ارتكبها اليهود بحق المسلمين فأذكر مثلا أوردته صحيفة هآرتس اليهودية الصادرة في ٢١ آذار ١٩٧٨م، فنشرت نبأ بعث به مراسلها في واشنطن كشف فيه النقاب عن مجزرة بشرية رهيبة ارتكبها الجنود اليهود أثناء عملية اجتياح جنوب لبنان وذلك حينما قتلوا سبعين عجوزا وأمرأة وطفلا من المسلمين كانوا قد لجأوا إلى داخل المسجد في قرية الخيام طلبا للأمان، ووصف المراسل اليهودي المجزرة قائلا «إن عملية ذبح المسلمين

---

(١) يمكن الاطلاع على ما تعيشه الأقليات والجاليات الإسلامية من الاضطهاد والعدوان من قبل النصارى وغيرهم لا سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، في كتاب أوضاع الأقليات والجاليات الإسلامية في العالم (قبل وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م) للدكتور مجدي الداغر طبعة دار الوفاء الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

جرت بسرعة، وإن الجنود اليهود بالاشتراك مع جنود سعد حداد الموارنة نفذوا المذبحة بدم بارد»[1].

(١) انظر مجلة المجتمع الكويتية ص ١٨ عدد ٣ صفر ١٤٠٧هـ.

الفصل الثاني

النقل والعقل ونظرية المعرفة

منهج دعوي عند ابن كثير

ويحتوي مبحثين:

المبحث الأول: عدم تعارض النقل مع العقل.

المبحث الثاني: نظرية المعرفة عند ابن كثير.

المبحث الأول

عدم تعارض النقل مع العقل

وفيه توطئة ومطالب:

توطئة:

للعقل في الإسلام مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة، فقد أثنى الله سبحانه تعالى على أرباب العقول وأولي الألباب، ومدحهم وخصهم بخطابه، يقول تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2]، ويقول عز وجل: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3]، وغيرها من الآيات.

كما حث الإسلام على النظر والتفكر والاعتبار في آيات كثيرة من القرآن، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ

---

(١) سورة البقرة، الآية [١٩٧].

(٢) سورة البقرة، الآية [٢٦٩].

(٣) سورة العنكبوت، الآية [٣٥].

(٤) سورة آل عمران، الآية [١٩٠-١٩١].

عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[٢] وغيرها من الآيات التي تحث على النظر والتفكر والاتعاظ والاعتبار.

وفي المقابل ذم الله سبحانه المعرضين عن ذلك فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[٣]، كما ذم المقلدين والمتبعين لآبائهم وكبرائهم دون حجة ودليل، لأن في هذا تعطيل لنعمة العقل التي أنعم الله بها على الإنسان وميّزه بها عن غيره، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[٤].

ومن هنا جعل الإسلام العقل مناط التكليف «فإذا فقد — أي العقل — ارتفع التكليف وعدَّ فاقده كالبهيمة المهملة»[٥]، فالعقل «أكبر المعاني قدراً، وأعظم الحواس نفعاً، فإن به يتميز الإنسان من البهيمة، ويعرف به حقائق المعلومات،

---

(١) سورة يونس، الآية [١٠١].

(٢) سورة الذاريات، الآية [٢١].

(٣) سورة يوسف، الآية [١٠٥].

(٤) سورة الزخرف، الآية [٢٣-٢٤].

(٥) الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي ٢٧/٣، طبعة دار المعرفة بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ.

ويهتدي إلى مصالحه، ويتقي ما يضره، ويدخل به في التكليف، وهو شرط في ثبوت الولايات وصحة التصرفات وأداء العبادات»[١]، ولهذا جاء في الحديث: **(رفع القلم عن ثلاثة، النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل)**[٢].

وسنتناول في هذا المبحث إن شاء الله نظرة ابن كثير للعقل وأنه لا يتعارض مع النقل، وإنكاره على من عارض النصوص بالآراء والأهواء والعقول الفاسدة، وأثر ذلك على انحراف الفرق التي ضلت بسبب ذلك عن المنهج الصحيح الذي سار عليه الرسول ﷺ وصحابته والسلف الصالح من بعدهم، وقبل ذلك أود أن أعرِّف العقل في اللغة والاصطلاح.

تعريف العقل لغة:

العقل مصدر عقل يعقل عقلاً فهو معقول، وأصل معنى العقل المنع والإمساك والحبس، وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه، أي يحبسه عن التورط في المهالك[٣]، أو لأنه يعقل حقائق الأشياء[٤].

---

(١) المغني لموفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ١٥٢/١٢، طبعة دار عالم الكتب بالرياض، ط٣ ١٤١٧هـ.

(٢) أخرجه أبو داوود كتاب الحدود باب في المجنون يسرق ويصيب حداً رقم (٤٤٠٣)، والترمذي بلفظ: **(رفع القلم عن ثلاثه عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يشب، وعن المعتوه حتى يعقل)** كتاب الحدود، باب ما جاء فيما لا يجب عليه الحد رقم (١٤٢٣).

(٣) انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة «عقل» ٨٥٤/١١، الفيروز آبادي القاموس المحيط، فصل العين باب اللام.

(٤) التعريفات ص١٩٧، للجرجاني تحقيق وتعليق عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، ط١ ١٤٠٧هـ.

ويطلق الحِجْر على العقل لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق معه الأفعال والأقوال، يقول ابن كثير في تفسير: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾[١]، «أي: لذي عقل ولب وحجا، وإنما سمي العقل حِجْراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق من الأفعال والأقوال، ومنه حِجْر البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي ومنه حجر اليمامة، وحجر الحاكم على فلان إذا منعه من التصرف»[٢].

تعريف العقل اصطلاحاً:

يقع استعمال العقل في الاصطلاح على أربعة معان:

[١] الغريزة التي في الإنسان، فبها يعلم ويعقل، وهي مناط التكليف و بها يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان.

[٢] العلوم الضرورية كالعلم بالممكنات والواجبات والممتنعات.

[٣] العلوم النظرية وهي التي تحصل بالنظر والاستدلال والناس فيها يتفاوتون ويتفاضلون في ذلك.

[٤] الأعمال التي تكون بموجب العلم، فالعقل كما قال الأصمعي[٣]:

---

(١) سورة الفجر، الآية [٥].

(٢) التفسير ٤/٦٠١.

(٣) هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، توفي سنة ٢١٦هـ. (الأعلام ٤/١٣٢).

«الإمساك عن القبيح وقصر النفس وحبسها على الحسن»[١].

لفظ العقل في القرآن:

لم يرد لفظ العقل في القرآن من حيث حقيقتة بصيغته الإسمية وإنما الآيات التي ذكر فيها العقل جاءت بصيغة الفعل - يعقل وتعقل ويعقلون وتعقلون - كما أنها جاءت في القرآن ألفاظ مرادفه للعقل وبصيغة المصدر في عدة مواضع مثل الحجر كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾[٢]، والألباب كما في قوله تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٣]، والأحلام كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[٤]، والنُهى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾[٥]، والفؤاد كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[٦]، وجاءت بالجمع كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٧].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٢٨٦/٩، ٨٧، ٣٠٥، ٣٣٦/١٦، درر تعارض العقل والنقل ٨٩/١، والفقيه والمتفقه للبغدادي ٢٠/٢، والأذكياء لابن الجوزي ص٢٣-٢٤، وانظر: مفرح القوسي، المنهج السلفي، ص ٢٣٠-٢٣١ طبعة دار الفضيلة، ط١، ١٤٢٥هـ.

(٢) سورة الفجر، الآية [٥].

(٣) سورة ص، الآية [٢٩].

(٤) سورة الطور، الآية [٣٢]، وأحلامهم: عقولهم، التفسير ٢٨٧/٤.

(٥) سورة طه، الآية [٥٤]، والنهى: العقول المستقيمة، التفسير ١٩٧/٤.

(٦) سورة الإسراء، الآية [٣٦]، والأفئدة: العقول، التفسير ٧١٥/٢.

(٧) سورة النحل، الآية [٧٨].

المطلب الأول

نظرة ابن كثير إلى العقل

أولاً: فضل العقل ومنزلته عند ابن كثير:

يرى ابن كثير أن العقل أشرف ما في الإنسان فيقول عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١]، «ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما في الإنسان ولهذا حرّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها»[٢].

ويقول رحمه الله عند تفسير الآيات: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣]، «يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آياته ونعمه وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض... إلى أن قال رحمه الله وقال أولاً: لآيات للمؤمنين ثم يوقنون ثم يعقلون وهو ترق من حال شرف إلى ما هو أشرف منه وأعلى»[٤]، والذين هداهم الله في الدنيا والآخرة هم ذوو العقول الصحيحة والفطر السليمة، يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

---

(١) سورة النحل، الآية [٦٧].

(٢) التفسير ٢/٧١٠.

(٣) سورة الجاثية، الآية [٣-٥].

(٤) التفسير ٤/١٧٥.

أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١]، «أي يفهمونه ويعملون بما فيه... أولئك الذين هداهم الله أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، وأولئك هم أولو الألباب، أي العقول الصحيحة والفطرة السليمة»[٢].

ولذلك نجد أن ابن كثير يحذر من الأمور التي تضر بالعقل وتفسده، فيقول عند تفسير الآية: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٣]، «أي لا تسرفوا في الأكل لما فيه مضرة العقل والبدن كما في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[٤]»[٥].

ثانياً: مكان العقل من الجسد:

اختلف العلماء في تحديد مكان العقل من الإنسان، فمنهم من يرى أنه في الرأس، أي في الدماغ، ودليلهم أن الإنسان إذا ضرب على رأسه ذهب عقله، واعترض القاضي أبو يعلى[٦] على ذلك فقال: «وما ذكروه من زوال العقل بضرب الرأس فلا يدل على أنه محله كما أن عصر الخصية تزيل العقل والحياة، ولا

---

(١) سورة الزمر، الآية [١٧-١٨].

(٢) التفسير ٤/٥٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية [١٤١].

(٤) سورة الأعراف، الآية [٣١].

(٥) التفسير ٢/٢٣٢.

(٦) هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء، أبو يعلى، عالم عصره في الأصول والفروع وأنواع الفنون من أهل بغداد، له تصانيف كثيرة، توفي سنة ٤٥٨هـ. الأعلام ٦/٩٩.

يدل على أنها محله»[١]. والراجح هو ما ذكره ابن كثير رحمه الله وهو أن العقول مركزها القلب على الصحيح فيقول عند تفسير الآية: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٢]، «ثم ذكر منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع... والأفئدة، وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها»[٣].

وجمهور العلماء والمفسرين يرون أن العقل في القلب وهو كلام علي بن أبي طالب وأبوهريرة[٤] وكعب بن مالك[٥] رضي الله عنهم حيث قالوا: (إن العقل في القلب)[٦]، ومنهم من يرى

---

(١) أبو يعلي، العدة في أصول الفقه ١/٩٣-٩٤، وانظر: خليل الحدري، منهجية التفكير العلمي في القرآن، ص ٥٨-٥٩، طبعة دار عالم الفوائد، ط ١، ١٤٢٥هـ.

(٢) سورة النحل، الآية [٧٨].

(٣) التفسير ٢/٧١٥.

(٤) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي الملقب بأبي هريرة صحابي كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له، وتوفي بالمدينة سنة ٥٩هـ (الأعلام ٣/٣٠٨).

(٥) هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري السلمي الخزرجي، صحابي من أكابر الشعراء من أهل المدينة اشتهر في الجاهلية وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ، وتوفي سنة ٥٠هـ (الأعلام ٥/٢٢٨).

(٦) أبو يعلى العدة في أصول الفقه، ١/٩٢-٩٣، انظر: منهجية التفكير ص ٥٨ مرجع سابق.

أن العقل في القلب وله تعلق بالدماغ كابن تيمية وابن القيم[١].

ثالثاً: تاثير الشرك والانحراف والنفاق على صحة العقل وإدراكه:

وكما أن الهداية لها أثر على سلامة العقل وصحته، لأن المؤمنين والمهتدين وصفهم الله بأنهم هم أولو الألباب والعقول الصحيحة كما قال سبحانه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢]، وكما قال سبحانه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾[٣]، فكذلك الشرك والكفر والنفاق يؤثر على صحة الفهم والقصد، يقول ابن كثير رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٤]، «وقال محمد بن إسحاق المنافقون، قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كلاً منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد صحيح لو فرض أن لهم فهماً»[٥].

---

(١) انظر: الفتاوى ٣٠٣/٩، ومفتاح السعادة ص٢٣٠، وانظر: منهجية التفكير ص ٥٨-٥٩، مرجع سابق.

(٢) سورة الزمر، الآية [١٧-١٨].

(٣) سورة الطلاق، الآية [١٠].

(٤) سورة الأنفال، الآية [٢٢].

(٥) التفسير ٣٧٢/٢.

رابعاً: العقل وحده لا يستقل بمعرفة الحق والباطل والحسن والقبيح:

فإن ابن كثير رحمه الله ينظر إلى أن العقل وحده لا يستقل بالتمييز بين الحق والباطل والحسن والقبيح فيقول عند تفسير الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ....﴾[١]، «أي إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسناً فعله ومهما رآه قبيحاً تركه، ثم قال: وهذا يُستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقلين»[٢]، فالعقل يحتاج إلى الوحي والرسالة حتى يهتدي إلى الحق ويستطيع أن يميز بينه وبين الباطل وبين الحسن والقبيح، «ولولا الرسالة لم يهتد عقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد»[٣]، وكما أن العقل مناط التكليف وهو «شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال وبه يكتمل العلم والعمل لكنه ليس مستقلاً بذلك»[٤].

---

(١) سورة الجاثية، الآية [٢٣].

(٢) التفسير ٤/١٧٨، ومعنى ذلك أن العقل يدرك الحسن والقبيح في شيئين:

الأول: ملاءمة الغرض للطبع ومنافرته له فالموافق حسن عند العقل والمنافر قبيح عنده.

والثاني: صفة الكمال والنقص فصفات الكمال حسنة عند العقل وصفات النقص قبيحة عنده، انظر: محمد علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص٧، طبعة دار المعرفة بدون تاريخ.

(٣) الفتاوى لابن تيمية ١٩/١٠٠.

(٤) المرجع نفسه ٣/٣٣٨.

خامساً: حثه على استخدام العقل والاستدلال به:

وقد تقرر ذلك في عدة مواضع من التفسير منها قوله عند تفسير الآية: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾[1]، «أي أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له وعُدُولكم إلى اتباع الشيطان»[2].

وهكذا نجد أن ابن كثير إنما يستخدم العقل في الاستدلال على بطلان الأمور التي لم تثبت بالنقل أو المخالفة للعقل، فمثلاً عند ما أورد قول بعض المفسرين عن القوم الجبارين وهم العماليق، وفيهم رجل يقال له عوج بن عنق، وإن طوله ثلاثة آلاف ذراع، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته فقال: «وإذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف يبقى عوج ابن عنق وهو كافر وولد زنيه هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع»[3].

وكذلك رده على من قال إن «ق» جبل يحيط بجميع الأرض يقال له قاف، قال رحمه الله: «وكان هذا والله أعلم من خرافات بني إسرائيل، وإنما أباح الشرع الرواية عنهم في قوله: **(حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)**، فيما يجوزه العقل، أما فيما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل والله أعلم»[4]. وغيرها من المواضع التي حث فيها ابن كثير

---

(١) سورة يس، الآية [٦٣].

(٢) التفسير ٣/٧٠٦.

(٣) المرجع نفسه ٢/٥٠-٥١.

(٤) المرجع نفسه ٤/٢٦٠.

على استخدام العقل والاستدلال به فيما لا يتسع المجال لذكره[١]، كما حث على التفكر والتدبر[٢].

ولا شك أن الداعية بأمس الحاجة في دعوته إلى الأساليب الدعوية التي ترتكز على العقل وتدعو إلى التفكر والتدبر والاعتبار في المواطن التي ينكر فيها المدعوون الأمور الظاهرة والبدهيات العقلية مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[٣]، وقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ

---

(١) انظر مثلاً:

١. تفسير الآيات ٢٨-٢٩ من سورة ص، ٤/٤١.

٢. تفسير الآية ٧ من سورة آل عمران، ١/٤٢٨.

٣. تفسير الآية ٨٦ من سورة الكهف، ٣/١٣٠.

٤. تفسير سورة ٩٤ من سورة الكهف، ٣/١٣٢.

٥. تفسير الآية ١٢ من سورة النور، ٣/٣٤٢.

٦. تفسير الآية ٦١-٦٣ من سورة العنكبوت، ٣/٥١٩.

٧. تفسير الآية ٣ من سورة فاطر، ٣/٦٧١.

٨. تفسير الآية ٤٤ من سورة فاطر، ٣/٦٨٩.

٩. تفسير الآية ١٦ من سورة النمل، ٣/٤٤٤.

١٠. تفسير الآية ٣٥ من سورة النمل، ٣/٤٤٩.

١١. تفسير الآية ٤٢ من سورة النمل، ٣/٤٥٢.

١٢. تفسير الآية ٢٩ من سورة غافر، ٤/٩٢-٩٣.

(٢) انظر مثلاً ٢/١٦١، ٢/٧١٦، ٣/٢٢٥، ٣/٢٣٢، ٣/٥٠٤، ٣/٥٣٠، ٣/٥٥٥، ٣/٥٥٨، ٤/٩٠، ٤/١٧٥، ٤/٣٩٠، ٢/٣٣٩، ٢/٥٣٤، ٢/٦٠٨.

(٣) سورة الطور، الآية [٣٥].

إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١]، وكذلك مع المُعتدين بعقولهم وأفكارهم من المدعوين لأنهم أسرع من يتأثر بالمنهج العقلي السليم، وكذلك مع المنصفين من الناس البعيدين عن التعصب لآرائهم والمتجردين من الأغراض الخاصة، إضافة إلى المتأثرين بالشبهات والمنخدعين بالباطل[٢]، ففي هذه المواطن وأمثالها تظهر فائدة استخدام الدعاة للمنهج العقلي في التأثير على المدعوين واستجابتهم للدعوة بعد توفيق الله وإخلاص الداعية وتمكنه وقدرته.

وكما أن التدبر والتفكر في القرآن الكريم وفي آيات الله الكونية وفي الآفاق والأنفس يكون سبباً في إيمان المدعو من غير المسلمين واستجابته للإسلام، فهو كذلك يكون سبباً في زيادة إيمان المؤمن وفتح مجال واسع ورحب للبحث في كنوز القرآن، والوقوف على أوجه الإعجاز المختلفة والمتنوعة في القرآن مما لا مجال للحديث عنه هنا.

سادساً: النقل الصحيح لا يتعارض مع العقل الصريح:

يرى ابن كثير رحمه الله أن الثابت بالنقل والشرع هو ثابت بالعقل، فالعقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح فحينما استدل على وقوع النسخ في القرآن بالنقل وهو قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣]، قرر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه أيضاً جائز عقلاً ولا يتعارض مع النقل فقال

---

(١) سورة الأنبياء، الآية [٢٢].

(٢) انظر محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص٢١٢، طبعة مؤسسة الرسالة، ط١ ١٤١٢هـ.

(٣) سورة البقرة، الآية [١٠٦].

عند تفسير الآية: «ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ رداً على اليهود عليهم لعائن الله... ثم قال والذي يحمل اليهود إلى البحث في مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله لأنه يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد»[١]، فاليهود حينما أنكروا النسخ واعترضوا عليه ليس لهم دليل عقلي ينافي النقل، وإنما دعواهم مبنية على الجهل والكفر والعناد والتحريض يقول ابن كثير: «وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبههم لعنهم الله في دعوى استحالة النسخ، إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً وإما نقلاً كما تخرَّصه آخرون افتراء وإفكاً»[٢].

ويقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[٣]: «ومن هنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إسماعيل وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه»[٤]، ويقول رحمه

---

(١) التفسير ١/١٨٩.

(٢) التفسير ١/١٨٩.

(٣) سورة هود، الآية [٧١].

(٤) المرجع نفسه ٢/٥٥٧.

الله عند تفسير الآية: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[١]: «وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد... ويقوله الفلاسفة الدهرية والدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ولهذا قالوا وما يهلكنا إلا الدهر»[٢].

وكذلك استدلاله رحمه الله بالعقل الموافق للنقل في أن الذي يكفر بمحمد ﷺ فهو كافر بجميع الرسل فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[٣]: «فهم في نفس الأمر كما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاؤوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه لأنهم لو كانوا مؤمنين بما في أيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأن جميع الأنبياء بَشَّرُوا به وأُمروا باتباعه، فلما جاء كفروا به وهو أشرف الرسل، عُلم أنهم ليسوا مستمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهواءهم فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفصحهم وخاتمهم وأكملهم ﷺ»[٤].

---

(١) سورة الجاثية، الآية [٢٤].

(٢) المرجع نفسه ٤/١٧٩.

(٣) سورة التوبة، الآية [٢٩].

(٤) التفسير ٢/٤٣٠.

وهكذا فالعقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح وإنما الذي يعارضه الشبهات الفاسدة والآراء المنحرفة والاجتهادات الخاطئة، وكما قال ابن تيمية: «وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها بل يعلم بالفعل ثبوت نقيضها الموافق للشرع... ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط بل السمع الذي يقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالته ضعيفة، فلا يصح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضته العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول»[1]. فابن تيمية وهو شيخ ابن كثير يقرر هذه القاعدة، وهي أنه لا يمكن لصريح المعقول أن يعارض صحيح المنقول في عدة مواضع من كتبه خاصة كتابه درء تعارض العقل والنقل، ويحتج على ذلك بأمور منها:

[١] أن التعارض بين العقل والنقل إما أن يراد به القطعيان فلا نسلم بإمكان وقوع ذلك بينهما، وإما أن يراد به الظنيان فالراجح منهما هو المقدم مطلقاً سواء كان عقلياً أو نقلياً. فتبين أن من قدم العقل على النقل مطلقاً فقد أخطأ، وإنما المقدم هو الراجح القطعي[2].

[٢] أن العقل قد شهد بصحة ما جاء به الشرع ودل عليه دلالة عامة مطلقة، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به و إلا كان العلم بصدق الشرع

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/١٤٧.

(٢) المرجع السابق ١/٨٦.

موقوفاً على كل ما يخبر به العقل، وما دام قد شهد بتزكيته الشرع وتعديله فلا يجوز تقديم العقل عليه لأن ذلك قادح في شهادته[١].

[٣] أن ما يعلمه العقل ليس شيئاً واحداً يشترك فيه جميع العقول وليس أمراً مبنياً معلوماً عند كل الناس، بل هو من الأمور النسبية الإضافية فإن زيداً قد يعلم بعقله ما لا يعلمه بكر بعقله، وقد يعلم الإنسان في حال بعقله ما يجهله في وقت آخر»[٢].

[٤] أنه لا يوجد في النصوص الثابتة في الكتاب والسنة ما يناقض العقل الصريح، وأن ما يعارضه هو إما حديث مكذوب أو دلالته ضعيفة، والرسل إنما جاءت بمحارات العقول – أي بما يُحير العقول – لا بمحالات العقول، أي: بما يستحيل في العقول التي يعلم انتفاؤها. فتبين أن صحيح النقل لا يعارض صحيح العقل وأن الحق لا يضاد نفسه[٣].

وقد أشار الراغب الأصفهاني[٤] إلى تكامل العقل والنقل وأنهما متعاضدان ومتحدان وليسا متعارضين ومتناقضين حيث قال: «اعلم أن العقل لا يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس، وأيضاً فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/١٣٨.

(٢) المرجع نفسه ١/١٤٤-١٤٥.

(٣) المرجع نفسه ١/١٤٧-١٤٨، وانظر تكامل المعرفة عند ابن تيمية ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٤) هو الحسين بن محمد المفضل أبو القاسم الأصفهاني أو الأصبهاني المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء من أهل أصبهان سكن بغداد، توفي سنة ٥٠٢ (الأعلام ٢/٢٥٥).

يُغني الشعاع ما لم يكن بصر، فلهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ﴾[1]».

وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده فإن لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت، وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾[2]، فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان»[3].

فالذي يعارض النصوص والنقل ليس هو العقل الصريح إنما هو الهوى والاستبداد بالرأي والقياس الفاسد، وكما قال الشهرستاني[4]: «إن أول شبهة

---

(١) سورة المائدة، الآية [١٥-١٦].

(٢) سورة النور، الآية [٣٥].

(٣) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص ١٤٠-١٤١، انظر: أثر علم أصول الحديث في تشكيل العقل المسلم، محاضرة ألقاها الدكتور خدون الأحدب في ١٢ صفر ١٤٢٧ هـ في منتدى الفكر الإسلامي بجدة.

(٤) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهر ستاني من فلاسفة الإسلام، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، وتوفي سنة٥٤٨هـ.الأعلام ٦/٢١٥.

وقعت في الخليقة شبهة إبليس لعنه الله، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضته الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار على مادة آدم عليه السلام وهي الطين»[١].

المطلب الثاني

إنكار ابن كثير على من عارض النصوص بالرأي

سبق وأن ذكرنا أن العقل والنقل متكاملان ومتعاضدان ومتحدان وليسا متعارضين، وأن العقل لا يهتدي إلا بالشرع والشرع لا يتبين إلا بالعقل، فالعقل الصريح لا يتناقض مع النقل الصحيح، وإنما الذي يعارضه ويناقضه هي الأهواء الفاسدة، والآراء المنحرفة، والاجتهادات الخاطئة، وإن سماها أصحابها عقليات فهي في الحقيقة جهالات وضلالات، لذا نجد ابن كثير رحمه الله يسير على هذه القاعدة فيرد وينكر على من يعارض النصوص بأخبار أو آراء أو اجتهادات ويسمي ذلك كله جهالات وضلالات.

فمثلاً رده لقول بعض المفسرين الذين ذكروا أن طول عوج بن عنق ثلاثة آلاف ذراع لمخالفته النصوص الواردة بخلاف ذلك فقال عند تفسير الآية: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ.....﴾[٢]، «وان فيهم عوج بن عنق وأن طوله ثلاثة ألاف ذراع... وهذا شيء يستحيا من ذكره ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: **(إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل**

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١/١٦.

(٢) سورة المائدة، الآية [٢٢].

الخلق ينقص حتى الآن)[١]»[٢]، وكذلك رده على الرافضة الذين أنكروا مشروعية المسح على الخفين فقال عند تفسير الآية: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ....﴾[٣] «وقد خالفت الروافض ذلك كله بلا مستند بل بجهل وضلال مع أنه ثابت في صحيح مسلم[٤]، كما ثبت في الصحيحين[٥] عن النبي ﷺ نهى عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل النبي ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر ولله الحمد»[٦].

وكذلك في رده على من أنكر البعث بناء على رأيه وهواه وتركه ما أنزل الله، فقال عند تفسير الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ

---

(١) سبق تخريجه ص٨٠.

(٢) التفسير ٢/٥٠.

(٣) سورة المائدة، الآية [٦].

(٤) عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ خرج لحاجته فاتبعه المغيرة بأداة فيها ماء، فصب عليه حين فرغ من حاجته، فتوضأ ومسح على الخفين، أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين رقم (٢٧٤).

(٥) متفق عليه وأخرجه البخاري، كتاب النكاح باب نهي النبي ﷺ عن نكاح المتعة أخيراً رقم (٥١١٥)، ومسلم، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ ثم أبيح ثم نسخ واستقر تحريمه إلى يوم القيامة رقم (١٤٠٧).

(٦) التفسير ٢/٣٨.

مَّرِيدٍ﴾[١]، «يقول تعالى ذاماً لمن كذّب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه متبعاً في قوله وإنكاره وكذبه كل شيطان مريد من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الحق المبين ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة والدعاة إلى البدع والأهواء والآراء»[٢].

كما نعى رحمه الله على من يتبع الآباء والأسلاف، ويعتبر أن ذلك من التقليد الأعمى التي يعارضون به ما أنزل الله على رسوله ﷺ، فيقول عند تفسير الآية: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[٣]، «فالمشركون لا يعقلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قالوا: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[٤]»[٥]، كما رد على المشركين الذين عارضوا النسخ بعقولهم واتهامهم للرسول ﷺ بالافتراء في ذلك فقال عند تفسير الآيـــة: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٦]، «يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين، وقلة ثباتهم وإيقانهم وأنه لا يتصور منهم

---

(١) سورة الحج، الآية [٣].

(٢) التفسير ٣/٢٥٩.

(٣) سورة المؤمنون، الآية [٩٠].

(٤) سورة الزخرف، الآية [٢٢].

(٥) المرجع نفسه ٣/٣١٨.

(٦) سورة النحل، الآية [١٠١].

الإيمان، وقد كتبت عليهم الشقاوة، وذلك أنهم لما رأوا تغير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: كذاب، وإنما هو الرب يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد»[١]، وكذلك بيانه رحمه الله خطأ اجتهاد بعض من نفى الزكاة من أحياء العرب في أنها لا تصرف إلا للرسول ﷺ فقال عند تفسير الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]، «أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وهذا عام..... ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله ﷺ.... وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أدُّوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ»[٣].

ومن المواقف التي رد فيها ابن كثير على من يعترضون على أمر الله وشرعه، حيث بعث بشراً وأنزل عليهم وحياً لدعوة الناس وهدايتهم، وحجتهم أن هؤلاء الأنبياء والرسل بشر ولم يكونوا ملائكة، وأن أتباعهم هم أراذل الناس وليسوا أشرافهم فيقول عند تفسير الآية: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ

(١) التفسير ٢/٧٢٤.

(٢) سورة التوبة، الآية [١٠٣].

(٣) المرجع نفسه ٢/٤٧٦.

عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[١] ، «أي: لستَ بملَكٍ ولكنك بشر فكيف أوحى إليك من دوننا ؟ ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف والرؤساء... هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، وأن الذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء»[٢].

وكذلك نجد أن ابن كثير خطّأ من يحلل شيئاً حرّمه الله أو يُحرِّم شيئاً أحلّه الله بمجرد رأيه، فيقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾[٣]، «نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ ويدخل في هذا كل مبتدع ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله، وحرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه»[٤]، وهكذا نجد الإمام ابن

---

(١) سورة هود، الآية [٢٧].

(٢) التفسير ٢/٥٤٥.

(٣) سورة النحل، الآية [١١٦].

(٤) المرجع نفسه ٢/٧٢٨.

كثير رحمه الله يتعقب ويرد ويعترض على الذين يخالفون النصوص بالآراء، ويعترضون عليها بالأهواء والاجتهادات الخاطئة، والتي يزعمون أنها معقولات، وهي في الحقيقة جهالات وضلالات.

فواجب الدعاة اليوم أن يكونوا كالإمام ابن كثير رحمه الله، فيواجهون ويتصدون في هذا العصر للاتجاهات والتيارات التي تمجد العقل الإنساني وتغالي في تقديمه على الدين وتحكيمه في عالمي الغيب والشهادة، وتعطي العقل اعتباراً فوق اعتبار النصوص الشرعية الثابتة عن الله ورسوله ﷺ، وتجعل العقل وسيلة الإثبات وأساس الحكم على الأشياء وطريق القبول لها.

المطلب الثالث

انحراف أصحاب الفرق الذين غلوا في العقل

اختلف الناس في النظرة إلى العقل والتعامل معه والاحتجاج به على أقسام:

فمنهم من غلا فيه وقدّمه على نصوص الشرع، لأن دلالتها ظنيه ودلالات المعقول قطعية، والبعض الآخر ردَّ المعقولات الصريحة بما ظنه سمعياً أو حسياً، وتوسط آخرون وقالوا بامتناع التعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح، لأن الحق الثابت لا ينقض بعضه بعضاً كما قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾[1][2]. قال ابن كثير «يؤفك عنه من

---

(١) سورة الذاريات، الآية [٧-٩].

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٣/١٣٢-١٣٣.

أفك أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه لأنه قول باطل، إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غَمْر[١] لا فهم له»[٢].

وهذا الصنف من الناس - ومنهم علماء السلف الصالح - توسطوا في نظرهم للعقل، فلم يغالوا فيه ولم يقدسوه، ولم يردوا المعقولات الصريحة بما ظنوه سمعياً أو حسياً، كما أنهم نظروا إلى العقل على أن له إمكانية محدودة كمحدودية الحواس التي لها محدودية لا تتجاوزها ومقدرة لا تتخطاها. فالعقل عندهم ليس معصوماً من الزلل، كما قال الشافعي رحمه الله: «إن للعقل حداً ينتهي إليه كما أن للبصر حداً ينتهي إليه»[٣]، يقول الشاطبي[٤] رحمه الله: «إن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف يكون، فمعلومات الله لا تتناهى ومعلومات العبد متناهية، والمتناهي لا يساوي ما لا يتناهى»[٥].

وهذا في عالم الشهادة والواقع أما في عالم الغيب فهو بحاجة إلى هداية الوحي فالعلاقة بين العقل والوحي، من حيث المعرفة المكتسبة علاقة تكامل، فالعقل كالعين أو البصر والوحي كالشعاع المنبثق عن الشمس ولن يغني البصر ما لم يكن شعاعاً من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصراً، فالعقل

---

(١) الغَمْر: الذي لم يُجرب الأمور، ترتيب القاموس للطاهر أحمد الزاوي ٣/٤١٦.

(٢) التفسير ٤/٢٧٤.

(٣) انظر: عبد الرحمن حنبكة الميداني، العقيدة الإسلامية أسسها، ص٢١.

(٤) هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ، من أهل غرناطة، كان من أئمة المالكية، توفي سنة ٧٩٠هـ (الأعلام ١/٧٥).

(٥) الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي ٢/٣١٨، طبعة دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ.

«غريزة في النفس وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن إدراكها»[١].

وابن كثير رحمه الله من الفريق الذين توسطوا في نظرتهم إلى العقل فلم يُقدِّمه ويجعله معصوماً من الزلل ولم يرد المعقولات الصريحة، بل رد الاجتهادات والآراء المنحرفة والمخالفة للعقول الصريحة والنقول الصحيحة، فمثلاً لما أنكر المعتزلة رؤية المؤمنين للرب سبحانه يوم القيامة بناء على فهمهم الخاطئ للآية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٢]، بَيّن ابن كثير خطأ هذا الفهم وفساده، فقال عند تفسير الآية: «وقال آخرون من المعتزلة بمحض ما فهموه من هذه الآية أنه لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ»[٣].

والطوائف والفرق التي ضلت بسبب الهوى والرأي والقياس الفاسد وظنت أن هذا هو العقل الصريح سندهم وإمامهم وقدوتهم في هذا إبليس لعنه الله، فهو أول من قاس وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس كما قال ابن

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/٣٣٩، وانظر: مفرح القوسي، المنهج السلفي ص ٢٣٨-٢٤٠، مرجع سابق.

(٢) سورة الأنعام، الآية [١٠٣].

(٣) التفسير ٢/٢٠٥.

سيرين[١] رحمه الله، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[٢]، يقول ابن كثير في تفسير الآية: «وقول إبليس لعنه الله أنا خير منه، من العذر الذي هو أكبر من الذنب كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يُؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له ؟! ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ﴾ فشذ من الملائكة بترك السجود فلهذا طرد إبليس من رحمة الله..... وعن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس»[٣].

فالخلاصة أن العقول الصريحة هي الموافقة للنقول الصحيحة، وهي التي تهدي أصحابها إلى الخير والصلاح، وتدلهم على الصواب والفلاح، ومن هنا فلا يمكن القول «بأن إنساناً ضل لأنه اتبع عقله، فإن هذا مخالف لما هو مقرر في هذا الدين، ولهذا لم يكن أسلافنا يسمون المخالفين لمنهج أهل السنة والجماعة

---

(١) هو محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، أبو بكر، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي من أشراف الكتاب، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا، توفي سنة ١١٠هـ (الأعلام ٦/١٥٤).

(٢) سورة الأعراف، الآية [١٢].

(٣) التفسير ٢/٢٥٨-٢٥٩.

بالعقلانيين كما نسمي نحن بعضهم اليوم، بل كانوا يسموهم بأهل الأهواء لأنهم لم يجدوا في كتاب الله ذماً لإنسان اتبع عقله وإنما الذم للذين لا يعقلون، أما أصحاب العقول فهم أهل الدين الصحيح، وأهل الدين هم أصحاب العقول، انظر كيف جمع الله تعالى هذين الأمرين في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١]، وانظر في مقابل ذلك كيف جعل الله تعالى عقاب عدم العقل كعقاب عدم الإيمان، فقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢]، وقال في سورة الأنعام: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣][٤].

بينما المغالاة في تقديس العقل والاعتداد بالرأي بغير حق هو في الحقيقة هوى ورأي فاسد، وليس من العقل في شيء، و صاحبه ليس عقلانياً وإنما هو من أهل الأهواء، يقول ابن كثير رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[٥]، «أي بلا عقل صريح ولا نقل صحيح

---

(١) سورة الزمر، الآية [١٨].

(٢) سورة يونس، الآية [١٠٠].

(٣) سورة الأنعام آية ١٢٥.

(٤) انظر: جعفر شيخ إدريس، ليسوا عقلانيين وإنما هم أهل الأهواء، مجلة البيان عدد ١٤١، جمادى الأولى ١٤٢٠هـ.

(٥) سورة الحج، الآية [٨].

صريح بل بمجرد الرأي والهوى»[1].

(١) التفسير ٣/٢٦٢.

ولذلك نجد أن بعض المدارس الإصلاحية التي غالت في تقديس العقل وقعت في انحرافات وضلالات خطيرة، فمثلاً المدرسة الإصلاحية الحديثة التي ظهرت في أواخر القرن الماضي والتي أسسها الشيخ جمال الدين الأفغاني (ت١٣١٥هـ)، وقد قامت هذه المدرسة الإصلاحية للنهوض بالأمة من كبوتها الحضارية والفكرية، ومواجهة سيل الاستشراق الحاقد، والرد على الشبهات الكثيرة التي أثيرت حول الإسلام من قبل أعدائه وأذنابهم من أبناء الأمة. فحاول أولئك الرواد أن يُثبتوا أن الإسلام لا يحارب التقدم ولا النهوض المادي والعلمي، ولا ينافي العقل ولا التطور. إلا أنهم في رد فعل ملحوظ وقعوا في العديد من المحاذير، حيث أعلوا من شأن العقل إعلاء وصل إلى حد الغلو، ولهذا كان لهذه المدرسة آراء وشطحات عقلية كثيرة ولا سيما فيما يتعلق بقضايا الغيب والنبوات والمعجزات، فهم عمموا ما يرون أن الإيمان بهذه القضايا وفق الأسلوب المعتاد الذي درج عليه المسلمون وثبت بالكتاب والسنة لا يكفي لإثباتها إثباتاً علمياً (وهو حصر الناحية العلمية بالأمور التجريبية فقط)، بل لا بد لإخضاعها للاستدلال العلمي؛ لأن المسلمين لا يمكن إثبات عقائدهم في هذا العصر إلا بتأييد العقل والعلم لها وإخضاع أصولها للبحث العلمي بالأسلوب الغربي (انظر مفرح القوسي، الموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية، ص ٤٠-٤١، مرجع سابق).

المبحث الثاني

نظرية المعرفة عند ابن كثير

وفيه مطالب:

المطلب الأول

المعرفة عند ابن كثير

توطئة:

النظرية هي: «تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسّقة تهدف إلى ربط التاريخ بالمبادئ»[١]، ونظرية المعرفة: «تبحث في مبادئ المعرفة الإنسانية وطبيعتها ومصدرها وطرائقها وقيمها وحدودها، وفي الصلة بين الذات المدركة والموضوع المدرك، وبيان إلى أي مدى تكون تصوراتنا مطابقة لواقع الشيء المستقل عن الذهن»[٢]، ومصادر المعرفة هي أحد مباحث نظرية المعرفة، وسنتناول في هذا المبحث معنى المعرفة والفرق بينها وبين العلم، والمراد بها عند ابن كثير، وكذلك مصادر المعرفة وطرقها عند العلماء المسلمين — ومنهم ابن كثير — أو عند العلماء والفلاسفة الغربيين.

---

(١) جميل صليبا، المعجم الفلسفي ٢/٤٧٧.

(٢) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، ص٢٠٣.

معنى المعرفة لغة واصطلاحاً:

قال ابن فارس: «العين والراء والفاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلاً بعضه ببعض والأخرى على السكون والطمأنينة... تقول عرف فلان فلاناً عِرْفاناً ومعرفة، وهذا أمر معروف، وهذا يدل على ما قلناه من سكونه إليه لأن من أنكر شيئاً توحش منه ونبا عنه»[١].

واصطلاحاً:

«إدراك الشيء على ما هو عليه وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم، ولذلك يسمى الحق تبارك وتعالى بالعالم دون العارف»[٢]، وقد ذكر التهانوي[٣] أن من معاني المعرفة:

- إدراك الشيء بإحدى الحواس.
- العلم مطلقاً تصوراً كان أم تصديقاً.
- إدراك البسيط سواء كان تصوراً للماهية أو تصديقاً بأحوالها[٤].

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ٢٨١/٤.

(٢) الجرجاني، التعريفات ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٣) هو محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي، الحنفي التهانوي، باحث هندي له: "كشاف اصطلاح الفنون"، و"سبق الغايات في نسق الآيات"، توفي سنة ١١٥٨هـ. الأعلام.

(٤) انظر محمد التهانوي، كشاف اصطلاح الفنون ١٠٣٩/٢.

الماهية: هي ما يجاب به على سؤال ما هو؟ وهي الشيء المتعقّل من شيء ما بغض النظر عن وجوده الظاهر وأعراضه مثل الحيوانية والنطق عند الإنسان، انظر: الجرجاني، التعريفات ١٩٥، وجميل صليبا، المعجم الفلسفي ٣١٤/٢.

معنى العلم لغة واصطلاحاً:

قال ابن فارس[١]: «العين واللام والميم أصل صحيح واحد يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره من ذلك العلامة، وهي معروفة والعلم والراية والجمع أعلام والعلم الجبل والعلم نقيض الجهل»[٢]، وعرّفه صاحب القاموس بقوله: «علمه كسمعه علماً بالكسر عرفه»[٣].

واصطلاحاً:

اختلف العلماء في حد العلم فمنهم من رأى أنه لا يُحدّ كالغزالي[٤]، والرازي، والجويني[٥]، وآخرون قالوا بالإمكان حده كالباجي[٦] فقال: هو

---

(١) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسين، من أئمة اللغة والأدب، قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب بن عباد وغيرهما من أعيان البيان، توفي سنة ٣٩٥هـ، الأعلام ١/١٩٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة مادة علم.

(٣) القاموس المحيط فصل العين باب اللام.

(٤) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد حجة الإسلام، فيلسوف متصوف له نحو مائتي مصنف، توفي سنة ٥٠٥. الأعلام ٧/٢٢.

(٥) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، من أصحاب الشافعي، توفي سنة ٤٧٨هـ. الأعلام ٤/١٦٠.

(٦) هو سليمان بن خلف بن سعد القرطبي، أبو الوليد الباجي، فقيه مالكي كبير من رجال الحديث، من كتبه السراج في علم الحجاج وإحكام الفصول في أحكام الأصول، والتسديد في معرفة التوحيد وغيرها، توفي سنة ٤٧٤هـ. الأعلام ٣/١٢٥.

«معرفة المعلوم على ما هو به»[١]، وعرفه القاضي[٢] عبد الجبار بأنه: «المعنى الذي يقتضي سكون نفس العالم»[٣]، وعرفه الجرجاني[٤] بقوله: «الاعتقاد الجازم المطابق للواقع»[٥].

الفرق بين العلم والمعرفة:

يذكر الإمام ابن القيم أن هناك فرق لفظي ومعنوي، بين العلم والمعرفة فاللفظي يتمثل في أن فعل المعرفة يقع على مفعول واحد، قال تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[٦]، بينما فعل العلم يقتضي مفعولين كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ

---

(١) الحدود للباجي ص٢٤.

(٢) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني أبو الحسين قاض أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره، وهم يلقبونه قاضي القضاة ولا يطلقون هذا اللقب على غيره، ولي القضاء بالري ومات بها سنة ٤١٥هـ، له تصانيف كثيرة منها: تنزيه القرآن عن المطاعن والأمالي شرح الأصول الخمسة وغيرها. الأعلام ٢٧٣/٣.

(٣) المغني للقاضي عبد الجبار ١٣/١٢.

(٤) هو علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف من كبار العلماء بالعربية، ولد في تاكو قرب استراباد، ودرس في شيراز، ولما دخلها تيمور سنة ٧٨٩هـ فر الجرجاني إلى سمرقند ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور فأقام إلى أن توفي سنة ٨١٦هـ، له نحو خمسين مصنفا منها: التعريفات، ومقاليد العلوم، وتحقيق الكليات وغيرها. الأعلام ٧/٥.

(٥) التعريفات للجرجاني ص ٢٠٠.

(٦) سورة يوسف، الآية [٥٨].

عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾[١]، فإن وقع على مفعول واحد كان بمعنى المعرفة كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[٢]، وأما الفرق المعنوي فمن وجوه:

[١] أن المعرفة تتعلق بذات الشيء والعلم يتعلق بأحواله، تقول عرفت أباك وعلمته صالحاً فالمعرفة حضور صورة الشيء ومثاله العلمي في النفس، والعلم حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليه، فالمعرفة تشبه التصور، والعلم يشبه التصديق[٣].

[٢] أن المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه فإذا أدركه قيل عرفه، أو تكون لما وصف بصفات قامت في نفسه فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل عرفه، ومن الأول قوله تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[٤]، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[٥]، لما كانت صفاته معلومه عندهم فرأوه عرفوه بتلك الصفات ولهذا كان ضد المعرفة الإنكار وضد العلم الجهل.

---

(١) سورة الممتحنة، الآية [١٠].

(٢) سورة الأنفال، الآية [٦٠].

(٣) التصور: حصول صورة الشيء في العقل، والتصديق: حكم بالنسبة من طرفين، انظر: الجرجاني، التعريفات ص ٣٧، وجميل صليبا، المعجم الفلسفي ١/٢٧٧.

(٤) سورة يوسف، الآية [٥٨].

(٥) سورة البقرة، الآية [١٤٦].

[٣] إن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره والعلم يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره، فإذا قلت علمت زيداً لم يفد المخاطب شيئاً لأنه ينتظر بعد أن تخبره على أي حال علمته، فإذا قلت كريماً أو شجاعاً حصلت له الفائدة، وإذا قلت عرفت زيداً استفاد المخاطب أنك أثبته وميّزته عن غيره ولم يبق منتظراً لشيء آخر[١].

والبعض يرى أنه لا فرق بين العلم والمعرفة كابن حزم فيقول: «وحد العلم بالشيء هو المعرفة به أن تقول العلم والمعرفة اسمان واقعان على معنى واحد، وهو اعتقاد الشيء على ما هو عليه وتيقنه به وارتفاع الشكوك عنه، ويكون ذلك إما بشهادة الحواس وأول العقل، وإما ببرهان راجع من قرب أو من بعد إلى شهادة الحواس وأول العقل، وأما باتفاق وقع له في مصادفة اعتقاد الحق خاصة بتصديق ما افترض الله عز وجل

---

(١) انظر: ابن القيم مدارج السالكين ٣/٣٣٥-٣٣٧، وانظر مفرح القوسي المنهج السلفي ص٢١١-٢١٢، مرجع سابق، وللاطلاع على المزيد مما ذكره بعض العلماء في بيان الفرق بين العلم والمعرفة وتحديد العلاقة بينهما انظر:

١. المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص ٣٣١.

٢. الذريعة إلى أحكام الشريعة للأصفهاني ص ١٠٢-١٠٣.

٣. نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة راجع الكردي ص٤٩-٥٠.

٤. نظرية المعرفة في القرآن الكريم أحمد الدغشي ص٨٧-٩٢.

اتباعه خاصة دون استدلال»[١].

أما ابن كثير فقد فسر المعرفة بعلم القلب، فقال عند تفسير الآية: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾[٢]، «أي فكذَّب بالحق.... ثم قال: وعلمه بأن ما جاء به — موسى — أنه حق لا يلزم منه أنه مؤمن به؛ لأن المعرفة علم القلب والإيمان عمله وهو الانقياد للحق والخضوع له»[٣].

وقد عبر البعض عن ترادف معنى العلم والمعرفة بقوله: «أرى أن مصطلحي العلم والمعرفة من قبيل المصطلحات التي بينهما اتصال وانفصال واتفاق واقتران، بحيث يصدق عليها القول بأنها إذا اتفقت اختلفت وإذا اختلفت اتفقت، شأنها في ذلك شأن التربية والتعليم والإيمان والإسلام والأخلاق والقيم، وسواها يكون السياق هو المحدد الوحيد لمن يراه تفريقاً بينهما، ولكن تفريق موضعي لا موضوعي لا يصمد ولا يَطَّرِد في كل حين»[٤].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٥/٢٤٢، انظر: أحمد الدغشي، نظرية المعرفة في القرآن الكريم، ص٩١.

(٢) سورة النازعات، الآية [٢١].

(٣) التفسير ٤/٥٥٢.

(٤) انظر: أحمد الدغشي، نظرية المعرفة في القرآن، ص ٩٢.

المطلب الثاني

طرق المعرفة عند ابن كثير

أولاً: الحس والتجربة «الكون»:

يعتبر العلماء والفلاسفة الغربيون أن الكون هو مصدر المعرفة، فالحقائق والمعارف والعلوم التي تثبت عن طريق العقل والحس[١] والتجربة[٢] تعتبر حقائق علمية، والطريق المتبع في الوصول إلى هذه الحقائق هو منهج علمي،

---

(١) الحس: لغة: أصله من الصوت الخفي مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء ١٠٢]، والحِس بكسر الحاء من أحس بالشيء وأحسه وحس به يحس حساً وحسيساً شعر به، انظر ابن منظور لسان العرب مادة « حسس ».

والحواس في الإنسان تطلق عند العرب على المشاعر الخمس السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ومفردها حاسة، انظر الصحاح مادة «حسس».

وفي الاصطلاح: « إدراك الشيء بإحدى الحواس فإن كان الإحساس للحس الظاهر فهو المشاهدات وإن كان للحس الباطن فهو الوجدانيات »، الجرجاني التعريفات ص٣٠.

(٢) التجربة: لغة: الاختبار ويقال جرب الرجل تجربة أي اختبره ورجل مَجرَّب بالفتح اختبر في الأمر وعرف ما عنده ومجرِّب بالكسر عرف الأمور وخبرها، انظر: القاموس المحيط فصل الجيم باب الباء، ولسان العرب، والمعجم الوسيط مادة جرب.

وأما التجربة في الاصطلاح: فهي تطلق على ملاحظة العالم ظواهر طبيعية بشروط معينة يهيئها بنفسه ليصل من ذلك إلى علم قضية أو قضايا تسمى بالمجربات، انظر: عبدالرحمن الزنيدي، مصادر المعرفة ص ٤٣٦.

والمجربات هي « القضايا التي يحتاج العقل في جزم الحكم بها إلى واسطة تكرار المشاهدة ». التهانوي كشاف اصطلاح الفنون ٢٦٩/١، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، وانظر: المنهج السلفي لمفرح القوسي ص٢٢٦ مرجع سابق.

بل هو المنهج العلمي، وعليه «فالعلم باصطلاحهم محصور – مصدراً – في التجربة وميداناً في المجال الرياضي والطبيعي وما يُقبل موضوعه للتجربة والاستقراء والمقاييس الكمية»[١]، لذلك فالإطار الذي توضع فيه العلوم عند العلماء الغربيين هو إطار يقوم على فلسفة لا دينية، هذه الفلسفة ترى أن الظواهر الكونية والمعارف والحقائق الطبيعية وغيرها ينبغي أن تفسر بأسباب من داخل هذا الكون أي بأسباب طبيعة لا دخل فيها للإرادة الإلهية.

وبذلك فإن كل عبارة تنطوي على دعوى تخالف في ظاهرها هذا التصور فإما أن نحكم ببطلانها وإما أن نعيد تفسيرها بحيث نجد لها مكاناً داخل هذا الإطار الإلحادي المادي، وكذلك كل ظاهرة يُدَّعى أنها خارقة لقوانين الطبيعة فهي إما كذب أو وهم لا أساس له، وحتى الظواهر النفسية والاجتماعية إذا فسَّرت بأسباب خارج هذا الإطار فإن هذا التفسير لا يعتبر تفسيراً علمياً، أي إن التفسير العلمي هو بالضرورة تفسير إلحادي حتى أصبحت كلمة العلم في العالم كله تقريباً علماً على هذا التصور الإلحادي، ولهذا أمكنت المقابلة بين العلم والدين[٢] ولا شك أن المفهوم الذي يحصر العلم فيما جاء عن طريق التجربة والخبرة الحسية وحدها مخالف لمفهوم العلم في الإسلام، فإن مسماه يشمل «جميع أنواع المعارف الإنسانية سواء كان مصدرها العقل كالرياضيات أم الحس والتجربة بالإضافة إلى العقل كالطب أو العقل والسماع كاللغة أو الوحي

---

(١) محمد المبارك، الإسلام والفكر العلمي ص١٦.

(٢) انظر: جعفر شيخ إدريس إسلامية العلوم وموضوعيتها ص٧ مرجع سابق.

والعقل كعلوم الدين[١]»[٢]، فأثمر هذا التصور للعلم والتصور للإطار الفلسفي

---

(١) محمد المبارك، الإسلام والفكر العلمي، ص١٥ مرجع سابق.

(٢) ولقد أدرك بعض المسلمين خطورة هذا المفهوم وخطأه فناقشوه وردوه منهم:

١. عبد الرحمن السعدي في الأدلة القواطع والبراهين في رد شُبهة الملحدين ص ١٨ مكتبة المعارف بالرياض ١٤٠٢هـ.

٢. مصطفى صبري في موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ٤٥٣/٢ دار إحياء التراث العربي بيروت، ط ٢ ١٤٠١هـ.

٣. محمد المبارك في الإسلام والفكر العلمي ص١٥.

٤. عبد الرحمن الزنيدي في مصادر المعرفة في الفكر الديني ص٤٨، طبعة مكتبة المؤيد بالرياض ط١ ١٤١٢هـ.

٥. جعفر شيخ إدريس في إسلامية العلوم وموضوعاتها مجلة المسلم المعاصر ١٤٠٨هـ، والدعوة الإسلامية والغزو الفكري في مجلة كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام ١٤٠٣هـ، ومناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقيت في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ١٤٠٧/٧/٢٥هـ.

٦. محمد الخرعان العلم أصوله ومصادره ومناهجه ص ١٧.ط دار الوطن ١٤١٢هـ.

٧. محمد صامل السلمي في منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه ص٣٤. ط دار الوفاء ١٤٠٨هـ.

٨. يوسف السويدي في الإسلام والعلم التجريبي ص ١٣ ط مكتبة الفلاح الكويت ١٤٠٠هـ.

٩. ماجد عرسان الكيلاني، الفكر التربوي عند ابن تيمية ص٢١٢، ط مكتبة دار التراث المدينة المنورة ط٢ ١٤٠٧هـ.

وكذلك قامت محاولات في بعض البلاد الإسلامية لتفادي خطر الثنائية والمقابلة بين العلم والدين، التي أثمرت في وقوع الانفصال بين التعليم الديني والتعليم العلماني، فقامت محاولات مشكورة لردم هذه الهوة وتجاوز هذا الانفصال وتأكيد وحدة المعرفة وتكاملها، منها على سبيل المثال: إدارة التأصيل التي أنشأتها وزارة التعليم بجمهورية السودان وذلك من أجل تأصيل وحدة المعرفة وتوطيدها. انظر: العدد الأول من مجلة التأصيل التي تصدرها إدارة تأصيل المعرفة بوزارة التربية والتعليم والبحث العلمي بالسودان ص١٠، وتأكيد الوزير هناك في ذلك الحين (البروفسور إبراهيم أحمد عمر) على اعتماد الوحي مصدراً للمعرفة إلى جانب المصادر الأخرى في مدارس وجامعات السودان، انظر: نظرية المعرفة في القرآن الكريم، أحمد الدغشي ص١٢٥.

للعلوم أن انحصرت مصادر المعرفة في الكون المحسوس، بحيث أصبح كل تفسير للحقائق والعلوم والمعارف خارج هذا الإطار لا يعتبر تفسيراً علمياً مقبولاً، فالوحي المنزل من الله سبحانه كالقرآن الكريم والسنة المطهرة والأخبار التي وردت في الوحي عن اليوم الآخر والجنة والنار وعذاب القبر والملائكة... ونحو ذلك، كل ذلك لا يعتبر مصادر علميه بل تسمى مصادر دينية أشبه ما تكون بالظن والخرافة[١].

ولعل الصراع الذي حصل بين العلماء ورجال الدين في أوروبا وانتهى بانتصار وغلبة العلماء على الكنيسة والدين النصراني واعتبروا هذا الانتصار على جميع الأديان لأنهم يظنون أن دينهم – الباطل – هو أحسن الأديان، فكان من نتيجة ذلك أن وضع العلم في جانب ونُحّي الدين في زمرة السحرة والكهانة والخرافات؛ لأن هذا الدين النصراني الذي صارعه العلم وتغلب عليه كان مختلطاً بهذه الأمور[٢].

وأما في المنهج الإسلامي فأول مصادر المعرفة هو الوحي الذي أنزله الله على رسوله ﷺ من القرآن والسنة فهما مصدرا الحق والتشريع، وقد سبق أن بينا ذلك في المباحث السابقة، فعلماء السلف يقطعون أن المعرفة المكتسبة عن طريق الوحي معرفة يقينية مطلقة، لأن الوحي جزء من علم الله تعالى له ما لهذه

---

(١) انظر: جعفر شيخ إدريس، إسلامية العلوم وموضوعاتها، ص ٨، مرجع سابق.

(٢) انظر: جعفر شيخ إدريس، مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها، محاضرة ألقيت في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض ١٩٨٧/٣/٢٥م.

الصفة من كونها حقيقة مطلقة غير محدودة، وقد تكفل الله بحفظه من التحريف والتبديل والتغيير، كما حصل للكتب السماوية السابقة الأخرى المنزلة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1]، كما أن الوحي مصدر للمعرفة في المنهج الإسلامي فكذلك الكون وهو إفادته للعلم اليقيني كالوحي من حيث إن الوحي كلام الله والكون خلقه سبحانه ولا يمكن بحال أن يحصل تعارض بين الحقائق المنزلة والحقائق الطبيعية التي خلقها الله، فعن طريق الحس عرفنا إن الشمس حارة، وأن الأرض كروية، وأن السم يميت والأكل الطيب يغذي، إلى غير ذلك من العلوم الطبيعية والتي هي علوم استفدناها من الكون دون الحاجة أن ينزل فيها علم من الله وذلك بما زودنا به سبحانه من الوسائل التي تمكنا بها من الحصول على هذه العلوم والمعارف من الكون مباشرة.

ولهذا لم تكن هذه العلوم من شأن الوحي بل كان القرآن يتعامل معها باعتبارها مسلمات ليست موضوع نقاش من الجميع، فكان سبحانه يضرب بها المثال على قدرته ووحدانيته، إلى غير ذلك مما يدل على أنه سبحانه يعتبرها مصادر يقينية للعلم والمعرفة[2]، ولذا نجد الإمام ابن تيمية يسمي العلوم التي تتعلق بتربية الإنسان وتعليمه وهدايته عقائدياً ونفسياً واجتماعياً «علوماً سمعية»؛ لأنها جاءت بالسماع عن طريق الوحي، والنوع الذي يتعلق بجسده وعقله كالطب والهندسة والرياضيات والفلك يسميها «علوماً عقلية»، وكلا

---

(١) سورة الحجر، الآية [٩].

(٢) انظر: محمد الخرعان، العلم أصوله ومصادره ص ٤٢، وانظر: مبارك الشريف، مفهوم العلم ومصادر المعرفة ص١١-١٢.

النوعين علوماً شرعية فيقول: «فإن الشرعيات ما أخبر الشارع بها وما دل الشارع عليها، وما دل الشارع عليها ينتظم ما يحتاج إلى علمه بالعقل وجميع الأدلة والبراهين وأصول الدين مسائل الاعتقاد... وعلى هذا فتكون العلوم الشرعية قسمين: عقلية وسمعية، وقد تبين بهذا أن كل علم عقلي أمر الشرع به أو دل الشرع عليه فهو شرعي أيضاً»[١].

وابن كثير رحمه الله يؤكد ما قرره علماء السلف من أن الوحي هو المصدر الأول للحقائق والعلوم والمعارف والتشريعات، لأن أخباره صادقة وأحكامه عادله، فقد «أمر بكل خير ونهي عن كل شر كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[٢] أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام»[٣].

وكذلك الكون هو مصدر للمعرفة عند ابن كثير فقد ذكر رحمه الله أن الله امتن على عباده بأن أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة فقال عند تفسير الآية: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٤]، «ذكر منّته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا

---

(١) الفتاوى لابن تيمية ١٩/٢٣٢-٢٣٣، وانظر: الفكر التربوي عند ابن تيمية لماجد عرسان الكيلاني ص١١٩-١٢٠، طبعة مكتبة دار التراث المدينة المنورة ط٢ ١٣٠٧هـ.

(٢) سورة الأنعام، الآية [١١٥].

(٣) التفسير ١/٧٩-٨٠.

(٤) سورة النحل، الآية [٧٨].

يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات والأبصار التي بها يحسون المرئيات والأفئدة وهي العقول.... والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً، وكلما كبر زيد في سمعه وبصره وقوي عقله حتى يبلغ أشده»[(١)]، وقد أرشد الله سبحانه وتعالى أن يستفاد من هذه الحواس في تحصيل العلم والمعرفة وأن تستخدم في طاعة الله وعبادته، يقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[(٢)]، «أي: ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون، أي ما أقل ما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره»[(٣)].

كما أشار ابن كثير أن هذه الحقائق والمدركات التي في الكون هي مما يضرب الله به الأمثال على قدرته ووحدانيته، فيقول رحمه عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[(٤)]، «يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في انخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها

(١) التفسير ٢/٧١٥.

(٢) سورة الملك، الآية [٢٣].

(٣) المرجع نفسه ٤/٤٧١.

(٤) سورة البقرة، الآية [١٦٤].

ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة.... و تارة يطول ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان... ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: في تسخيره البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ونقل هذا إلى هؤلاء عند أولئك إلى هؤلاء... ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها... ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: فتارة تأتي بالرحمة... وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه وتارة تجمعه وتارة تفرقه وتارة تصرفه.... ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله»[1].

وكذلك في استدلاله بالحس في رده على منكري البعث وأن هذه المشاهد من عظيم قدرته، فقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[2]، «وهي الأرض التي كانت هامدة فلمّا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث»[3].

---

(١) التفسير ١/٢٥٠-٢٥١.

(٢) سورة ق، الآية [١١].

(٣) المرجع نفسه ٤/٢٦٢.

وكذلك لفت النظر إلى ما هو مشاهد بالحس فقال عند تفسير الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[1]، «أي: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذي يخرج به من الزرع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء»[2].

كما بين رحمه الله أن ما يعرفه الإنسان عن طريق المشاهدة والمعاينة للمحسوس أبلغ تأثيراً من الذي يعرفه عن طريق الخبر، فقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾[3]، «وفي هذه دلالة على ما جاء في الحديث ليس الخبر كالمعاينة.... قال النبي ﷺ: **(يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فُتِنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح)**»[4].

وكذلك علم التجربة علم زائد على العلوم بل هو أقوى في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة، وقد أشار إلى ذلك ابن حجر، في شرح حديث الإسراء

---

(١) سورة غافر، الآية [١٣].

(٢) التفسير ٤/٨٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية [١٥٠].

(٤) التفسير ٢/٣١٣، والحديث أخرجه ابن حبان، كتاب التاريخ، باب بدأ الخلق رقم (٦٢١٤)، انظر: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٤/٩٧ طبعة مؤسسة الرسالة ط٢، ١٤١٤هـ، والحاكم في مستدركه ٢/٣٨٠، طبعة دار المعرفة بيروت بدون تاريخ.

والمعراج وقد جاء فيه أن موسى عليه السلام قال لنبينا محمد ﷺ بعد ما فرضت عليه الصلاة خمسين صلاة كل يوم فقال موسى: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة.... الحديث[١]، فقال ابن حجر رحمه الله: «وفيه أن التجربة أقوى في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة»[٢].

وكذلك الإمام ابن أبي جمره[٣] رحمه الله قال تعليقاً على هذا الحديث: «فيه دليل على أن علم التجربة علم زائد على العلوم، ولا يقدر على تحصيلها بكثرة العلوم، ولا يكتسب إلا بها أعني التجربة؛ لأن النبي ﷺ هو أعلم الناس وأفضلهم سيما الآن الذي هو قريب عهد بالكلام مع ربه عز وجل ووارد من موضع لم يطأه ملَكَ مقرب ولا نبي مرسل، ثم مع هذا التفضيل العظيم قال له موسى أنا أعلم بالناس منك ثم أعطاه العلة التي لأجلها كان أعلم منه بقوله: «عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة» فأخبره أنه أعلم في هذا العلم الخاص الذي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، رقم الحديث (٣٨٨٧).

(٢) فتح الباري لابن حجر ٢١٨/٧.

(٣) هو محمد بن أحمد بن عبد الملك ابن أبي جمرة الأموي بالولاء، أبو بكر فقيه مالكي، من أعيان الأندلس ولد بمرسيه وتفقه وولي خطة الشورى إرثاً عن آبائه وهو في نحو الحادية والعشرين، وتقلد قضاء مرسيه وبلنسية وشافية في مدد مختلفة، من كتبه: "نتائج الأفكار ومناهج النظار في معاني الآثار"، و"إقليد التقليد"، وغيرها. توفي سنة ٥٥٩هـ. الأعلام ٣١٩/٥.

لا يؤخذ ولا يدرك إلا بالمباشرة وهي التجربة»[١].

وقد نبه ابن كثير رحمه الله على أنه يمكن التوصل للأمور المعنوية عن طريق الأمور الحسية فقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢]، «لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية نبه على الطريق الدينية المعنوية وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة»[٣].

وابن كثير رحمه الله ينعى على الذين يكابرون المحسوسات ويرد عليهم ويبين خطأهم فيقول عند تفسير الآية: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٤]، «يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾[٥]»[٦]، وقال عند تفسير الآية: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ

---

(١) بهجة النفوس لابن أبي جمرة ٢١٦/٣، وانظر: الدروس الدعوية المتعلقة بالصلاة من خلال حادثة الإسراء والمعراج، د. سليمان الحبس ص٣٤٣-٣٤٤، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد ٥٢ شوال ١٤٢٦هـ.

(٢) سورة النحل، الآية [٩].

(٣) التفسير ٦٩٦/٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية [٧].

(٥) سورة الحجر، الآية [١٤].

(٦) التفسير ١٦١/٢.

ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[١]، «يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس»[٢]. وأحياناً نجد أن ابن كثير يجمع بين الوحي والكون كمصدرين للمعرفة فيقول عند تفسير الآية: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[٣]، «أي: واحدة فوق واحدة وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس مما علم من التسيير والكسوفات فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضاً»[٤].

إلى غير ذلك مما عرضه ابن كثير وأشار إليه من المنهج الحسي مما هو جدير بالدعاة إلى استخدامه والاستفادة منه في الدعوة إلى الله، وذلك بدعوة العلماء والمتخصصين في العلوم التطبيقية التجريبية، ويعين في ذلك الاستدلال بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة مع ملاحظة ضرورة عدم التوسع في استخدام النصوص الشرعية لتأييد النظريات العلمية والفرضيات، ويكتفى بالاستشهاد بها على الحقائق العلمية الثابتة بأسلوب مناسب.

وكذلك يستخدم المنهج الحسي في دعوة المتجاهلين للسنن الكونية والمنكرين للبديهيات العقلية، فإن المعاندين لا تفيد معهم إلا الحقائق المعتمدة على الملموسات والمحسوسات، وعلى هذا الأساس جاءت كثير من معجزات

---

(١) سورة الطور، الآية [٤٤].

(٢) المرجع نفسه ٤/٢٨٨.

(٣) سورة نوح، الآية [١٥].

(٤) المرجع نفسه ٤/٥٠٢.

الأنبياء والرسل عليهم السلام مادية محسوسة إضافة إلى ذلك فيستخدم المنهج الحسي في تعليم الأمور التطبيقية العملية والدعوة إليها وكلما كان الأمر المدعو إليه دقيقاً ومهماً، كانت الحاجة إليه أشد كما فعل ﷺ في تعليم الوضوء والصلاة والحج وغير ذلك[١].

ثانياً: الأدلة الشرعية «الوحي»:

تعريف الوحي لغة واصطلاحاً:

الوحي لغة: الإعلام الخفي السريع[٢].

واصطلاحاً: إعلام الله لنبي من أنبياءه بشرعه ودينه[٣].

والوحي يشمل القرآن والسنة[٤].

والوحي مصدر لاكتساب المعرفة يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٦].

---

(١) انظر: محمد أبو الفتح الباتوني، المدخل إلى علم الدعوة ص ٢١٧، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

(٢) انظر: الجوهري الصحاح، مادة وحي.

(٣) انظر: ابن حجر العسقلاني فتح الباري ٩/١.

(٤) وقد سبق تعريفهما ص١١٠، ص ١١١.

(٥) سورة الشورى، الآية [٥٢].

(٦) سورة النحل، الآية [٨٩].

يقول ابن كثير في تفسير الآية: «فإن القرآن اشتمل على كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم»[١]، فعلماء السلف — ومنهم ابن كثير — يقررون أن الوحي مصدر أساس للحصول على المعرفة وأن المعرفة المكتسبة عن طريق الوحي هي معرفة يقينية مطلقة سواء كانت أخباراً أو حقائق غيبية أو في سنن الكون وهذا بخلاف الكتب السماوية المحرفة.

يقول الإمام ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[٢]، أي حاكماً على ما قبله من الكتب... فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٣]»[٤].

وكذلك السنة فهي وحي مثل القرآن «تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن»[٥]، وقد سبق أن استعرضنا موقف ابن كثير من

---

(١) التفسير ٢/٧١٩.

(٢) سورة المائدة، الآية [٤٨].

(٣) سورة الحجر، الآية [٩].

(٤) التفسير ٢/٨٦.

(٥) المرجع نفسه ١/١٠.

الوحي كمصدر أساس للحقائق و المعارف والتشريعات وتقديمه على ما سواه في الفصل السابق فيمكن الرجوع إليه[١].

فابن كثير رحمه الله يعتبر طرق العلم ومصادر المعرفة هي الحس والعقل "الكون" والخبر "الوحي" وهو ما قرره شيخه ابن تيمية رحمه الله فقال: «طرق العلم ثلاثة: الحس والعقل والمركب منهما كالخبر، فمن الأمور ما لا يمكن علمه إلا بالخبر، كما يعلمه كل شخص بأخبار الصادقين كالخبر المتواتر، وما يعلم بخبر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وهذا التقسيم يجب الإقرار به، وقد قامت الأدلة اليقينية على نبوَّات الأنبياء وأنهم يعلمون بالخبر ما لا يُعلم إلا بالخبر، وكذلك يُعلِّمون غيرهم بخبرهم ويمتنع أن يقوم دليل صحيح على أن كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون الخبر، ولهذا كان أكمل الأمم علما المُقِرُّون بالطرق الحسية والعقلية والخبرية، فمن كذّب بطريقة منها فاته من العلوم بحسب ما كذَّب به من تلك الطرق»[٢].

---

(١) انظر: ص ١٠٩ من هذا الكتاب.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/١٧٨.

الفصل الثالث

الاحتجاج باللغة العربية

منهج دعوي لدى ابن كثير

ويحتوي ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مكانة اللغة العربية من الدين.

المبحث الثاني: اعتماد ابن كثير اللغة العربية في تفسيره القرآن الكريم.

المبحث الثالث: عناية ابن كثير بالمصطلحات.

المبحث الأول

مكانة اللغة العربية من الدين

تعريف كلمة لغة:

اللغة: مشتقة من لغا يلغو إذا تكلم، فمعناها الكلام فهذا تعريفها في اللغة[1].

وأما في الاصطلاح: فقد عُرِّفت بتعريفات من أشهرها ما ذكره ابن جني[2] في كتابه الخصائص فقال: «حد اللغة أصوات يُعّبر بها كل قوم عن أغراضهم»[3]، وعرفها ابن الحاجب بأنها «كل لفظ وضع لمعنى»[4]، وعرفها البعض بأنها: «نظام من الرموز الصوتية، أو مجموعة من الصور تختزن في أذهان أفراد في الجماعة اللغوية، تستخدم للتفاهم بين أبناء مجتمع معين»[5].

---

(١) لسان العرب ١٥/٢٥١.

(٢) هو عثمان بن جني الموصلي، أبو الفتح من أئمة الأدب والنحو، وله شعر، ولد بالموصل وتوفي ببغداد، عن نحو ٦٥ عاماً، وكان أبوه مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي، من تصانيفه رسالة في من نسب إلى أمه من الشعراء، وشرح ديوان المتنبي والخصائص، واللمع وغيرها. توفي سنة ٣٩٢هـ. (الأعلام ٤/٢٠٤).

(٣) الخصائص ١/٨٧.

(٤) بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب لأبي الثناء الأصفهاني ١/١٥٠.

(٥) علم اللغة، د. حاتم الضامن ص ٣٢، وانظر: محمد إبراهيم الحمد، فقه اللغة ص ١٨-١٩ مطبعة دار ابن خزيمة، ط١ ١٤٢٦هـ.

أصل نشأة اللغة وأشهر النظريات في ذلك:

هناك عدة نظريات في أصل نشأة اللغة:

النظرية الأولى: نظرية التوقيف والإلهام، فأصحاب النظرية يرون أن اللغة الإنسانية إلهام ووحي من الله عز وجل، ولا دخل للإنسان في وضعها فهي توقيفية لا مجال للاجتهاد فيها، وممن يرى هذا الرأي ابن فارس، حيث يقول: «إن لغة العرب توقيف ودليل ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[1]»[2].

النظرية الثانية: نظرية التواضع والاصطلاح، فاللغة مواضعة واتفاق بين الناس بحيث يصطلحون على كذا وكذا من الألفاظ، وممن يقول بهذا أبوهاشم الجبائي[3] كما حكاه عنه ابن تيمية[4].

النظرية الثالثة: نظرية المحاكاة والتقليد فيرون أصحاب هذه النظرية أن منشأ اللغة بدأت محاكاة للأصوات الطبيعية وتقليداً للأصوات المسموعة من الحيوانات

---

(١) سورة البقرة، الآية [٣١].

(٢) الصاحبي ص١٣.

(٣) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب أبو هاشم الجبائي المعتزلي، من أبناء أبان مولى عثمان، عالم بالكلام، من كبار المعتزلة، له آراء وانفراد بها وتبعته فرقة سميت البهشمية نسبة إلى كنيته أبي هاشم، وله مصنفات منها: "الشامل"، و"تذكرة العالم"، و"العدة في أصول الفقه"، توفي سنة ٣٢١هـ (الأعلام ٤/٧).

(٤) الفتاوى ٦٢/٧.

والأشجار وصوت الرعد وغيره، يقول ابن جني: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا وجه صالح ومذهب متقبل»[١].

والنظرية الرابعة: هي نظرية الغريزة الكلامية، وهذه النظرية ترى أن الإنسان مزوّد بغريزة خاصة كانت تحمل كل إنسان على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة، ولذلك اتحدت المفردات والتعابير عند الإنسان الأول وأنه بعد نشأة اللغة لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة فانقرضت[٢].

وحاول البعض التوفيق بين القول بالإلهام والقول بالاصطلاح والمواضعة كالقاضي أبو بكر بن الباقلاني[٣] كما نقله السيوطي عنه في المزهر: «وقال القاضي أبو بكر يجوز أن يثبت توقيفاً ويجوز أن يثبت اصطلاحاً ويجوز أن يثبت بعضه توقيفاً وبعضه اصطلاحاً والكل ممكن»[٤].

---

(١) الخصائص ١/٩٨-٩٩، انظر: أيضاً محمد الحمد فقه اللغه ص ٥٦-٦٢، مرجع سابق

(٢) انظر المرجع نفسه، ٦٢-٦٣.

(٣) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو الطيب الباقلاني، قاض، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، كان جيد الاستنباط سريع الجواب، وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم فجرت له في القسطنطنية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها، من كتبه: "إعجاز القرآن"، و"الأصناف"، و"مناقب الأئمة"، و"دقائق الكلام"، وغيرها، توفي سنة ٤٠٣هـ (الأعلام ٦/١٧٦).

(٤) المزهر ١/٢٠، وانظر المرجع نفسه ص ٦٤.

وعلى كل حال فكل منهما يحتمل شيئاً من الصواب ويتوجه إليه اعتراض، فلو جمعنا النظريات وأخذنا الجانب الإيجابي من كل منها دون إغفال لنظرية أخرى لربما أمكن الوصول إلى تصور أفضل، فالله سبحانه علم آدم الأسماء كما وهب الإنسان قدرة على التعبير عما في نفسه، فذلك الجهاز المسمى بجهاز النطق، وذلك العقل المدبر المحرك للإنسان قادران على التعبير فما يستجد من أمور، إما عن طريق التقليد والمحاكاة كما هو الحال عند الأطفال، وإما عن طريق الاصطلاح كما يحدث كلما جد جديد في الحياة وضع له الاصطلاح المناسب وبهذا يمكن الجمع بين النظريات في تصور نشأة اللغة[1].

فضل اللغة العربية:

اللغة العربية لها فضل وتميز على غيرها من اللغات وذلك من جهة اعتدال كلماتها، حيث إن أكثر ألفاظها وُضِع على ثلاثة أحرف، وأقل من ذلك ما وضع على أربعة أحرف، وأقل من الرباعي ما وضع على خمسة أحرف، ولا يوجد فيها كلمة ذات ستة أحرف أصلية، كما أن لها فضل من جهة فصاحة مفرداتها وجمالها وحسنها فليس في كلماتها الجارية في الاستعمال ما يثقل على اللسان أو ينبو عنه السمع، ويمكن أن تصاغ من مفرداتها خطباً تسترق الأسماع وتسحر الألباب، وكذلك فاللغة العربية أقرب سائر اللغات إلى قواعد المنطق فعباراتها سلسة طبيعية يسهل على الإنسان أن يعبر فيها عما يريده دون تصنع

---

(١) انظر: فقه اللغة ٦٤-٦٥، مرجع سابق.

أو تكلف، ثم إن تعدد أساليبها مما يشهد بارتقائها وسعة نمائها في البيان إلى غير ذلك من الصفات التي تجعل اللغة العربية تختلف عن غيرها من اللغات وتتميز عليها[١].

أثر الإسلام على اللغة العربية:

لقد كان للإسلام أثر كبير على اللغة العربية لا سيما ما جاء في الوحي المنزل من القرآن والسنة من الفصاحة والبلاغة، فلقد كان لذلك تأثير كبير في نهضة اللغة العربية وارتقاء مستواها وسمو منزلتها، ولقد وصف هذا الأثر ابن فارس في كتابه الصاحبي حيث قال: «كانت العربية في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائهم وقرابينهم، فلما جاء الله – جل ثناؤه – بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أُخر بزيادات زِيْدت، وشرائع شُرِعت، وشرائط شُرِطت، فعفى الآخر الأول، وشغل القوم بعد المغاورات والتجارات وتطلّب الأرباح والكدح للمعاش في حالة الشتاء والصيف، وبعد الإغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة، بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وبالتفقه في دين الله – عز وجل – وحفظ سنة رسول الله ﷺ، مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الإسلام، فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشأوا عليه كأن لم يكن، وحتى تكلموا في دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دُوِّن

(١) انظر المرجع نفسه ص١٣٣-١٣٤.

وحُفظ حتى الآن فصاروا بعد ما ذكرنا – إلى أن يُسأل إمام من الأئمة وهو يخطب على منبره على فريضة فيفتي ويحسب بثلاث كلمات... فسبحان من نقل أولئك في الزمن القريب بتوفيقه عما أَلِفوه ونُشِّئوا عليه وغُذُّوا به إلى مثل هذا الذي ذكرناه، وكل ذلك دليل على حق الإيمان وصحة نبوة نبينا محمد ﷺ، فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان هو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً، وكذلك الإسلام والمسلم إنما عرفت منه إسلام الشيء، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والسَّتر، ومما جاء في الشرع الصلاة وأصلها في لغتهم الدعاء، وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود، وإن لم يكن على هذه الهيئة فقالوا:

أوْ دُرةٍ صدفية غوّاصها بَهِج متى يرها يهل ويسْجدُ [1]

وكذا الصيام أصله عندهم الإمساك ويقول شاعرهم:

خيلٌ صيام وأخرى غير صائمة تحت العجاج وخيل تعلك اللُجما [2]

ثم زادت الشريعة النية وحظرت الأكل والمباشرة، وغير ذلك من شرائع الصوم، وكذلك الحج لم يكن عندهم فيه غير القصد وسَبْر الجراح من ذلك قولهم:

---

(١) القائل هو النابغة الذبياني.

(٢) البيت لخلف الأحمر وقيل للنابغة الذبياني، انظر: المزهر للسيوطي ١/ ١٣٩.

وأشهد من عوف حلولاً كثيرة يَحجُّون سِبَّ الزَّبرقان المُزعفرا[١]

ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره، وكذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها إلا من ناحية النماء وزاد الشرع ما زاده فيها مما لا وجه لإطالة الباب بذكره، وعلى هذا سائر ما تركناه من العمرة والجهاد وسائر أبواب الفقه، كل ذلك له اسمان لغوي وصناعي»[٢].

وهكذا فالإسلام خطا بالعربية خطوات كبيرة بعد أن كانت محصورة في مكان محدد، فعمَّت البلاد الإسلامية كلها، وأثبتت – باستيعابها لكتاب الله أولاً ثم بنقلها لكل العلوم العربية وغير العربية ثانياً – أنها لغة حية قادرة على مسايرة الحياة وليست لغة عقيمة جافة كما يصورها من يجهل اللغة العربية وقيمتها ومنزلتها[٣].

مكانة اللغة من الدين:

لا شك أن اللغة العربية هي الوسيلة لفهم القرآن والسنة لذا فإن سبب ضلال من ضل من الأمة بسبب الجهل بدلالة ألفاظ القرآن الكريم؛ وذلك نتيجة لعدم العلم بالعربية التي هي لغة القرآن والسنة، «فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله ﷺ على ما يدَّعون أنه دال عليه ولا يكون الأمر كذلك»[٤].

---

(١) القائل هو المخبل السعدي ربيع بن مالك. انظر ترجمته في الأعلام ٣ / ١٥.

(٢) الصاحبي ص ٤٤-٤٦، وانظر المرجع نفسه ١٢٩-١٣٢.

(٣) انظر المرجع نفسه ١٢٩.

(٤) الفتاوى لابن تيمية ١١٦/٧، وانظر: منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله، د. عبد الله الحوشاني ص ٥٤/١، طبعة دار اشبيليا، ط١ ١٤١٧هـ.

فأهمية اللغة العربية ومكانتها في الدين تكمن في أن علوم الشريعة لها ارتباط وثيق بالعربية، فلا غنى لعلم من علوم الشريعة عنها، «فصارت معرفة اللسان العربي من العربية؛ لأن معرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني»[١].

يقول الزمخشري مبيناً أهمية اللغة العربية وارتباط العلوم الشرعية بها: «وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقَهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بَيِّن لا يدفع ومكشوف لا يُتَقَنَّع، ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنياً على علم الإعراب والتفاسير مشحونة بالرواية عن سيبويه[٢] والأخفش[٣]

---

(١) الفتاوى لابن تيمية ١١٦/٧، وانظر: اقتصاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٢٠٤.

(٢) هو عمر بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر الملقب بسيبويه، إمام النحاة وأول من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه، وصنف كتابه المسمى كتاب سيبويه لم يصنع قبله ولا بعده مثله، ورحل إلى بغداد فناظر الكسائي وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم، وعاد إلى الأهواز فتوفي بها سنة ١٨٠هـ (الأعلام ٨١/٥).

(٣) هو عبد الحميد بن عبد المجيد مولى قيس بن ثعلبة، أبو الخطاب الأخفش، من كبار العلماء بالعربية لقي الأعراب وأخذ عنهم، وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت وما كان الناس يعرفون ذلك قبله، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها، توفي سنة ١٧٧هـ (الأعلام ٢٨٨/٣).

والكسائي[١] والفرّاء[٢] وغيرهم من النحويين البصريين والاستظهار في مآخذ النصوص بأقاويلهم والتشبث بأهداب فَسْرهم وتأويلهم، وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاولاتهم وتدريسهم ومناظرتهم وبه تقطر في القراطيس أقلامهم وبه تسطّر الصكوك والسجلات حكامهم فهم ملتبسون بالعربية أيةً سلكوا غير منفكين عنها أينما وجهوا كل عليها حيث سَيَّروا»[٣].

(١) هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي، إمام في اللغة والنحو والقراءة، من أهل الكوفة، ولد في إحدى قراها وتعلم بها وقرأ النحو بعد الكبر، وتنقل في البادية وسكن بغداد وتوفي بالري عن سبعين عاماً سنة ١٨٩هـ، وهو مُؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين، له تصانيف منها: "معاني القرآن"، و"المصادر والحروف"، و"القراءات والنوادر"، وغيرها. (الأعلام ٤/٢٨٣).

(٢) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، كان يقال الفراء أمير المؤمنين في النحو، ولد بالكوفة وانتقل إلى بغداد وعهد إليه المأمون بتربية ابنيه فكان أكثر مقامه بها، توفي في طريق مكة سنة ٢٠٧هـ، من كتبه: "المقصود والمحدود"، و"معاني القرآن"، و"اللغات"، و"المذكر والمؤنث"، وغيرها. (الأعلام ٨/١٤٦).

(٣) المفصل للزمخشري ص٣، وانظر فقه اللغة لمحمد الحمد ص ٢٩-٣٠ مرجع سابق.

المبحث الثاني
اعتماد ابن كثير اللغة العربية
في تفسيره القرآن الكريم

توطئة:

نزل القرآن الكريم بلغة العرب كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣]، وغيرها من الآيات التي تدل على أن القرآن نزل بلغة العرب على نبي من العرب وهو محمد ﷺ، ولذلك تعتبر اللغة العربية من أهم مصادر تفسير القرآن الكريم، والصحابة رضوان الله عليهم يرجعون إلى اللغة العربية في معرفة معاني القرآن وتفسيره ويستشهدون بأشعار العرب وأقوالهم، فالشعر ديوان العرب كما يقول ابن عباس: «الشعر ديوان العرب فإذا خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله

---

(١) سورة يوسف، الآية [٢].

(٢) سورة فصلت، الآية [٣].

(٣) سورة الزخرف، الآية [٣].

الله بلغتهم رجعوا إلى ديوانهم فالتمسوا معرفة ذلك»[١]، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «ما كنت أدري ما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[٢]، حتى سمعت ابنة ذي يزن الحميري[٣] وهي تقول أفاتحك يعني أقاضيك»، وقال أيضاً: «ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها ابتدأتها»[٤].

بل إن السلف رحمهم الله شددوا في منع من ليس له علم بلغة العرب أن يفسر القرآن كما قال الإمام مالك رحمه الله: «لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً»، وعن مجاهد قال: «لا يحل لأحد

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٩٤/١ مرجع سابق.

(٢) سورة الأعراف، الآية [٨٩].

(٣) هو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو ابن قيس بن حمير ابن سبأ ويكنى أبا مرة، وقد خرج إلى ملك بصرى ملك الروم وشكا له ما هم فيه من أمر الحبشة وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم هو يخرج إليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن فلم يشكه، فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر عامل كسرى على الحيرة فأدخله على كسرى فبعث معه كسرى جيشاً، وحملت الفرس على الحبشة فهزمتهم وقتلوا وهربوا في كل وجه، ووفدت العرب من الحجاز على سيف يهنئونه بعودة الملك إليه (البداية والنهاية ١٥٨/٣-١٦١).

(٤) البرهان ٢٩٣/١.

يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب»[١] ، وقال الزركشي في كلامه عن معرفة غريب القرآن: «وهذا الباب عظيم خطير ومن هنا تهيّب كثير من السلف تفسير القرآن وتركوا القول فيه حذراً أن يَزِلُّوا فيذهبوا عن المراد وإن كانوا علماء في اللسان فقهاء في الدين وكان الأصمعي وهو إمام اللغة لا يفسر شيئاً من غريب القرآن»[٢] ، وقال الزركشي أيضاً: «واعلم أنه ليس لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله ولا يكفي في حقه تعلم اليسير فيها فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر»[٣].

وغالب العلوم التي يحتاج إليها المفسر ترجع إلى اللغة العربية كمعرفة اللغة والنحو والتصريف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع وعلم القراءات وغيرها[٤].

فلأهمية اللغة العربية في تفسير القرآن ومعرفة معانيه نجد أن الإمام ابن كثير رحمه الله اعتمد عليها في تفسير القرآن اعتماداً كبيراً وأولاها عناية تامة، وهذا ما سنتطرق إليه في هذا المبحث من خلال المطالب التالية:

---

(١) البرهان ١/٢٩٢.

(٢) المرجع نفسه١/٢٩٥.

(٣) المرجع نفسه ص ١/٢٩٢، وانظر اللاحم، منهج ابن كثير ص ٣٦٧-٣٧٢ مرجع سابق.

(٤) انظر السيوطي الإتقان ٢/١٨٠-١٨١.

المطلب الأول

رجوع ابن كثير إلى اللغة واحتكامه إليها

ويتمثل ذلك في:

(أ) الاستشهاد بكلام العرب شعراً ونثراً:

أما الاستشهاد بما ورد عن العرب من الشعر فهو كثير[١] من ذلك مثلاً قوله: «وأما الآية من العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها أي هي بائنة عن أختها ومنفردة قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾[٢] وقال النابغة[٣]:

توهمت آيات لها فعرفتها لِستّة أعوام وذا العام سابع[٤]

---

(١) انظر مثلاً ١/١٧، ١/٢٥، ١/٣٠، ١/٥٥، ١/٥٦، ١/٥٩، ١/٦٤، ١/٧١، ١/٧٣، ١/٨٤، ١/٨٧، ١/٨٨، ١/١١٣، ١/١٦٧، ١/٢٠٢، ١/٢٨٤، ١/٢٨٥، ١/٣٣٥، ١/٣٦٣، ١/٣٦٤، وهذا فقط في سورتي الفاتحة والبقرة.

(٢) سورة البقرة، جزء من الآية [٢٤٨].

(٣) هو زياد بن معاوية بن ضباب الغطفاني المصري، أبو أمامة، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وكان أبو عمرو بن العلاء يفضله على سائر الشعراء، وكان أحسن شعراء العرب ديباجة لا تكلف في شعره ولا حشو وعاش عمراً طويلاً ومات سنة ١٨ قبل الهجرة. الأعلام ٣/٥٤، ٥٥.

(٤) التفسير ١/١٦.

وقال عند تفسير الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]، «وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء قال الأعشى[2]:

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها وإن ذبحت صلى عليها وزمزما[3]

وعند تفسير الآية: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[4]، قال: «اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، بعد الاجتماع على استحالة كونها للشك فقال بعضهم: أو هاهنا بمعنى الواو تقديره كالحجارة أو أشد قسوة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، من الآية [٣].

(٢) هو ميمون بن قيس بن جندل من بني قيس من ثعلبة الوائلي، أبو بصير المعروف بأعشى قيس، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، وكان يغني بشعره فسمي صناجة العرب، عاش طويلاً وأدرك الإسلام ولم يسلم، ولقب بالأعشي لضعف بصره وعمي في آخر عمره، مولده ووفاته في قرية منفوحة باليمامة سنة ٧هـ. الأعلام ٣٤١/٧.

(٣) التفسير ٥٩/١، ومعنى ذبحت استعارة لشب الإناء، والجامع هو سيلان الخمر من الدن كسيلان دم الذبيحة، صلى عليها يقصد أنه امتدح جودتها، زمزم استعارة قصد بها الإشارة إلى صوت العلوج حين يديرون الكلام في خياشيمهم دون اللسان فلا يفهمه سواهم، ديوان الأعشى، شرحه وضبط نصوصه عمر فاروق الطباع ص ٢١٧، طبعة دار القلم بيروت ١٣٩٣هـ.

(٤) سورة البقرة، من الآية [٧٤].

(٥) سورة الإنسان، الآية [٢٤].

وقال ابن جرير: وقال جرير[١] بن عطية:

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

قال ابن جرير يعني نال الخلافة وكانت له قدراً»[٢].

وعند تفسير الآية: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[٣]، قال: «ضربوا في الأرض... ويقال لمن طوّف في البلاد نقب فيها قال امرؤ القيس[٤]:

لقد نقبت في الأرض حتى رضيت من الغنيمة بالإياب»[٥]

---

(١) هو جرير بن عطيه بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي من تميم أشعر أهل عصره ولد ومات في اليمامة، وعاش عمره كله يناضل شعراء زمانه ويساجلهم وكان هجاءاً مراً فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان عفيفا وقد جمعت نقائضه مع الفرزدق وديوان شعره وأخباره مع الشعراء وغيرهم كثيرة جدا مات سنة ١١٠هـ. الأعلام ١١٩/٢.

(٢) التفسير ١٤٤/١-١٤٥.

(٣) سورة ق آية ٣٦.

(٤) هو امرئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي من بني آكل المرار أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل، مولده بنجد اشتهر بلقبه، وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب فبلغ بذلك أباه فنهاه عن سيرته فلم ينته فأبعده إلى حضرموت وهو في نحو العشرين من عمره فأقام زهاء خمس سنين إلى أن ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه، فبلغ ذلك امرئ القيس وهو جالس للشراب فقال رحم الله أبي ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً لاصحو اليوم ولا سكر غدا. اليوم خمر وغدا أمر، ونهض من غده فلم يزل حتى ثأر لأبيه من بني أسد مات سنة ٨٠ قبل الهجرة. الأعلام ١١/٢.

(٥) التفسير ٢٦٩/٤.

وأما استشهاد ابن كثير بالنثر فمن أمثلته:

ما جاء عند تفسير الآية: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[١]، «والفاسق في اللغة الخارج عن الطاعة... وتقول العرب فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها ولهذا يقال للفأرة الفويسقة لخروجها من جحرها للفساد»[٢].

وعند تفسير الآية: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾[٣]، قال: «واليتامى هم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء، وقال أهل اللغة: اليتيم في بني آدم من الآباء ومن البهائم من الأم»[٤].

وعند تفسير الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٥]، قال: «قال ابن جرير: والعرب تسمي اليقين ظناً و الشك ظناً نظير تسميتهم الظلمة سُدْفةً والضياء سُدْفَةً. والمغيث صارخاً والمستغيث صارخاً وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده»[٦].

---

(١) سورة البقرة، الآية [٢٦].

(٢) التفسير ١/٨٦.

(٣) سورة البقرة، الآية [٨٣].

(٤) التفسير ١/١٥١.

(٥) سورة البقرة، الآية [٤٦].

(٦) التفسير ١/١١٣.

وعند تفسير الآية: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[١]، قال: «قيل تأكيد كما تقول العرب رأيت بعيني وسمعت بأذني وكتبت بيدي»[٢]، وعند تفسير الآية: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾[٣]، قال: «والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة أي منطوحة وأكثر ما ترد هذه البنية في كلام العرب بدون تاء تأنيث فيقولون: كف خضيب وعين كحيل، ولا يقولون: كف خضيبة ولا عين كحيلة وأما هذه فقال بعض النحاة إنما استعمل فيها تاء التأنيث لأنها أجريت مجرى الأسماء كما في قولهم: طريقة طويلة وقال بعضهم إنما أُتي بتاء التأنيث فيها لتدل على التأنيث من أول وهلة بخلاف (عين كحيل، وكف خضيب) لأن التأنيث مستفاد من الكلام»[٤].

وأخيراً عند تفسير الآية: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[٥]، قال: «وأهل اللغة يقولون النوص التأخر والبوص التقدم ولهذا قال تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب»[٦].

---

(١) سورة البقرة، الآية [١٩٦].

(٢) التفسير ١/٢٩٢.

(٣) سورة المائدة، الآية [٣].

(٤) التفسير ٢/١٦.

(٥) سورة ص، الآية [٣].

(٦) المرجع نفسه ٤/٣٣، وانظر للاستزادة: ١/٣٣، ١/١٧، ١/٢٩، ١/١٤٤، ١/١٥٣، ٢/٤، ٢/٦٠١، ٣/٣٩٩، ٣/٤٢٥، ٣/٤٩١، ٣/٧، ٤/٢٦٩، ٤/٣٤٥، ٤/٥٤٦.

(ب) ذكر أقوال أهل اللغة والاستشهاد بها :

كالجوهري والزجاج[١] وسيبويه والفراء والأصمعي والخليل[٢] وغيرهم فمن أمثلة ذلك :

ما جاء عند تفسير الآية : ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾[٣] ، قال ابن كثير: «والجلباب هو الرداء فوق الخمار... قال الجوهري : الجلباب الملحفة قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً لها :

تمشي النسورُ إليه وَهْيَ لاهيةٌ مَشيَ العذارى عليهنَّ الجلابيبُ»[٤]

---

(١) هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج عالم بالنحو واللغة ، ولد ومات في بغداد ، كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد ، وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مؤدبا لابنه القاسم فدله المبرد على الزجاج فطلبه الوزير فأدب له ابنه إلى أن ولي الوزارة مكان أبيه فجعله القاسم من كتابه فأصاب في أيامه ثروة كبيرة ، توفي سنة ٣١١هـ. الأعلام ١/ ٤٠.

(٢) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي ، أبو عبد الرحمن من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض ، أخذه من الموسيقى وكان عارفا بها وهو أستاذ سيبويه في النحو ، ولد ومات في البصرة ، وعاش فقيرا صابرا كان شعث الرأس شاحب اللون مغمورا في الناس لا يعرف ، له كتاب العين في اللغة ومعاني الحروف والعروض وغيرها توفي سنة ١٧٠هـ. الأعلام ٢/ ٣١٤.

(٣) سورة الاحزاب ، الآية [٥٩].

(٤) التفسير ٣/ ٦٣٧.

وعند تفسير الآية: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[١]، قال الفراء معناه مال عليهم ضرباً باليمين، وقال قتادة والجوهري فأقبل عليهم ضرباً باليمين»[٢].

وعند تفسير الآية: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[٣]، قال: «وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ، قال الفراء: سمعت العرب تقول جبر فلان فلاناً على كذا بمعنى أجبره»[٤].

وعند تفسير الآية: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾[٥]، «أي من السحاب.... وقال الفراء: هي السَحاب التي تتحلب بالمطر ولم تمطر بعد، كما يقال: امرأة معصر إذا دنا حيضها ولم تحض»[٦].

وعند تفسير الآية: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[٧]، «أي سبحي معه... وقال أبوالقاسم ابن إسحاق الزجاجي في كتابه الجمل في باب النداء منه ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أي: سيري معه بالنهار كله، والتأويب سير النهار كله، والإساد سير الليل كله، وهذا لفظه وهو غريب جداً لم أجده لِغيره، وإن كان له مساعدة من اللفظ في اللغة لكنه بعيد في معنى الآية هاهنا،

---

(١) سورة الصافات، الآية [٩٣].

(٢) التفسير ٤/١٨.

(٣) سورة ق، آية [٤٥].

(٤) المرجع نفسه ٤/٣٧١.

(٥) سورة النبأ، الآية [١٤].

(٦) المرجع نفسه ٤/٥٤٦.

(٧) سورة سبأ، آية [١٠].

والصواب أن المعني في قوله تعالى: ﴿أَوِبِي مَعَهُ﴾ أي: رجعي مسبحةً معه كما تقدم والله أعلم»[١].

وعند تفسير الآية: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[٢]، قال: «والويل الهلاك والدمار وهي كلمة مشهورة.... وقال الخليل بن أحمد: الويل شدة الشر، وقال سيبويه: ويل لمن وقع في الهلكة وويح لمن أشرف عليها، وقال الأصمعي: الويل تفجع والويح ترحم، وقال غيره: الويل الحزن، وقال الخليل في معنى ويل: ويح وويس وويه وويك وويب ومنهم من فرق بينها»[٣].

المطلب الثاني

اهتمام ابن كثير رحمه الله بشتى جوانب اللغة

اهتم ابن كثير في تفسيره بشتى جوانب اللغة من نحو وتصريف وبلاغة واشتقاق وغير ذلك، فمن الأمثلة على اهتمامه بالنحو ما جاء عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[٤]، قال: «أي مثل كان، بأي شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً، وما هاهنا للتقليل وتكون بعوضه منصوبة على البدل كما تقول لأضربن ضرباً ما، فيصدق بأدنى شيء واختار ابن جرير أن ما موصولة وبعوضة معربة إعرابها قال: وذلك سائغ في كلام

---

(١) التفسير ٣/٦٤٧.

(٢) سورة البقرة، الآية [٧٩].

(٣) التفسير ١/١٤٨-١٤٩.

(٤) سورة البقرة، آية [٢٦].

العرب.... قال: ويجوز أن تكون بعوضة منصوبة بحذف الجار وتقدير الكلام إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها وهذا الذي اختاره الكسائي والفراء»[١].

وعند تفسير الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾[٢]، قال: «إنما صرف عرفات وإن كان علماً على مؤنث لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات سمي به بقعة معينة فروعي فيه الأصل فصرف اختاره ابن جرير»[٣]، وعند تفسير الآية: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[٤]، قال: «وانتصاب صبغة الله على الإغراء كقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[٥]، أي ألزموا ذلك عليكموه، وقال بعضهم بدلاً من قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾[٦] وقال سيبويه هو مصدر مؤكد انتصب على قوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[٧]، كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾[٨]»[٩].

---

(١) التفسير١ / ٨٤.

(٢) سورة البقرة، الآية [١٩٨].

(٣) التفسير ١ / ٣٠٠.

(٤) سورة البقرة، الآية [١٣٨].

(٥) سورة الذاريات، الآية [٥٠].

(٦) سورة البقرة، الآية [٣٠].

(٧) سورة البقرة، الآية [٨].

(٨) سورة المائدة، من الآية [٩].

(٩) التفسير ١ / ٢٣٤.

ومن الأمثلة على تعرضه للنواحي الصرفية، ما جاء عند تفسير الآية: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[١]، قال: «وقد قرأ الجميع ﴿مَعَٰيِشَ﴾ بلا همز إلا عبدالرحمن ابن هرمز[٢] الأعرج فإنه همزها والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز؛ لأن معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشاً ومعيشة أصلها مَعْيَشة فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت معيشة، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال، فقيل: معايش، ووزنه مفاعل لأن الياء أصلية في الكلمة، بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مَدَن وصحَّف وأبصر فإن الياء فيها زائدة ولهذا تجمع على فعائل وتهمز لذلك والله أعلم»[٣]، وعند تفسير الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾[٤]، قال: «والنطيحة فعيلة

---

(١) سورة الأعراف، الآية [١٠].

(٢) هو عبد الرحمن بن هرمز أبو داود، من موالي بني هاشم عرف بالأعرج، حافظ قارئ من أهل المدينة، أدرك أبا هريرة وأخذ عنه، وهو أول من برز في القرآن والسنة وكان خبيرا بأنساب العرب وافر العلم ثقة، رابط بثغر الإسكندرية مدة، مات بها سنة ١١٧هـ. الأعلام ٣٤٠/٣.

(٣) التفسير ٢٥٧/٢.

(٤) سورة المائدة، الآية [٣].

بمعنى مفعولة، أي منطوحة وأكثر هذه البنْية في كلام العرب بدون تاء التأنيث فيقولون: (كف خضيب وعين كحيل) ولا يقولن: (كف خضيبة ولا عين كحيلة) وأما هذه فقال بعض النحاة إنما استعمل فيها تاء التأنيث لأنها أجريت مجرى الأسماء كما في قولهم طريقة طويلة وقال بعضهم إنما أُتي بتاء التأنيث فيها لتدل على التأنيث من أول وهلة بخلاف (عين كحيل وكف خضيب) لأن التأنيث مستفاد من أول الكلام»[1].

وكذلك عند تفسير الآية: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[2]، قال: «نزَّل فعَّل من التكرر والتكثر كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾[3]؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفرقاً مفصلاً آيات بعد آيات، وأحكام بعد أحكام، وسوراً بعد سور، وهذا أبلغ وأشد اعتناء بمن أُنزل عليه»[4].

ومن الأمثلة على الاشتقاق ما جاء عند كلام ابن كثير على أحكام الاستعاذة فقال: «والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد... وقيل مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول كلاهما صحيح في المعنى ولكن الأول أصح

---

(١) التفسير ١٦/٢.

(٢) سورة الفرقان، الآية [١].

(٣) سورة النساء، الآية [١٣٦].

(٤) التفسير ٣٨٤/٣.

وعليه يدل كلام العرب، قال أمية بن أبي الصلت[١] في ذكر ما أوتي سليمان عليه السلام:

أيما شاطن عصاه عكاه[٢] ثم يلقى في السجن والأغلال

فقال أيما شاطن، ولم يقل أيما شائط.

وقال سيبويه: «العرب يقولون: تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا تشيَّط»[٣].

وكذلك عند تفسير الآية: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾[٤]، قال: «قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة وعن ابن عباس المسبحين - ثم قال ابن كثير بعد استعراضه لأقوال العلماء - وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال هو

---

(١) هو أمية بن عبد الله بن أبي الصلت بن ربيعة بن عوف الثقفي، شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف، قدم دمشق قبل الإسلام وكان مطلعا على الكتب القديمة، وسأل عن خبر محمد بن عبد الله ﷺ فقيل له: يزعم أنه نبي، فخرج حتى قدم عليه بمكة وسمع منه آيات من القرآن وانصرف عنه، فتعقبته قريش تسأله عن رأيه فقال: أشهد أنه على الحق، فقالوا فهل تتبعه؟ فقال: حتى أنظر في أمره، وخرج إلى الشام وهاجر إلى المدينة، وحدثت وقعة بدر وعاد أمية من الشام فعلم بمقتل أهل بدر وفيهم ابنا خال له، فامتنع وأقام في الطائف إلى أن مات سنة ٥ هـ. الأعلام ٢/٢٣.

(٢) شدّه في الحديد (المعجم الوسيط ص ٦٢٠).

(٣) التفسير ١/٢٥.

(٤) سورة الاسراء، الآية [٢٥].

التائب من الذنب الراجع عن المعصية إلى الطاعة مما يكره الله إلى ما يحبه الله ويرضاه، وهذا الذي قاله هو الصواب، لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع تقول آب فلان إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾[١]، وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: **(آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون)**[٢]»[٣].

ومن الأمثلة التي أشار فيها ابن كثير لبعض فنون البلاغة في القرآن الكريم ما جاء عند تفسير الآية: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾[٤]، قال: «أي عليكم، قال علماء البيان هذه أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام»[٥]، وكذلك عند تفسير الآية: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٦]، قال: «وفي الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز»[٧]، وقال عند تفسير الآية: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ

---

(١) سورة الغاشية، الآية [٢٥].

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب الذكر إذا ركب دابته متوجها لسفر حج أو غيره، رقم (١٣٤٢).

(٣) التفسير ٣/٤٨-٤٩.

(٤) سورة هود، الآية [٦٩].

(٥) التفسير ٢/٥٥٦.

(٦) سورة البقرة، الآية [١٧٩].

(٧) التفسير ١/٢٦٢.

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[١]، قال: «الرفع أقوى وأثبت من النصب فرده أفضل من التسليم»[٢].

ومن فنون البلاغة التي ذكرها ابن كثير في تفسيره اللف والنشر، كما في تفسير الآية: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣]، قال: «هذا من باب اللف والنشر»[٤].

وعند تفسير الآية: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾[٥]، قال: «وهو من باب اللف والنشر فذكر الأمم المكذبة ثم قال: فكلاً أخذنا بذنبه»[٦].

وعند تفسير الآية: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٧]، قال:

---

(١) سورة الذاريات، الآية [٢٥].

(٢) التفسير ٤/٢٧٧.

(٣) سورة القصص، الآية [٧٣].

(٤) التفسير ٣/٤٩٢، واللف والنشر هو أن تلف شيئين ثم تأتي بتفسيرهما جملة، ثقة بأن السامع يرد إلى كل واحد منهما ماله كقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص ٧٣]. انظر: التعريفات للجرجاني ص٢٤٧ تحقيق إبراهيم الأبياري.

(٥) سورة العنكبوت، الآية [٤٠].

(٦) التفسير ٣/٥١٠.

(٧) سورة سبأ، الآية [٢٤].

«هذا من باب اللف والنشر أي واحد من الفريقين مبطل والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال بل واحد منا مصيب»[١].

وقد استعمل ابن كثير رحمه الله السجع في تفسيره وهي قليلة بالنسبة لاستعماله السجع في كتابه التاريخ البداية والنهاية[٢]، فمن ذلك مثلاً قوله: «ومن قتله العدو البشري كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطن كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجوراً، ومن قهره العدو الباطن كان مفتوناً مأزوراً»[٣].

وقال أيضاً عن الكافرين: «يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات، وعن نعيم الجنان بجحيم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته. فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون»[٤].

---

(١) التفسير ٣/٦٦٠. وكذلك عند تفسير الآية: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الاسراء ٢٩].

(٢) فقد أكثر من السجع انظر مثلاً: ٤/٣٢٠، ١٧/٥٣٥، ١٥/٢٧٥، ١٥/٢٨٣، ١٥/٢٩٠، ١٥/٤٩٤، ١٥/٦٥٥، ١٨/٢٨٦، ١٦/٥١٤، ١٦/٥٧١، ١٦/٥٨٠، ١٦/٥٨٩، ١٦/٥٠٠، ١٦/٦٢١، ١٦/٦٥٣، ١٧/٥٣٥، ١٨/٢٨٦.

(٣) التفسير ١/٢٥.

(٤) المرجع نفسه ٢/٥٤٤، عند تفسير الآية: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود ٢٢].

وقال عن المؤمنين العاملين: «أنهم ورثوا الجنات المشتملة على الغرف العاليات والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات والحسان الخيرات والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، ولا ينامون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح المسك يعرقون»[(١)].

وقال عند تفسير الآية: ﴿خَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾[(٢)]، قال: «وقال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عز وجل شرابين للقهوات تراكين للصلوات لعابين بالكعبات رقادين عن العتمات مفرطين في الغدوات تاركين للجمعات»[(٣)].

وقال عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[(٤)]، «فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره وحاشا وكلا، بل أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد إلى يوم

---

(١) التفسير ٢/٤٤٥ عند تفسير لآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود ٢٣].

(٢) سورة مريم، الآية [٥٩].

(٣) التفسير ٣/١٦٣.

(٤) سورة الكوثر، الآية [٣].

المحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد»[١].

وقال عند تفسير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[٢]، «وقام بالأمر بعد وزيره وخليفته أبو بكر ﷺ وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله به، فوطد القواعد وثبت الدعائم، ورد شارد الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام، وبيّن الحق لمن جهله وأدى عن الرسول ما حمله ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد....»[٣].

وقال عند تفسير الآية: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٤]، «ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق ثم قذفوا به فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً، فإنه بذل نفسه للرحمن وجسده للنيران وسخا بولده للقربان وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان»[٥].

---

(١) التفسير ٤/٦٤٧.

(٢) سورة التوبة، الآية [١٢٣].

(٣) التفسير ٢/٤٩٥.

(٤) سورة العنكبوت، الآية [٢٤].

(٥) المرجع نفسه ٣/٥٠٥.

المطلب الثالث

الاستدلال باللغة في المسائل الخلافية

فابن كثير رحمه الله يستدل باللغة في المسائل الخلافية وقد يناقش بعض الأقوال اللغوية والنحوية فيعين الراجح منها، فمن ذلك مثلاً ما جاء عند تفسير الآية: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾[1]، قال: «قال ابن عباس ومجاهد والضحاك[2] إن الضمير في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على إخوة يوسف، وقال قتادة بل هو عائد على السيارة؛ لأن قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسرُّوه بضاعة ولو كانوا فيه زاهدين لما شتروه فترجح من هذا أن الضمير في ﴿وَشَرَوْهُ﴾ إنما هو لإخوته»[3]، وعند تفسير البسملة من سورة الفاتحة قال: «اللهُ عَلَمٌ على الرب تبارك وتعالى... وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى، ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل ويفعل، فذهب من ذهب من

---

(١) سورة يوسف، الآية [٢٠].

(٢) هو الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني، أبو القاسم مفسر كان يؤدب الأطفال، ويقال كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي، قال الذهبي: «كان يطوف عليهم على حمار». وذكره ابن حبيب تحت عنوان أشراف المعلمين وفقهاؤهم، له كتاب في التفسير، توفي بخراسان سنة ١٠٥هـ. الأعلام ٣/٢١٥.

(٣) التفسير ٢/٥٨٢.

النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له... وقيل إنه اسم مشتق واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج[١]:

لله در الغانيات المُدَّهِ سَبّحنَ واسترجعن من تَألُّهي[٢]

وقد صرح الشاعر بلفظ المصدر وهو التأله من إله يأله إلاهة وتأله... وقد استدل بعضهم على كونه مشتقاً لقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾[٣]، أي المعبود في السماوات والأرض كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[٤]، ونقل سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه مثل فعال فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة، قال سيبويه: مِثْل الناس أصله أناس وقيل أصل الكلمة لاه

---

(١) هو رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي، أبو الحجاف، أو أبو محمد، راجز من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان أكثر مقامه في البصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره، ويقولون بإمامته في اللغة، مات في البادية وقد أسن وله ديوان رجز، وفي الوفيات لما مات رؤبة قال الخليل: «دفنا الشعر واللغة والفصاحة»، توفي سنة ١٤٥هـ. الأعلام ٣/٣٤.

(٢) جاء في لسان العرب المدّ والمَدْه في نعت البهثة والجمال والمدح في كل شيء، وقال الخليل بن أحمد: «مدهته في وجهه ومدحته إذا كان غائبا»، وقيل المده والمدح واحد وقيل الهاء في كل ذلك بدل من الحاء والماده المادح والتمده التمدح – ابن منظور، لسان العرب ١٣/٥٤٠، فالمعنى لله در الغانيات المادحات. سبحن: أي قلن سبحان الله، واسترجعن أي: قلن إنا لله وإنا إليه راجعون، من تألهي أي بسبب عبادتي، ومن هنا فيها معنى السبب أي سبحن واسترجعن بسبب عبادتي لله عز وجل.

(٣) سورة الأنعام، الآية [٣].

(٤) سورة الزخرف، الآية [٨٤].

فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه....، وقال الكسائي والفراء أصله إلاله حذفوا النمرة وأدغموا اللام الأولى في الثانية كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[1]، أي لكن أنا، وقد قرأها كذلك الحسن.

قال القرطبي: ثم قيل هو مشتق من وله إذا تَحَيَّرَ والوله ذهاب العقل يقال رجل واله وامرأة ولهى وماء مؤله إذا أرسل في الصحاري، فالله تعالى تتحير الألباب والفكر في حقائق صفاته، فعلى هذا يكون أصله وِلاَه فأبدلت الواو همزة كما قالوا في وشاح إشاح ووسادة إسادة.

وقال فخر الدين الرازي: وقيل إنه مشتق من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره والأرواح لا تعرج إلا بمعرفته؛ لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره، قال تعال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2]، قال: وقيل من لاه يلوه إذا احتجب وقيل من أله الفصيل إذا أُولِع بأمه والمعنى أن العباد مُوْلوعون بالتضرع إليه في كل الأحوال.

وقيل مشتق من أله الرجل يألة إذا فزع من أمر نزل به فألهه أي أجاره، فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه لقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[3]... وقد اختار فخر الدين أنه اسم علم غير مشتق ألبتة، قال وهو

---

(١) سورة الكهف، الآية [٣٨].

(٢) سورة الرعد، الآية [٢٨].

(٣) سورة المؤمنون، الآية [٨٨].

قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء»[١].

وعند تفسير الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]، قال: «اشتهر عن كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية والشكر لا يكون إلا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر[٣]:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعم الحمد أو الشكر، على قولين والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية تقول: حمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه لأنه يكون بالقول، والعمل والنية كما تقدم وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية لا يقال شكرته لفروسيته وتقول شكرته على كرمه وإحسانه إلي»[٤].

وعند تفسير الآية: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٥]، قال: «وقال ابن جرير وإن الصلاة المفروضة سميت صلاة لأن المصلي يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه فيها من حاجته،

---

(١) التفسير ١/٣٠-٣١.

(٢) سورة الفاتحة، الآية [٢].

(٣) لم أعثر على قائله.

(٤) التفسير ١/٣٤.

(٥) سورة البقرة، الآية [٣].

وقيل مشتق من الصَّلَوين إذا تحركا في الصلاة عند الركوع، وهما عرقان ممتدان من الظهر حتى يكتنفا عجب الذنب، ومنه سمي المصلي وهو الثاني للسابق في حلبة الخيل وفيه نظر، وقيل مشتقة من المصلّى وهو الملازمة للشيء من قوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾[١] أي لا يلزمها ويدوم فيها إلا الأشقى، وقيل مشتقة من تصلية الخشبة في النار ليقوَّم كما أن المصلي يقوَّم عوجه بالصلاة، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر والله أعلم»[٢].

وعند تفسير الآية: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾[٣]، قال: «قال بعضهم أدنى ألا تكثر عائلتكم، قال زيد بن أسلم[٤] وسفيان بن عيينة والشافعي رحمهم الله وهذه مأخوذ من قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي فقراً: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[٥] وقال الشاعر:

---

(١) سورة الليل، الآية [١٥].

(٢) التفسير ١/٥٩.

(٣) سورة النساء، الآية [٣].

(٤) هو زيد بن أسلم العدوي العمري، مولاهم، أبو أسامة أو أبو عبد الله فقيه مفسر، من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته. واستقدمه الوليد بن يزيد، في جماعة من فقهاء المدينة إلى دمشق مستفتياً في أمر، وكان ثقة كثير الحديث له حلقة في المسجد النبوي، وله كتاب في التفسير توفي سنة ١٣٦هـ. الأعلام ٣/٥٦، ٥٧.

(٥) سورة التوبة، الآية [٢٨].

فمـا يـدري الفقـير متـى غنـاه ومـا يـدري الغـني متـى يعيـل[١]

وتقول العرب: عال الرجل يعيل عليه إذا افتقر ولكن في هذا التفسير هاهنا نظر فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السراري أيضاً والصحيح قول الجمهور: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا﴾[٢] أي تجوروا، يقال عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار وقال أبو طالب[٣] في قصيدته المشهورة:

بميزان قسط لا يَخيسُ[٤] شعيرة لـه شـاهد مـن نفسه غـير عائـل

وقال هشيم[٥] عن ابن إسحاق قال: كتب عثمان بن عفان إلى أهل الكوفة

---

(١) القائل هو أحيحة بن الجلاح شاعر جاهلي قديم، وهو سيد الأوس، توفي سنة ١٣٠ قبل الهجرة، الأعلام ١/٢٧٧.

(٢) سورة النساء، الآية [٣].

(٣) هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم من قريش أبو طالب والد علي ﷺ وعم النبي ﷺ وكافله ومربيه ومناصره، كان من أبطال بني هاشم ورؤسائهم ومن الخطباء العقلاء الأباة، نشأ النبي ﷺ في بيته وسافر معه إلى الشام في صباه، ولما أظهر الدعوة إلى الإسلام همّ أقرباؤه بنو قريش بقتله فحماه أبو طالب وصدهم عنه، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فامتنع خوفا من أن تعيره العرب بتركه دين آبائه، ووعده بنصره وحمايته مات سنة ٣ قبل الهجرة (الأعلام ٤/١٦٦).

(٤) لا ينقص (المعجم الوسيط ص ٢٦٤).

(٥) هوهشيم بن بشير بن أبي حازم قاسم بن دينار السلمي أبو معاوية الواسطي نزيل بغداد مفسر، من ثقات المحدثين، قيل أصله من بخارى، كان محدث بغداد، ولزمه الإمام أحمد بن حنبل أربع سنين، قال الداودي: «له غير التفسير كتاب السنن في الفقه والمغازي»، توفي سنة ١٨٣هـ (الأعلام ٨/٨٩).

في شيء عاتبوه فيه: إني لست بميزان لا أعول»[١].

وعند تفسير الآية: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾[٢]، قال: «ومن زعم أن إرم مدينة فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب[٣] وليس لذلك أصل أصيل، ولهذا قال: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[٤]، أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يبن مثلها في البلاد»[٥].

وعند تفسير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[٦]، قال: «قرئ وأرجلَكم بالنصب عطفاً على وجوهكم وأيديكم...وهذه قراءة ظاهرة في وجوب

---

(١) التفسير ١/٥٥٢.

(٢) سورة الفجر، الآية [٧].

(٣) هو وهب بن منبه الأنباري الصنعاني الذماري أبو عبد الله، مؤرخ كثير الأخبار عن الكتب القديمة عالم بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات، يعد في التابعين، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن، ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها، من كتبه: "ذكر الملوك المتوجه من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم"، وله قصص الأنبياء ومصنفي الأخبار، توفي سنة ١١٤هـ (الأعلام ٨/١٢٥-١٢٦).

(٤) سورة الفجر الآية [٨].

(٥) التفسير ٣/٤٢٥.

(٦) سورة المائدة، الآية [٦].

الغسل كما قال السلف ومن هاهنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب كما هو مذهب الجمهور خلافاً لأبي حنيفة[1] حيث لم يشترط الترتيب بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجهه أجزأه ذلك؛ لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء والواو لا تدل على الترتيب، وقد سلك الجمهور في الجواب على هذا البحث طرقاً، فمنهم من قال الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة لأنه مأمور به بفاء التعقيب وهي مقتضية الترتيب، ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً ثم لا يجب الترتيب بعده بل القائل اثنان:

أحدهما: بوجوب الترتيب كما هو واقع الآية.

والآخر يقول: لا يجب الترتيب مطلقاً.

والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع حيث لا فارق، ومنهم من قال لا نسّلم لأن الواو لا تدل على الترتيب بل هي دالة كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء، ثم نقول بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أن يرتب، والدليل على ذلك أنه ﷺ لما طاف بالبيت خرج من باب

---

(١) هو النعمان بن ثابت النيمي بالولاء، الكوفي أبو حنيفة إمام الحنفية الفقيه المجتهد المحقق أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، قيل أصله من أبناء فارس ولد ونشأ بالكوفة وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه ثم انقطع للتدريس والإفتاء، وكان قوي الحجة من أحسن الناس منطقاً، قال الإمام مالك يصفه: «رأيت رجلاً لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته»، وعن الإمام الشافعي قال: «الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة»، توفي سنة ١٥٠هـ (الأعلام ٣٦/٨).

الصفا وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[١]، ثم قال: **(أبدأ بما بدأ الله به)**[٢] لفظ مسلم ولفظ النسائي: **(ابدؤوا بما بدأ الله به)**، وهذا لفظ أمر وإسناده صحيح فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً والله أعلم»[٣].

وغيرها من المواضع التي استدل فيها ابن كثير رحمه الله تعالى باللغة العربية في المسائل الخلافية في تفسيره.

وهكذا نجد أن من أهم خصائص منهج ابن كثير الدعوي عنايته باللغة العربية واهتمامه بها ودفاعه عنها واستخدامه لها، وذلك لإدراكه رحمه الله أهمية اللغة وضروريتها للمسلم بشكل عام وللعلماء والدعاة بشكل خاص، فاللغة بمفرداتها ونحوها وصرفها واشتقاقاتها وآدابها لازمة لسلامة لسان الداعية وحجة أدائه، فضلاً عن حسن أثرها في السامع بل في حجة الفهم أيضاً، فالأخطاء اللغوية إن لم تحرف المعنى وتشوه المراد يمجها الطبع وينفر منها السمع، وكذلك الأدب بشعره ونثره وأمثاله وحكمه ووصاياه وخطبه مهم للداعية يثقف لسانه ويُجوِّد أسلوبه، ويرهف حسه ويوقفه على أبواب من العبارات الرائعة والأساليب الفائقة، والصور المعبرة والأمثال السائرة، والحكم البالغة، ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ

---

(١) سورة البقرة، الآية [١٥٨].

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ رقم (١٢١٨)، وأخرجه النسائي في كتاب الحج باب ذكر الصفا والمروة رقم (٢٩٧٢، ٢٩٧٣).

(٣) التفسير ٢/٣٤.

ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة التي يستخدمها الداعية في محلها فتقع من القلوب أحسن موقع وأبلغه[١].

وكذلك علم الصرف الذي يهتم بتركيب الكلمة والبحث في أصلها وبنيتها ومشتقاتها وزوائدها، وكذلك فقه اللغة الذي يزيد في حصيلة الداعية اللغوية وينمي ثروته من اللغة العربية ومفرداتها[٢].

وإن مما يزيد عناية الدعاة إلى الله باللغة العربية واهتمامهم بها هو ما تواجهه اليوم من تحديات وهجوم عليها، والمتمثل في إثارة الشبهات حولها والدعوة إلى تغيير الحروف العربية، وكذلك الدعوة إلى العامية ونحو ذلك من ألوان الهجوم والعداء، وذلك بحجة أنها لا تتناسب مع هذا العصر وأنها «عسيرة؛ لأن نحوها ما زال قديماً عسيراً؛ ولأن كتاباتها ما زالت قديمة عسيرة»[٣]، ويصف بعضهم اللسان العربي بأنه «جزء من هياكل التخلف والانهيار، وكما نطالب بإصلاح وسائل الإنتاج وقانون الإصلاح الإداري والتربية نطالب في الوقت نفسه بإصلاح ذلك اللسان الموروث في حروفه وصرفه ونحوه»[٤].

---

(١) انظر: يوسف القرضاوي، ثقافة الداعية ص ١١٤، مرجع سابق.

(٢) انظر: محمد زين الهادي، الدعوة الإسلامية الاستيعاب والشمول ص ١١٢، مرجع سابق.

(٣) مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين ص ١٩٥.

(٤) مقال للدكتور عبدالله الوردي، جريدة الرياض السعودية ص ٧، الثلاثاء ١٢ محرم ١٤٠٧هـ.

وانظر محمد عبد القادر هناري، قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها، ص٥٦-٥٧.

فالخلاصة أن عناية الدعاة باللغة العربية واهتمامهم بها أمر في غاية الأهمية، والسبب كما ذكرنا أن اللغة العربية هي الطريقة والأداة لفهم الشرع ونصوص الوحي، ولأنها الوسيلة لتبليغ هذا الدين والدعوة إليه، وثالثاً لما يقوم به أعداء الإسلام سواء كانوا من غير المسلمين كاليهود والنصارى وغيرهم، أو من المنافقين المنسلخين من دينهم من دعاة التغريب من أبناء المسلمين، من محاربتها والهجوم عليها فواجب الدعاة اليوم الحرص على تعلم اللغة العربية وتعليمها والدفاع عنها[1]، ونشرها بين أبناء المسلمين

---

(١) ومن الأمثلة على دفاع الدعاة عن اللغة العربية البحث الذي ألقاه الدكتور شكري فيصل رحمه الله في الندوة التي عقدت في مسقط في شعبان ١٤٠٥هـ ومما جاء فيه: « أن اللغة العربية لغة الدين وليست لغة الحياة وأنها لغة الماضي وليست لغة المستقبل، وأنها لغة الأدب والشعر وليست لغة العلم والحضارة الجديدة، أما قولهم أنها لغة الدين وليست لغة الحياة فذلك في المفهوم الإسلامي نوع من الفصل لم يكن لنا عهد به، فالدين في ضمير المسلم نهج للحياة ونوع من السلوك وصلة ما بين الدنيا والآخرة، وأما أن اللغة العربية لغة الماضي وليست لغة الحاضر والمستقبل، فقد كان صورة أخرى لواقع خصوم الإسلام، نقلوها من حياتهم التي عاشوها.... وكان ماضيهم متصلاً باللغة اليونانية أولاً، ثم باللغة اللاتينية، لما فصلوا ما بين الدولة والكنيسة قادهم ذلك إلى الفصل بين اللغة اللاتينية وبين اللهجات التي تفرقت واستقلت عنها في وجود لغوي خاص بها، وخُيّل لهم أن ذلك هو الشأن في اللغة العربية، أما أن اللغة العربية لغة الأدب والشعر وليست لغة العلم والثقافة فلقد كانت اللغة لغة الطب والفلك والهندسة والفلسفة قبل أن تؤول هذه العلوم إلى الأوروبيين في فترة نهضتهم، فهل هي عاجزة عن أن تكون كذلك في فترة نهضتنا»، انظر المرجع السابق ص٥٨-٥٩.

وغير المسلمين في المناهج التعليمية والعناية بمدارس ومعاهد تعليم اللغة العربية وغيرها من الوسائل والطرق الكثيرة الأخرى.

المبحث الثالث

عناية ابن كثير بالمصطلحات

وفيه مطالب:

تعريف المصطلح لغة:

قال ابن فارس: «صلح: الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد، ويقال صلح الشيء صلاحاً ويقال صَلَح بفتح اللام»[١].

وقال ابن منظور: «الاصطلاح نقيض الفساد. والمصلحة واحدة المصالح والاستصلاح نقيض الاستفساد وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه»[٢].

أما في الاصطلاح:

فهو: «اتفاق القوم على وضع الشيء، وقيل إخراج الشيء عن المعنى اللغوي إلى معنى آخر لبيان المراد، واصطلاح التخاطب هو عرف اللغة، والاصطلاح مقابل الشرع في عرف الفقهاء، ولعل وجه ذلك أن الاصطلاح، "افتعال" من "الصلح"، للمشاركة كالاقتسام والأمور الشرعية موضوعات الشارع وحده لا يتصالح عليها بين الأقوام وتواضع منهم، ويستعمل الاصطلاح غالباً في العلم الذي تحصل معلوماته بالنظر والاستدلال»[٣].

---

(١) معجم مقاييس اللغة مادة (صلح) ص ٥٧٤.

(٢) لسان العرب مادة صلح، ٢/٥١٦-٥١٧.

(٣) الكليات، ص ١٢٩-١٣٠.

وقال الجرجاني: الاصطلاح: «إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما، وقيل الاصطلاح اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإبراز المعنى، وقيل الاصطلاح إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى معنى آخر لبيان المراد، وقيل الاصطلاح لفظ معين بين قوم معينين»[١].

وقال أحمد فارس الشدياق[٢]: «هو اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص»[٣].

المطلب الأول

صحة نسبة المصطلح ومعناه

تأتي أهمية صحة نسبة المصطلح ومعناه حتى لا تكون الألفاظ والمصطلحات نسبية ومطلقة غير محررة، بحيث يستخدمها كل إنسان كما يحلو له بناء على ما تدفعه إليه الأهواء وما تمليه عليه العقائد الفاسدة والأفكار الضالة، وكذلك حتى لا تُحْمل الألفاظ الشرعية على الاصطلاح الحادث لقوم أو فئة، فكثير من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعاداتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظ في

---

(١) التعريفات، ص٢٨.

(٢) هو أحمد بن فارس بن يوسف بن منصور الشدياق، عالم باللغة والأدب ولد في قرية عشقوت بلبنان وأبواه مسيحيان مارونيان سمياه فارساً، ورحل إلى مصر فتلقى الأدب على علمائها، وتنقل في أوروبا ثم سافر إلى تونس فاعتنق الدين الإسلامي وتسمى أحمد فارس، وتوفي بالأستانه سنة ١٢٠٤هـ ونقل جثمانه إلى لبنان. من آثاره: "كنز الرغائب في منتجات الجوائب الواسطة في أحوال مالطه"، و"الجاسوس على القاموس"، وغيرها. (الأعلام١/١٩٣).

(٣) الجاسوس على القاموس، ص٤٣٧.

النصوص الشرعية أو في كلام أهل العلم فيظن أن مرادهم بها نظير مراد قومه، ويكون مراد الشارع خلاف ذلك؛ لأنه «لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي ﷺ وعاداتهم في الكلام، وإلا صرف الكلم عن مواضعه، فإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعاداتهم في الألفاظ ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحهم ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك.... وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام والفقه والنحو والعامة وغيرهم، وآخرون يتعمدون وضع ألفاظ الأنبياء وأتباعهم على معان أُخر مخالفة لمعانيهم ثم ينطلقون بتلك الألفاظ مريدين بها ما يعنونه هم، ويقولون إنا موافقون للأنبياء، وهذا موجود لدى كثير من الملاحدة المتفلسفة والإسماعيلية ومن ضاهاهم من ملاحدة المتكلمة والمتصوفة»[1].

كما تأتي أهمية صحة نسبة المصطلح ومعناه إلى أن المصطلحات أصبحت أدوات في الصراع الحضاري والفكري بين الأمم بل وفي داخل الأمة الواحدة، إذ يهتم أعداء أي مبدأ أو فكر في صراعهم مع المبادئ الأخرى بالألفاظ والمصطلحات، وحين يكون هؤلاء معادين للحق فإنهم يحرفون الألفاظ والمعاني ويغيبون الحق فيها، فالمصطلح هو الوعاء المعبر عن العقيدة أو الفكر أو الرأي، ولذلك فإن كسر ذلك الوعاء غرض رئيس للمعادين، كما أن إفساد المصطلح

(١) الفتاوى لابن تيمية ١/٢٤٣.

أو تغييره يمثل خطورة كبرى على العقائد والآراء والأفكار لأي أمة وبهذا كان الحفاظ على مصطلحات الأمة من جهة وكشف مصطلحات الأمم المعادية من جهة أخرى ركنين أساسيين في عملية الصراع[١]، وبما أن اللغة هي وعاء الفكر بما تحمله ألفاظها من معان ومصطلحات مما جعل الاصطلاح وسيلة للغزو الثقافي، فحسب الأمة الغازية أن تشحن لغة الأمة المغزوَّة بمصطلحاتها لتصبح هذه الثانية تابعة فكرياً للأولى، ولقد كان لعلم الكلام أثر على الأمة الإسلامية بما أحدثه من لبس وتشويش فكري، بسبب المفاهيم التي تحملها تلك الألفاظ والمصطلحات الوافدة وحملها الألفاظ العربية، مزاحمة بذلك مفاهيمها الأصلية، مما جعل الناس في حيرة منها والتباس، وفي هذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله مبيناً خطورة قضية المصطلح والاختلاط اللغوي: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس[٢]»[٣].

وابن كثير رحمه الله عُني بضبط المصطلح وصحة نسبته ومعناه فمثلا ما جاء عند تفسير أول سورة الفاتحة قال: «وأما مسألة الاسم هل هو المسمى أو غيره؟

---

(١) انظر عبد الرحمن اللويحق توظيف المصطلح في الصراع الحضاري، مجلة الإمام محمد بن سعود العدد ٤٤ شوال ١٤٢٢ ص ٥٠٣-٣١٨.

(٢) هو أرسطو، وأرسطاطاليس (بالإغريقة) هو ابن نيقوما خوس طبيب باسطاغيرا وهي مدينة تقع شمال اليونان على الساحل الشمالي من بحر إيجه، أمضى حوالي عشرين عاماً متتلمذاً على أفلاطون، وقد حكم عليه مجمع حكماء أثينا بالإعدام ومات سنة ٣٢١ ق. م، (موسوعة أعلام الفلاسفة، روني إيلي إلفا، ٧٢/١ طبعة دار الكتب العلمية ط١. ١٤١٢هـ).

(٣) صون المنطق والكلام للسيوطي / ص١٥، وانظر مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر، د. عبد الرحمن الزنيدي ص ٥٠٦، دار إشبيليا - الرياض ط١. ١٤١٨هـ.

ففيها للناس ثلاثة أقوال أحدها: أن الاسم هو المسمى وهو قول أبي عبيدة[١] وسيبويه، واختاره الباقلاني وابن فورك[٢] وقال فخر الدين الرازي: وقالت الحشوية[٣] والكرامية[٤] والأشعرية[٥]: هو الاسم نفس المسمى وغير التسمية،

---

(١) هو معمر بن عبيدة بن المثنى التميمي بالولاء البصري أبو عبيدة النحوي، من أئمة العلم بالأدب واللغة مولده ووفاته في البصرة، استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨هـ وقرأ عليه أشياء من كتبه، قال الجاحظ: «لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه، له نحو ٢٠٠ مؤلف منها: "نقائض جرير والفرزدق"، و"مجاز القرآن"، و"مآثر العرب"، و"أيام العرب"، وغيرها، توفي سنة ٢٠٩هـ (الأعلام ٧/٢٧٢).

(٢) هو محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني أبو بكر، واعظ عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية، سمع بالبصرة وبغداد وحدث بنيسابور وبنى فيها مدرسة وتوفي بها على مقربة منها سنة ٤٠٦هـ، له تصانيف منها: "مشكل الحديث وغريبه"، و"الحدود"، و"أسماء الرجال وغرائب القرآن". الاعلام ٦/٨٣.

(٣) الحشوية أو الحشووية نسبة: إلى الحشو أو الحشا، طائفة تمسكوا بالظواهر وذهبوا إلى التجسيم وغيره (المعجم الوسيط لإبراهيم أنيس وزملائه ص ١٧٧، مرجع سابق).

(٤) الكرامية: فرقة ظهرت في مدينة سجستان في القرن الثاني الهجري على يد محمد بن كرام وانتهت دعوتهم الأولى إلى التجسيم (الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي ص ٢٠٢، طبعة دار الأفاق الجديدة بيروت ط٣ ١٩٧٨م).

(٥) الأشاعرة: هم المنتسبون إلى أبي الحسن الأشعري في مذهبه الثاني بعد رجوعه عن الاعتزال، وعامتهم يثبتون سبع صفات فقط، وينفون عن الله علو الذات، ويقولون إن الإيمان هو التصديق كما هو ظاهر من كتبهم التي من أشهرها الإرشاد للجويني والمحصل للرازي والمواقف للإيجي (انظر النحل والملل محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني ١/٩٤-١٠٣ طبعة دار المعرفة بيروت، بدون عنوان، و مذاهب الإسلاميين، عبدالرحمن بدوي ١/٤٨٧-٧٤٨، طبعة دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩م).

وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمى ونفس التسمية، والمختار عندنا أن الاسم غير المسمى وغير التسمية، ثم نقول: إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات مقطعه وحروف مؤلفة فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى، ثم نقول إن كان المراد بالاسم ذات المسمى فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات وهو عبث فثبت أن الخوض في هذا المبحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث، ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى بأنه قد يكون الاسم موجوداً والمسمى مفقوداً كلفظة المعدود، وبأنه قد يكون للشيء أسماء متعددة كالمترادفة، وقد يكون الاسم واحداً والمسميات متعددة كالمشترك، وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى، وأيضا فالاسم لفظ وهو عَرَض والمسمى قد يكون ذاتاً ممكنة أو واجبة بذاتها وأيضاً فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللافظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك، ولا يقوله عاقل، وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1]، وقال النبي ﷺ: **(إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً)**[2]، فهذه أسماء كثيرة والمسمى واحد وهو الله تعالى، وأيضاً فقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ إضافتها إليه كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[3] ونحو ذلك والإضافة تقتضي المغايرة وقوله: ﴿فَٱدْعُوهُ

---

(١) سورة الأعراف، الآية [١٨٠].

(٢) متفق عليه وأخرجه البخاري كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط رقم (٢٧٣٦)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة الاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها رقم (٢٦٧٧)، والترمذي كتاب الدعوات، باب إن لله تسعة وتسعين اسماً رقم (٣٥٠٦).

(٣) سورة الواقعة، الآية [٩٦].

بِهَا﴾ أي: فالمدعو الله بأسمائه وذلك دليل على أنه غيره، واحتج من قال الاسم هو المسمى بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾[1] والمتبارك هو الله، والجواب أن الاسم يعظم لتعظيم الذات المقدسة، وأيضاً فإذا قال الرجل زينب طالق - يعني امرأته طالق - طلقت، ولو كان الاسم غير المسمى لما وقع الطلاق، والجواب أن المراد أن الذات المسماة، بهذا الاسم طالق، قال الرازي: وأما التسمية فإنها فعل الاسم معيِّنا لهذه الذات فهي غير الاسم أيضاً والله أعلم»[2].

المطلب الثاني

اتباع المنقول من المصطلحات

الكتاب والسنة بينا معنى كل لفظ من الألفاظ الشرعية، حيث لا يوجد فيهما لفظ أو معنى يهم الناس في دينهم إلا وقد جاء بيانه بأوجز وأوضح عبارة.

فمما ورد في الكتاب والسنة من بيان الألفاظ والمصطلحات وضَبْطِها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ

(١) سورة الرحمن، الآية [٧٨].

(٢) التفسير ١/ ٢٩.

(٣) سورة البقرة، الآية [١٠٤].

(٤) سورة البقرة، الآية [١٥٤].

وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وغيرها من الآيات، ومن السنة قول النبي ﷺ: **(أتدرون من المفلس؟)**، قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: **(المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)**[3].

وقوله ﷺ من حديث جابر رضي الله عنه[4]: **(ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوما، إن كان ظالماً فلينهه وإنه له نصر وإن كان مظلوماً فينصره)**، وفي رواية: قالوا فينصره مظلوماً فكيف ينصره ظالماً؟ قال ﷺ: **(يمنعه من الظلم فإن ذلك نصره)**[5]، وغير ذلك من الأحاديث.

---

(١) سورة النساء، الآية [٤٦].

(٢) سورة الحجرات، الآية [١٤].

(٣) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم رقم (٢٥٨١).

(٤) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي، صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، له ولأبيه صحبة، غزا تسعة عشر غزوة وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم، توفي سنة ٧٨هـ، الأعلام ١٠٤/٢.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً رقم (٢٥٨٤).

فهذا النوع من الألفاظ والمصطلحات «يجب على كل مؤمن أن يقر بموجب ذلك فيثبت ما أثبته الله ورسوله وينفي ما نفاه الله ورسوله، فاللفظ الذي أثبته الله أو نفاه حق، فإن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل والألفاظ الشرعية لها حرمة ومن تمام العلم أن تبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته وينفي ما نفاه من المعاني، فإنه يجب علينا أن نصدقه في كل ما أخبر به ونطيعه في كل ما أوجب وأمر... وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب ولا في السنة ولا اتفق السلف الصالح على نفيها أو إثباتها – وهذه هي النوع الثاني – فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول ﷺ أقربه وإن أراد معنى يخالف خبر الرسول ﷺ أنكره»[1].

وعناية القرآن والسنة في كثير من نصوصهما الشريفة بتحرير المصطلحات والألفاظ، والوقوف عندها ورفض بعضها، أو إعادة تفسيرها فيما يناسب الشرع والدين راجع إلى أهمية ذلك في بناء المعرفة، لأن المعرفة تتكون من مجموعة المفاهيم والمعلومات والقيم التي تتضمنها تلك المبادئ والذي يجري تقديمها من خلال المصطلحات والألفاظ والكلمات، ثم إن التساهل في استخدام المصطلحات الحادثة يؤدي إلى هجر المصطلحات الشرعية واستعمالها في غير مواضعها التي تدل عليها في اللفظ الشرعي، فإن «من

(١) الفتاوى لابن تيمية، ١٢/١١٣-١١٤.

أعظم أسباب الغلط في فهم كلام الله ورسوله أن ينشأ على اصطلاح حادث فيريد أن يفسر كلام الله بذلك الاصطلاح ويحمله على تلك اللغة التي اعتادها»[(١)].

فألفاظ القرآن تفهم من خلال القرآن ومراد الله، وكذلك السنة من خلال لغة الرسول ﷺ ومراده؛ «لأن دلالة الخطاب إنما تكون بلغة المتكلم، وعادته المعروفة في خطابه، لا بلغة وعادة اصطلاح أحدثه قوم آخرون بعد انقراض عصره وعصر الذين خاطبهم بلغتهم وعادته كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾[(٢)]»[(٣)]، ولقد أكد الإمام الغزالي رحمه الله اتباع المنقول من المصطلحات والألفاظ ونبّه على خطر تبدل أسامي بعض العلوم والمعاني عما كانت تدل عليه في عهود السلف وحذّر من خطر هذا التبديل وتضليله لأفهام من لا يتعمقون في تحديد المفاهيم وعقد لذلك فصلاً قيماً في كتابه الإحياء قال فيه: «اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرون الأولى، وهي خمسة ألفاظ: الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكم، فهذه أسام محمودة والمتصفون بها أرباب المذاهب في

---

(١) الفتاوى ٢/١٠٥-١٠٧، وانظر محمد الخرعان، الرأي العام ١٤-٢٠، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ.

(٢) سورة إبراهيم، الآية [٤].

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، ٧/١٢٣.

الدين ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم»[١].

وهناك بعض الدعاة وغيرهم من المخلصين الذين وقعوا في خطأ تأويل النصوص الشرعية بقصد التوفيق بينها وبين تلك المصطلحات التي استهوت العقول دون أن يدركوا واقعها وحقيقة أمرها وخطورة ما تحمل من مفاهيم وأفكار مناقضة للإسلام بل هادمة له، فاستعملوها تارة بنصها وتقيدوا بحرفيتها وأخرى أردفوها بوصف ينبئ عن إسلاميتها[٢]، وحينما سئل الباحث المسلم النمساوي محمد أسد «ليوبلدفايس»[٣] هل الدولة الإسلامية دولة

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ١/٥٣-٥٤، وانظر أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة د. حمد العمار ص ٦٠٣، مطبعة دار إشبيليا، ط٢، ١٤١٨هـ.

(٢) انظر عبد العزيز البدري حكم الإسلام في الاشتراكية ص ٢٣-٢٤.

(٣) محمد أسد: مستشرق نمساوي ولد لأسرة يهودية نمساوية في مدينة ليفو بالنمسا ودرس في جامعة فينا وعمل مراسلاً في الشرق الأوسط لعدد من الصحف النمساوية والألمانية خلال الحرب العالمية الأولى، فبهره الشرق واستولى الإسلام على قلبه فاعتنقه عام ١٩٢٦م واتخذ لنفسه اسم محمد أسد، وبعد عودته إلى ألمانيا تزوج من سيدة ألمانية دخلت الإسلام على يديه هي و ابنها وأخذهما معه إلى الحج فتوفيت زوجته في مكة ودفنت فيها وبقي في الجزيرة العربية يجوب أطرافها، فكانت رحلاته موضوع كتابه: "الطريق إلى مكة"، وله أيضاً كتاب: "الإسلام على مفترق الطريق"، و"أصول الفقه الإسلامي"، و"مبادئ الدولة والحكومة في الإسلام"، وغيرها. توفي في إسبانيا سنة ١٤١٢هـ (ذيل الأعلام، محمد العلاونة ١/١٦٦/١٦٧).

ثيوقراطية[١] أم لا ؟ فتوقف عن الإجابة عن السؤال مؤكداً أن هذا المصطلح وما يتفرع عنه أو يشابهه له خصوصية فكرية أوروبية فلا يمكن الإجابة عنها بالنسبة للإسلام لا بنفي ولا إثبات بل قرر الرجل رحمه الله جذور المشكلة بقوله: «إنه من باب التضليل المؤذي إلى أبعد الحدود أن يحاول الناس تطبيق المصطلحات التي لا صلة لها بالإسلام على الأفكار والأنظمة الإسلامية، إن للفكرة الإسلامية نظاماً اجتماعياً متميزاً خاصاً بها وحدها يختلف من عدة وجوه عن الأنظمة السائدة في الغرب ولا يمكن لهذا النظام أن يدرس ويفهم إلا في حدود مفاهيمه ومصطلحاته الخاصة، وأن أي شذوذ عن هذا المبدأ سوف يؤدي حتماً إلى الغموض والالتباس بدلاً من الوضوح والجلاء»[٢].

وابن كثير رحمه الله ينبه إلى أهمية ذلك فيقول عند تفسير الآية: ﴿ يَتَأَيُّهَا

---

(١) الثيوقراطية شكل من أشكال الحكومات النصرانية الغربية، يحكم الدولة فيها قسيس، أو كاهن أو مجموعة قساوسة، ويكون لرجال الدين سلطة في الأمور المدنية والدينية، وقد جاءت كلمة ثيوقراطية من كلمتين يونانيتين: الأولى كلمة ثيود وتعني إله، والثانية قراط وتعني الحكم، والحكومة أو علماء الدين في الإسلام ليسوا وسطاء بين العبد وربه، فضلاً عن أن الدين الإسلامي نفسه ليس به رجال كهنوت، كما أن العلماء أو الحكومة في الإسلام ليسوا أوصياء من الله على خلقه (الموسوعة العربية العالمية ٨/٩٠-٩١، نشر مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ط٢ ١٤١٩هـ)

(٢) منهاج الحكم في الإسلام محمد أسد ص ٥٢، ترجمة منصور ماضي، مطبعة بيروت ط ٢ ١٩٦٧هـ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]، «نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكفار في مقالهم وفعالهم وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقص — عليهم لعائن الله — فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولون راعنا يورون بالرعونه.... وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء تفخّم بهذا... فنهى الله المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ راعنا لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه ﷺ نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ: «لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبلة ولا تقولوا عبدي ولكن قولوا فتاي وما أشبه ذلك»[2]، وكذلك عند تفسير الآية: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾[3]، قال رحمه الله بعد أن ذكر معاني السياحة: «وليس المراد من السياحة ما قد يفهم بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواهق الجبال و الكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين»[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية [١٠٤].

(٢) التفسير ١/١٨٦-١٨٧، والحديث أخرجه مسلم كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب كراهيته العنب كرماً رقم (٢٢٤٧) وأبو داود، بلفظ: **(لا يقولن أحدكم الكرم فإن الكرم الرجل المسلم ولكن قولوا حدائق الأعناب)**، كتاب الأدب، باب في الكرم وحفظ المنطق رقم (٤٩٧٤).

(٣) سورة التوبة، الآية [١١٢].

(٤) المرجع نفسه ٢/٤٨٤.

المطلب الثالث

أثر مخالفة المصطلحات في اللغة والشرع والعقل على الاختلاف العلمي والعملي على الأمة

إن من أهم أسباب الاختلافات العلمية والعملية والتفرق والتحزب الناشئ في الأمة يرجع إلى سوء التعامل مع الألفاظ والمصطلحات، لأنهم خالفوا فيها اللغة والشرع والعقل، والأمة لا يكون لها عودة إلى وحدتها وتآلفها وانسجامها الفكري والنفسي إلا من خلال المفاهيم التي تتم من خلال توحُّد الإدراك لدلالة الألفاظ والمصطلحات التي هي أوعية المعاني، لذلك فالعلماء والأئمة الكبار «يمنعون من إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة المشتبهه لما فيها من لبس الحق بالباطل مع ما توقعه من الاشتباه والاختلاف والفتنة، بخلاف الألفاظ المأثورة والألفاظ التي تثبت معانيها فإن ما كان مأثوراً حصلت به الألفة وما كان معروفاً حصلت به المعرفة فإذا لم يكن اللفظ منقولاً ولا معناه معقولاً ظهر الجفاء والأهواء»[(١)].

وابن كثير رحمه الله يعتبر المصطلحات المخالفة التي لا تستند على الشرع هي شبيه بالآراء والأهواء والضلالات والجهالات فيقول عند تفسير الآية: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[(٢)]، «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من الشريعة»[(٣)].

---

(١) درء تعارض النقل والعقل ١/٢٧١، وانظر عبدالله الحوشاني منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله، ص٦٨/٦٩، مرجع سابق.

(٢) سورة المائدة، الآية [٥٠].

(٣) التفسير ٢/٨٨.

وهناك ألفاظ ومصطلحات طارئة ومحدثة كان لها أثر سيء على الأمة الإسلامية في حياتها العلمية والعملية قديماً وحديثاً، كما أن لها أثراً على سير الدعوة وقبول الناس لها والتشويش عليها من هذه الألفاظ والمصطلحات:

مصطلحات ومعان محدثة لا توجد في الكتاب والسنة ولا في لغة العرب بحيث يكون المصطلح ودلالته محدثين، فهناك ألفاظ جديدة ومبتدعة جُعلت لها معان جديدة ومبتدعة لا يدل عليها اللفظ ولا العقل بحيث إن المدلول الحقيقي للفظ سواء كان اللغوي أو الشرعي نفوه وغيروا معانيه المفهومة إلى معان أخرى، فعلى سبيل المثال هناك ألفاظ ومصطلحات لا خلاف عليها من حيث المعنى اللغوي ولكنها تحمل لدى أصحابها معان ذات دلالات عقدية وفلسفية معينة فمن أصول المعتزلة «العدل والتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ولكن مفهوم العدل هو إنكار القدر لأن القدر — بزعمهم — مناف للعدل الذي يقتضي — في نظرهم — أن تكون أفعال العباد غير مقدّره من عند الله عز وجل إذ كيف يجازي على شيء قدره، ويقصدون بالتوحيد القول بخلق القرآن إذ لو كان غير مخلوق لتعدد القدماء، ويقصدون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جواز الخروج على الإمام الجائر.

ولا شك أن تعبير المعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية بالعبارات المعروفة عند المسلمين عن المعاني المتلقاة من الفلاسفة ونحوهم، ثم يريدون أن ينزِّلوا كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ على ما وضعوه من اللغة والاصطلاح وكل منهم يُعبّر عن هذه المعاني والمفاهيم لهذه الألفاظ والمصطلحات بعبارات إسلامية، لا شك أن هذا من التلبيس على الأمة ومن تحريف الكلم عن

مواضعه، فهم كما قال شيخ الإسلام الهروي: «أخذوا مخ الفلسفة فلبسوه لحاء السنة»[١].

فهذه المصطلحات التي لا خلاف عليها لكونها صالحة وسليمة يجعل بعضهم أعلاماً على ما ينفر منه أصحاب الفكرة المعادية حتى يسهل دخول أفكارهم وعقائدهم دون حصول النفرة والكراهية، وكنا ذكرنا بعض الأمثلة في الصراع الفكري من المذاهب الإسلامية في معنى التوحيد الذي حقيقته إثبات صفات الكمال لله تعالى وتنزيهه عن أضدادها وعبادته وحده لا شريك له، اصطلح البعض على وضعه بخلق القرآن أو وضعه للتعطيل المحض ثم دعوا الناس إلى التوحيد فخدعوا به من لم يعرف معناه في اصطلاحهم[٢].

ومن أمثلة ذلك في الصراع الفكري في الحياة المعاصرة العلمانية، والنضالية، والاصلاح، والتقدمية، والعقلانية ونحو ذلك فمصطلح العلمانية (secularism) مثلاً الذي حقيقته فصل الدين على الحياة، نسب إلى "العلم" أو إلى «العالم» ليكون مقبولاً في النفوس[٣].

ولكن مهما بُدِّلت الألفاظ وحُسِّنت العبارات فلن تغير من الحقائق شيئاً، «ولو أوجب تبديل الأسماء والصور تبدل الأحكام والحقائق لفسدت الديانات وبُدِّلت الشرائع واضمحل الإسلام، وأي شيء نفع المشركين تسميتهم

---

(١) بغية المرتاد لابن تيمية، ص ٢١٩. وانظر: المرجع السابق ١/٢٧١، وشيخ الإسلام الهروي هو أبو عبيد القاسم بن سلام.

(٢) انظر الصواعق المرسلة لابن القيم ٣/٩٢٩.

(٣) للاستزادة من هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتاب: مجالات انتشار العلمانية، وكتاب نشأة العلمانية ودخولها المجتمع الإسلامي، وكلاهما للأستاذ الدكتور محمد زين الهادي العرمابي، مطبعة دار العاصمة بالرياض ١٩٨٨م.

أصنامهم آلهة وليس فيها شيء من صفات الإلهية وحقيقتها؟ وأي شيء نفع تسمية الإشراك بالله تقرباً إلى الله؟ وأي شيء نفع المعطلين لحقائق أسماء الله وصفاته تسمية ذلك تنزيهاً؟ وأي شيء نفع الغلاة من البشر واتخاذهم طواغيت يعبدونها من دون الله تسمية ذلك تعظيماً واحتراماً ؟ وأي شيء نفع نفاة القدر المخرجين لأشرف ما في مملكة الرب تعالى من طاعات أنبيائه ورسله وملائكته وعباده عن قدرته تسمية ذلك عدلاً؟ وأي شيء نفعهم نفيهم لصفات كماله تسميته ذلك توحيداً؟... فهؤلاء كلهم حقيق عليهم أن يتلى عليهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[1].

وهناك مصطلحات كثيرة استخدمها أعداء الإسلام في الصراع الحضاري مع الأمة الإسلامية فجعلوا ألفاظاً ومصطلحات هي في الأصل أعلام على معان ومفاهيم سيئة وأسقطوها على العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي بل على الإسلام والمسلمين لتنفير الناس بجرس هذه لألفاظ – ناهيك عن معانيها – من ذلك الاعتقاد أو المذهب أو الرأي أو مما يتضمنه من الحق، وممن حورب بهذه الرسل عليهم الصلاة والسلام، «فأشد ما حاول أعداء الرسول محمد ﷺ من التنفير عنه سوء التعبير عما جاء به وضرب الأمثال القبيحة له، والتعبير عن تلك المعاني التي لا أحسن منها بألفاظ منكرة ألقوها في مسامع المغترين والمخدوعين فوصلت إلى قلوبهم فنفرت منه وهذا شأن كل مبطل»[2].

---

(١) سورة النجم، الآية [٢٣]، إعلام الموقعين لابن القيم ٣/١٣٠.

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم، ٣/٩٤٤.

فمن هذه المصطلحات «الأصولية» الذي نشأ في الغرب ونقل إلى العالم الإسلامي – ظلماً وعدواناً –، فالخلفية التاريخية الموجودة في أذهان الغربيين تجعلهم إذا سمعوا عن الأصولية (Fundamentalism) تمتلئ أذهانهم رعباً نفرة بسبب المعاملات الهمجية التي اقترفها النصارى باسم الدين حيث حوربت الإنسانية والتقدم العلمي والتطور، فالأصولية غير محمودة لأنها رجوع إلى أصل الإنجيل المحرف المليء بالضلالات والانحرافات المخالفة للعقل المناوئ للعلم المليء بالأخبار الكاذبة، فاختيار هذا المصطلح وإسقاطه على المسلمين أو على طائفة منهم لا يخلو من غرض، أما الأصولية بمعنى الرجوع إلى القرآن فأمر محمود[1].

وكذلك مصطلح الرجعية التي فيها إشارة إلى الرجوع إلى القرون التي كانت قمة التخلف في التاريخ الأوروبي وهي القرون الوسطى وليس الأمر في التاريخ الإسلامي كذلك، بل كانت تلك القرون قرون حضارة وتقدم ورقي.

وهناك مصطلحات أخرى تخالف في دلالتها عقيدة الإسلام والشريعة ولكن قام بعض الدعاة بحسن نية بإضافتها إلى الإسلام ظنا منهم أن ذلك سيخرجها من معانيها الأصلية التي وضعت له ويجعلها متوافقة مع الإسلام، والحق أن كل لفظ يحمل اصطلاحا موجوداً معناه في الإسلام فلا مانع شرعاً من جواز استعماله بذكره أو بالدعوة إليه، أما إذا كان الاصطلاح يخالف معناه ما في الإسلام من معان فلا يجوز ذكره على سبيل الدعوة إليه وإن قيد بوصف إسلامي كاليسار الإسلامي أو اليمين الإسلامي أو اشتراكية الإسلام... لأنه تعبير وضع في الأصل لفكر معين أو لنظام خاص عُرف به أصحابه وحملته[2].

---

(١) انظر الغلو في الدين في حياة المسلين المعاصرة، عبد الرحمن اللويحق، ص١٩٠.

(٢) انظر حكم الإسلام في الاشتراكية، عبد العزيز البديري، ص ١٢٥.

فمصطلح الاشتراكية التي تعني اصطلاحاً معيناً وهو نظام اقتصادي يقوم على تحقيق المساواة في كل شيء بين الأفراد وعلى إلغاء الملكية الفردية كلياً أو جزئياً وعلى أن الفرص الخاصة والإرث ليس من أسباب التملك المشروعة وعلى أن الأرض أي أرض ملك للدولة، وعلى فكرة التأميم... الخ، وبالتالي فإن لهذا النظام عقيدة انبثق عنها وهي العقيدة المادية الإلحادية، هذه معاني لفظة الاشتراكية وهذا مدلولها الواقعي والفكري فحين تطلق هذه اللفظه — الاشتراكية — فإن تلك المعاني تذهب حالاً إلى الذهن، ولا شك أن هذه المعاني كلها للفظة الاشتراكية مناقضة للفطرة البشرية ومخالفة لعقيدة الإسلام ونظامه.

لذلك لا يجوز شرعاً استعمال لفظة الاشتراكية بالدعوة إليها وإن سميت اشتراكية إسلامية أو اشتراكية الإسلام لأن وصفها بالإسلامية لا يخرج معانيها المقررة في الذهن، وإنما العكس فإن استعمالها بالدعوة إليها يثبت تلك المعاني في الأذهان ويوهم بموافقتها للإسلام وهذا عين الخطأ والتسليم بهزيمة الإسلام والطعن في العقيدة الإسلامية وهذا لا يريده المخلصون للإسلام والمؤمنون به عقيدة ونظاماً[١]؛ لأن «الإسلام هو الإسلام والاشتراكية هي الاشتراكية والديمقراطية هي الديمقراطية وذلك منهج الله ولا عنوان له ولا صفة إلا العنوان الذي جعله الله له صفة، والصفة التي وصفه الله بها وهذه وتلك من مناهج البشر ومن تجارب البشر وإذا اختاروها فليختاروها على هذا الأساس»[٢].

---

(١) انظر حكم الإسلام في الاشتراكية، عبد العزيز البديري، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) طريق الدعوة في ظلال القرآن، جمع وإعداد أحمد فائز ١/١٦٨، الناشر الراية المتحدة بيروت ١٩٧٨م.

وهناك مصطلحات كثيرة لم نتعرض لها كالديمقراطية والمبدأ والدستور والموضوعية والإرهاب والتراث والماضوية والاستنارة واليسار واليمين... وغيرها من المصطلحات التي يتعين معرفتها وتميزها، لأن طبيعة البحث تقتضي عدم التوسع في ذلك[1].

---

(١) للاستزادة ينظر في:

١. فقه النوازل (المواضعة في الاصطلاح) بكر أبو زيد من ص ١٠١-١٩٦، مكتبة الرشد بالرياض ط١ ١٤٠٧هـ.

٢. إحياء علوم الدين (بيان ما بُدِّل من ألفاظ العلوم) للإمام الغزالي ص ٥٣-٦٥ طبعة دار الفكر، ط١١ ١٣٩٥هـ.

٣. الرأي العام دراسة في المفهوم والوظائف، د. محمد الخرعان ص ٥-٢٤ طبعة كنوز إشبيليا، ط١ ١٤٢٦هـ.

٤. منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، د. خليل الحدري ص ٢٣٩-٢٤٥، طبعة دار عالم الفكر ط١ ١٤٢٥هـ.

٥. منهج ابن تيمية في الدعوة إلى الله، د. عبد الله الحوشاني ص ٦٥-٩٤. طبعة دار إشبيليا الرياض ط١ ١٤١٧هـ.

٦. مناهج البحث في العقيدة الإسلامية، د عبد الرحمن الزنيدي ص ٥٠٦. طبعة مكتبة المؤيد ط١ ١٤١٢هـ.

٧. دفاع عن ثقافتنا للأستاذ جمال سلطان ص ٢٤-٤٤. طبعة دار الوطن، ط١ ١٤١٢هـ.

٨. تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية للأستاذ إبراهيم عقيلي ص ١٢٠. طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط١ ١٤١٥هـ.

٩. حكم الإسلام في الاشتراكية، للشيخ عبد العزيز البدري ص ١٢٢-١٤٩. طبعة المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ط٢ ١٣٨٤هـ.

١٠. المذهبة الإسلامية والتعبير الحضاري، د. محسن عبد الحميد ص ١٧-٢١. كتاب الأمة قطر، ط١ ١٤٢٠هـ.

١١. وسائل الدعوة إلى الله وأساليبها، د حسين عبد المطلب ص٦-١٩. طبعة دار إشبيليا، ط١ ١٤٢٠هـ.

١٢. أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، د حمد العمار ص ٥٩٤-٦٠٥. طبعة دار إشبيليا، ط٣ ١٤١٨هـ.

١٣. تأصيل الحوار الديني (تأصيل المصطلحات وتحديد الضوابط الشرعية)، د. محمد الفاضل بن علي اللافي، طبعة دار المملكة لنشر والتوزيع المنصورة، ط١ ١٤٢٥هـ.

١٤. توظيف المصطلح في الصراع الحضاري، د. عبد الرحمن اللويحق، مجلة جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية العدد ٤٤ شوال ١٤٢٤هـ ص ٣٠١-٣٧٥.

١٥. منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه، لمحمد صالح السلمي ص ٢٤٥ -٢٤٩. مطبعة دار الوفاء للطباعة والنشر ط١ ١٤٠٨هـ.

١٦. تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، د. محمد أحزون ص ٨٧-٨٩، مطبعة دار السلام – القاهرة، ط١ ١٤٢٦هـ.

١٧. منهاج الحياة الإسلام، د. محمد زين الهادي ص١١٨-١٢٠، مطبعة دار العاصمة الرياض، ط١ ١٤٠٨هـ.

الفصل الرابع

من منهج ابن كثير الدعوي
تقديم قول الصحابي على غيره

ويحتوي على خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الصحابي.

المبحث الثاني: حجية قول الصحابي.

المبحث الثالث: عدالة الصحابة وما انفردوا به عن غيرهم.

المبحث الرابع: المدارك التي شاركهم غيرهم فيها.

المبحث الخامس: ترجيح ابن كثير قول الصحابة على غيرهم من الناس.

المبحث الأول

تعريف الصحابي

تعريف الصحابي لغة:

مشتق من الصحبة تقول صحبه صحبةً وصحابةً، وصحبه إذا رافقه، ويقال في الدعاء صحبك الله أي حفظك ورافقتك عنايته فالصاحب هو المرافق والصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام ويُجْمَع على صحابة[1].

وقال السخاوي[2]: «الصحابي لغة: يقع على من صحب أقل ما يطلق عليه اسم الصحبة، فضلاً عمن طالت صحبته وكثرت مجالسته»[3].

تعريف الصحابي اصطلاحاً:

وأما في الاصطلاح فهو عند جمهور الأصوليين «من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ولو ساعة سواء روى عنه أم لا»[4].

---

(١) انظر المعجم الوسيط مادة (صحب).

(٢) هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد شمس الدين السخاوي مؤرخ حجة وعالم بالحديث والتفسير، وأصله من سخا (من قرى مصر) ومولده في القاهرة ووفاته بالمدينة، ساح في البلدان سياحة طويلة وصنف زهاء مائتي كتاب، أشهرها: "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع"، وله شرح ألفية العراقي في مصطلح الحديث، والمقاصد الحسنة وغير ذلك توفي سنة ٩٠٢هـ. الأعلام ٦/١٩٤.

(٣) فتح المغيث في شرح ألفية الحديث، محمد بن عبد الرحمن السخاوي: تحقيق وتعليق علي حسين علي ٤/٧٧ طبعة مكتبة الإيمان بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

(٤) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني، ١/٣٤١، طبعة دار الفضيلة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

وقال السبكي[١]: «والصحب جمع صاحب وهو كل من رأى النبي ﷺ، وقيل من طالت مجالسته»[٢]، وهذا التعريف يخرج عبدالله بن أم مكتوم[٣] ومن على شاكلته وأما الصحابي عند أهل الحديث فقد قال ابن الصلاح[٤] حكاية عن

---

(١) هو علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري الخزرجي وهو والد التاج السبكي صاحب الطبقات، ولد في سبك (من أعمال المنوفيه بمصر) وانتقل إلى القاهرة ثم إلى الشام وولي قضاء الشام سنة ٧٣٩ هـ، واعتل فعاد إلى القاهرة فتوفي فيها، من كتبه: "الدر النظيم في التفسير" لم يكمله، و"الابتهاج في شرح المنهاج". توفي سنة ٧٥٦هـ. الأعلام ٤/٣٠٢.

(٢) الابتهاج في شرح المنهاج للسبكي علي بن عبد الكافي ١/١٥، حققه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤٠٤هـ.

(٣) هو عمرو بن قيس بن زائده بن الأصم، صحابي، ونسب إلى أمه أم مكتوم عاتكه بنت عبد الله من بني مخزوم ابن يقظه، شجاع، كان ضرير البصر، أسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر، وكان مؤذن الرسول ﷺ في المدينة مع بلال، وكان النبي ﷺ يستخلفه على المدينة، يصلي بالناس في عامه غزواته، وحضر حرب القادسية ومعه راية سوداء عليه درع سابغة فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفي بها قبيل وفاة عمر بن الخطاب سنة ٢٣هـ. الأعلام ٥/٨٣.

(٤) هو عثمان بن عبد الرحمن « صلاح الدين » ابن عثمان بن موسى بن أبي النصر النصري السهرزوري الكردي الشرخاني أبو عمرو تقي الدين المعروف بابن الصلاح، أحد الفضلاء المقدمين في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال، ولي التدريس في الصلاحية وانتقل إلى دمشق فولاه الملك الأشرف تدريس دار الحديث وتوفي فيها سنة ٦٤٣هـ، له كتاب: "معرفة أنواع الحديث"، يعرف بمقدمة ابن الصلاح. الأعلام ٤/٢٠٧.

أبي المظفر السمعاني[١] أنه قال: «أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابي على كل من روى عنه حديثاً أو كلمة، ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية من الصحابة، وهذا لشرف منزلة النبي ﷺ أعطوا كل من رآه حكم الصحبة»[٢].

وقال سيد التابعين سعيد بن المسيب رضي الله عنه: «الصحابي من أقام مع النبي ﷺ سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين»[٣]، وقال بدر الدين بن جماعة[٤]: «وهذا ضعيف لأنه يقتضي أنه لا يعد جرير

---

(١) هو منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي أبو المظفر مفسر، من العلماء بالحديث من أهل مرو مولداً ووفاة، كان مفتي خراسان، قدمه نظام الملك على أقرانه في مرو، له تفسير السمعاني، توفي سنة ٤٨٩هـ. الأعلام ٣٠٣/٧.

(٢) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث للإمام أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح ص ١٤٦، منشورات دار الحكمة بدمشق ١٣٩٢هـ.

(٣) الكفاية في علم الرواية للإمام أبي بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي ص٥٠ طبعة دار الكتب العلمية، و تدريب الراوي في شرح تقريب النوادي لجلال الدين السيوطي ٦٦٩/٢-٦٧٠، حققه أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي طبعة مكتبة الكوثر بالرياض، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

(٤) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي بدر الدين أبو عبدالله، قاض من العلماء بالحديث وسائر علوم الدين، ولد في حماه وولي الحكم والخطابة بالقدس ثم القضاء بمصر فقضاء الشام ثم قضاء مصر إلى أن شاخ وعمي، كان من خيار القضاة وتوفي بمصر سنة ٧٣٣هـ. له تصانيف منها: "المنهل الروي"، و"تذكرة السامع"، و"المتكلم في آداب العالم والمتعلم"، الأعلام ٢٩٧/٥.

ابن عبدالله البجلي ووائل بن حُجْر[١] وأضرابهما من الصحابة ولا خلاف أنهم صحابة»[٢]، وقال العراقي[٣]: «لا يصح هذا عن سعيد بن المسيب ففي الإسناد إليه محمد بن عمر الواقدي[٤] شيخ ابن سعد ضعيف في الحديث»[٥].

وقد علق ابن كثير على تعريف ابن المسيب للصحابي فقال: «وهذا إنما نفى فيه الصحبة الخاصة، ولا ينفي ما اصطلح عليه الجمهور من أن مجرد الرؤية

---

(١) هو وائل بن حُجْر الحضرمي القحطاني أبو هنيدة من أقيال حضرموت وكان أبوه من ملوكهم، وفد على النبي ﷺ فرحب به وبسط له رداءه فأجلسه معه عليه وقال: **(اللهم بارك في وائل وولده)**، واستعمله على أقيال حضرموت وأعطاه كتاباً للمهاجر بن أبي أمية وكتاباً للأقيال والعباهلة وأقطعه أرضاً وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان إلى قومه يعلمهم القرآن والإسلام ثم شارك في الفتوح ونزل الكوفة، واستقر بها توفي سنة ٥٠ هـ، الأعلام ١٠٦/٨.

(٢) تدريب الراوي ٢١١/٢.

(٣) هو عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن أبو الفضل زين الدين المعروف بالحافظ العراقي، من كبار حفاظ الحديث أصله من كرد ومولده في رازان (من أعمال إربل) تحول صغيراً مع أبيه إلى مصر فتعلم ونبغ فيها، وقام برحلة إلى الحجاز والشام وفلسطين وعاد إلى مصر فتوفي في القاهرة سنة ٨٠٦هـ. من كتبه الألفية في مصطلح الحديث وشرحها فتح المغيث، الأعلام ٢٤٤/٣.

(٤) سبقت ترجمته ص٧٣.

(٥) تدريب الراوي ٦٦٩/٢، ٦٧٠.

كاف في إطلاق الصحبة، لشرف النبي ﷺ وجلالة قدره وقدر من رآه من المسلمين»[١].

ولذلك نجد ابن كثير يُعَرِّف الصحابي: «بأنه من رأى النبي ﷺ في حال إسلام الرائي وإن لم تطل صحبته، وإن لم يرو عنه شيئاً»، وزاد «وهذا قول جمهور العلماء خلفاً وسلفاً»[٢].

والذي يظهر لي والله أعلم أن الراجح في تعريف الصحابي قول من قال بأنه من لقي النبي ﷺ في حياته ومات على إسلامه، والذي هو قول جمهور المحدثين قال ابن حجر: «وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغزُ، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى، إلى أن قال: وهذا التعريف مبني على الأصح المختار عند المحققين كالبخاري وشيخه أحمد بن حنبل، ومن تبعهم ووراء ذلك أقوال أخرى شاذة»[٣].

---

(١) الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث لابن كثير، تأليف أحمد محمد شاكر ص١٨٠، طبعة مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة ط٣، ١٣٧٠هـ.

(٢) المرجع نفسه ص١٧٩.

(٣) الإصابة ١/١٠-١٢.

من هذه الأقوال الشاذة الساقطة في تعريف الصحابي هو قول أحد المعاصرين: «الصحبة الشرعية لا تكون إلا في المهاجرين والأنصار الذين كانوا مع النبي ﷺ في المدينة من بداية الهجرة إلى زمن الحديبية ويدخل في هؤلاء السابقون بالإسلام الذين توفوا في مكة قبل الهجرة أو في الحبشة=

=أو قدموا بعد الحديبية من مهاجرة الحبشة فقط ، والصحبة العامة التي مرجعها العرف واللغة ، فهذه يدخل فيها كل من صحب النبي ﷺ من المسلمين أو المنافقين أو الكفار ، والذي يدخل من صحب النبي ﷺ صحبة يسيرة ؛ لاحتمال اللغة ذلك لا يستطيع إخراج صحبة المنافق لا لغة ولا عرفاً ؛ لأن اللغة والعرف يحتملان ذلك أيضاً. فإن قال المخرج للمنافق أو الكافر إنما أخرجناهما من الصحبة بالشرع قلنا له ونحن إنما حددنا الصحبة الشرعية بالمهاجرين والأنصار بالشرع أيضاً ، فإن تمسكت بمطلق اللغة فقد أدخلت على النبي ﷺ ، وإن قلت إن اللغة ليست حجة على الشرع قلنا كذلك في الصحبة الشرعية والعرف حكمه حكم اللغة ، وإن كان أقوى دلالة من اللغة (محاضرة ألقاها حسن فرحان المالكي بعنوان الصحابة بين الصحبة اللغوية والصحبة الشرعية في أحدية « ديوانية » د. راشد المبارك يوم الأحد ١٤١٩/١١/٢٦هـ).

ولا شك أن هذا الكلام اشتمل على مغالطات كثيرة منها :

١. قصر الصحبة الشرعية على المهاجرين والأنصار قبل الحديبية.

٢. أن كل من صحب الرسول ﷺ بعد فتح مكة سواء من الطلقاء أو العتقاء وأصحاب الوفود لا يعد صحابياً وصحبته المضافة إليه لغوية كصحبة المنافقين والكفار.

٣. أن أولاد المهاجرين والأنصار ليس لهم حكم المهاجرين والأنصار.

٤. أن من صحب النبي ﷺ بعد الحديبية وقبل فتح مكة من أصحابه تعتبر صحبته لغوية التي هي شبيهة بصحبته المنافقين والكفار.

٥. وعلى هذا فعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأبو سفيان وابنه معاوية رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم ممن أسلم بعد الحديبية وقبل الفتح ليسوا من الصحابة !!!، وقد اعتمد في قوله هذا على شبهة باطلة واستدلالات ضعيفة ومنكرة ، وأحسب أن هذا القول الباطل لم يسبقه إليه أحد وقد رد عليه فضيلة الشيخ الدكتور عبد المحسن العباد الأستاذ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في رسالة بعنوان « الانتصار للصحابة الأخيار.. في رد أباطيل حسن المالكي » وتقع في ١٤٨ صفحة ، وقد طبعت في دار ابن عفان بالقاهرة ط١ ١٤٢٢هـ.

معرفة الصحابي:

يعرف الصحابي بأحد الأمور التالية:

أولاً: التواتر وهو رواية جمع عن جمع يستحيل عادة تواطؤهم على الكذب، وذلك كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية العشرة المبشرين بالجنة ﷺ.

ثانياً: بالشهرة أو الاستفاضة القاصرة عن حد الشهرة كما في أمر ضمام بن ثعلبة[١] وعكاشة بن محصن[٢].

ثالثاً: أن يروى عن آحاد الصحابة أنه صحابي كما في حممة بن أبي حممة الدوسي[٣] الذي مات بأصبهان مبطوناً فشهد له أبو موسى

---

(١) ضمام بن ثعلبة أحد بني بكر بن سعد السعدي، قدم على النبي لما بعثه قومه بنو سعد وافدا، قيل إن ذلك في سنة خمس وقيل سبع، وقيل تسع، فسأله عن الإسلام فأسلم، ثم رجع إليهم فأسلموا، وفي حديثه وصف الإسلام ودعائمه وأنه من أتى بها دخل الجنة، قال ابن عباس ما سمعنا بوافد قط أفضل من ضمام بن ثعلبة. الاستيعاب لابن عبد البر ١/٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي من بني غنم صحابي من أمراء السرايا، يعد من أهل المدينة شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ وقتل في حرب الردة ببزاخة (بأرض نجد)، قتله طلحة بن خويلد الأسدي سنة ١٢هـ، الأعلام ٤/٢٤٤.

(٣) حممة بن أبي حممة هو رجل من أصحاب ﷺ، ذكر ابن المبارك في كتاب الجهاد قال أخبرنا أبو عوانة عن داود بن عبد الله بن حميد بن عبد الرحمن قال: كان رجل يقال له حممة من أصحاب محمد ﷺ، خرج إلى أصبهان غازيا في خلافة عمر، فقال: (اللهم إن حممة يزعم أنه يحب لقاءك فإن كان حممة صادقاً فاعزم عليه وصدقه، اللهم لا ترد حممة من سفره هذا)، قال فأخذه بطنه فمات بأصبهان فقام أبو موسى الأشعري فقال: (يا أيها الناس ألا وإنا والله فيما سمعنا من نبيكم ﷺ وفيما بلغنا علمه أن حممة شهيد). الاستيعاب في أسماء الأصحاب، يوسف ابن عبد البر ٢/٣٩٢ (مطبوع بهامش الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن علي العسقلاني) طبعة دار الفكر ببيروت ١٣٩٨هـ.

الأشعري[١] أنه سمع من النبي ﷺ حكم له بالشهادة.

رابعاً: أن يخبر أحد التابعين بأنه صحابي بناء على قبول التزكية من واحد عدل وهو الراجح.

خامساً: أن يُخبر هو عن نفسه بأنه صحابي بعد ثبوت عدالته ومعاصرته، فيعتبر بمضي مائة سنة وعشر سنين من هجرة النبي ﷺ فإنه بعد ذلك لا يقبل ادعاؤه بأنه رأى النبي ﷺ أو سمعه لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: **«أريتكم ليلتكم هذه فإنه على رأس مائه سنة منه لا يبقى أحد ممن على ظهر الأرض)**[٢]، يريد بهذا إنخرام ذلك القرن وقد قال النبي ﷺ ذلك في سنة وفاته ومن هذا المأخذ لم يقبل الأئمة قول من ادعى الصحبة بعد الغاية المذكورة[٣].

---

(١) عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب أبو موسى من بني الأشعر من قحطان، صحابي من الشجعان الولاة الفاتحين وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين، استعمله الرسول ﷺ على زبيد وعدن وولاه عمر بن الخطاب البصرة سنة ١٧هـ، ولما ولي عثمان أقره عليها ثم عزله فانتقل إلى الكوفة فطلب أهلها من عثمان توليته عليهم فولاه فأقام بها إلى أن قتل عثمان فأقره علي، توفي سنة ٤٤هـ، الأعلام ٤/١١٤.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة باب ذكر العشاء والعتمة حديث رقم ٥٦٤، ومسلم في صحيحه ٤/١٩٦٥ كتاب فضائل الصحابة باب بيان معنى قوله ﷺ: **(على رأس مائه سنة لا تبقى نفس منفوسه ممن هو موجود الآن)** حديث رقم ٢٥٣٧.

(٣) انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ١/١٥، تحقيق عادل الموجود وعلي معوض، طبعة دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤١٥هـ.

المبحث الثاني

حجية قول الصحابي

قول الصحابي هو دليل من أدلة الأحكام، وهو بالنسبة لمن بعد عصر الصحابة إما أن يكون فيما لا مجال فيه للرأي والاجتهاد فهذا في حكم المرفوع إلى النبي ﷺ في الاستدلال والاحتجاج، وفي تقديمه على الناس وتخصيص النص به[١]، وإما أن يكون مما للرأي والاجتهاد فيه مجال فهذا لا يخلو من ثلاثة أمور:

الأول: أن ينتشر بين الصحابة ولم يظهر له مخالف فهذا هو الإجماع السكوتي وهو حجة عند جماهير العلماء[٢].

الثاني: أن ينتشر بين الصحابة ويظهر له مخالف فهذا ليس بحجة والواجب في هذا الحال عند أكثر العلماء التمييز بين أقوال الصحابة بحسب الدليل[٣].

الثالث: أن لا ينتشر بين الصحابة أو لا يعلم هل انتشر أم لا ولم يظهر مخالف، فهذا موضع خلاف بين العلماء وجمهور الأمة بما فيهم الأئمة الأربعة على أنه حجة بشرط أن لا يخالف نصاً ولا قياساً، واستدلوا على ذلك بما ورد

---

(١) انظر إعلام الموقعين عن رب العالمين لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم ٤/١٥٣، طبعة دار الجيل بيروت بدون تاريخ.

(٢) انظر مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ٢٠/١٤، جمع وترتيب عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم طبعة دار عالم الكتب بالرياض ١٤١٢هـ، وشرح الكوكب المنير، محمد ابن أحمد بن النجار ٢/٢١٢، تحقيق محمد الزحيلي ونزيه حماد، طبعة دار الفكر بدمشق ١٤٠٠هـ و إعلام الموقعين ٤/١٢٠

(٣) انظر الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعي ص٥٩٦-٥٩٧، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٣٥٨هـ، وأعلام الموقعين ٤/١١٩.

من النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة تدل على فضلهم وعدالتهم وتزكيتهم وبيان علو منزلتهم كقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[3].

وقول الرسول ﷺ: **(لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)**[4]، وقوله ﷺ: **(خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)**[5]، ولعل هذا القول هو القول الراجح؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم أبر الأمة قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً فقد حضروا التنزيل وسمعوا كلام رب

---

(١) سورة التوبة، الآية [١٠٠].

(٢) سورة ال عمران، الآية [١١٠].

(٣) سورة الفتح، الآية [١٨].

(٤) متفق عليه وأخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذا خليلاً رقم ٣٦٧٣، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة بلفظ: **(لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)** رقم (٢٥٤١)

(٥) أخرجه البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ومن صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه رقم (٣٦٥٠).

العالمين فهم أعلم بالتأويل وأعرف بالمقاصد، وقد خصهم الله بتوقد الأذهان وفصاحة اللسان وسعة العلم وسهولة الأخذ، فالعربية سليقتهم والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرتهم وعقولهم، ولا حاجة بهم إلى النظر في قواعد الأصول وأوضاع الأصوليين، بل قد غنوا عن ذلك كله فليس في حقهم إلا أمران:

أحدهما: قال الله تعالى كذا وقال رسوله ﷺ كذا.

الثاني: معناه كذا وكذا، وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين وأحظى الأمة بهما فقواهم متوفرة مجتمعة، عليهما لهذا كان قولهم أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ[1].

الاحتجاج بأقوال الصحاب في التفسير:

الصحابة هم أعلم الناس بعد النبي ﷺ بألفاظ القرآن ومعانيه؛ وذلك لأنهم صحبوا النبي ﷺ وعاصروا التنزيل، يقول ابن كثير: «إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحاب، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماءهم وكبراءهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين المهديين وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه... ومنهم الحبر البحر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما»[2].

---

(١) انظر موفق الدين ابن قدامة روضة الناظر وجنة المناظر لموفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامه ٢/٥٢٧، حققه عبد الكريم بن علي النملة، طبعة مكتبة الرشد بالرياض ط٧، ١٤٢٤هـ. وانظر: أعلام الموقعين لابن القيم ٤/١٤٨-١٤٩، مرجع سابق.

(٢) التفسير ١/١٠-١١.

فقول الصحابي يجب الأخذ به إذا كان مما ليس للرأي فيه مجال كأسباب النزول ونحوها وهذا يعتبر من قبيل المرفوع ولا يجوز رده اتفاقاً، أما إذا كان مما للرأي والاجتهاد فيه مجال فهو موقوف على الصحابي ما دام لم يسنده إلى النبي ﷺ، لكن يجب الأخذ به أيضاً على القول الراجح وذلك لعدة أمور:

منها احتمال سماعهم من النبي ﷺ، ومنها أنهم إن فسروا برأيهم فرأيهم أقرب للصواب، لأن القرآن نزل بلغتهم ولبركة الصحبة ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ولما منحهم الله تعالى من الحرص الشديد على تعلم أمور دينهم، ولما لهم من العدالة التامة، وهم وإن كانوا غير معصومين من الخطأ فاحتمال وجود الخطأ منهم أقل من غيرهم واجتهادهم أقرب للحق والصواب من اجتهاد غيرهم، فلهم الميزة في الفضل والسبق والإيمان وقلة الاختلاف والحرص الشديد على دينهم مما ليس لغيرهم من المجتهدين، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في القرآن الكريم المهاجرين منهم والأنصار ومدحهم بما هم أهله فلا مقارنة بينهم وبين غيرهم من سائر المجتهدين[1].

من اشتهر من الصحابة بالتفسير:

الصحابة في التفسير مختلفون بين مقل ومستكثر وقد اشتهر منهم عشرة وهم الخلفاء الراشدون وابن مسعود وابن عباس[2] وأبي بن

(١) انظر التفسير المفسرون محمد حسين الذهبي ١/٧٢ الناشر مكتبة وهبه، القاهرة، ط٨، ١٤٢٤هـ، وانظر منهج ابن كثير في التفسير للاحم ص ٢٧٥-٢٧٦ مرجع سابق.

(٢) سبقت ترجمته ص٨٢.

كعب[١] وزيد بن ثابت[٢] وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير[٣] رضي الله عنهم أجمعين، وأكثر هؤلاء العشرة رواية عبد الله بن عباس ثم عبد الله بن مسعود ثم علي بن أبي طالب ثم أبي بن كعب رضي الله عنهم فهؤلاء الأربعة هم أعلام التفسير من الصحابة ثم يأتي بقية العشرة وهذا لا يعني أن بقية الصحابة ليس لهم حظ في التفسير فقد جاء في تفسير القرآن أشياء من أمهات المؤمنين عائشة[٤]

---

(١) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد من بني النجار من الخزرج أبو المنذر، صحابي أنصاري، كان من كتاب الوحي، وشهد بدراً وأحد و الخندق والمشاهد كلها مع النبي ﷺ، وكان يفتي على عهده، وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية، وأمره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه وكان نحيفاً قصيراً أبيض الرأس واللحية، مات بالمدينة سنة ٢١هـ، الأعلام ١/٨٢.

(٢) هو زيد بن ثابت الضحاك بن زيد الإمام الكبير، كاتب الوحي، وكان أحد الأذكياء، فلما هاجر النبي ﷺ أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة، وقد أمره النبي ﷺ أن يتعلم خط اليهود ليقرأ كتبهم، وهو من الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ وأمره أبو بكر أن يجمعه واعتمد عليه في كتابة القرآن في صحف، وجمعه من أفواه الرجال ومن الأكتاف والرقاع، توفي سنة ٥٦هـ. سير أعلام النبلاء ٢/٤٢٦. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، طبعة مؤسسة الرسالة الحادية عشرة ١٤٢٢هـ.

(٣) عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي وأول مولود في المدينة بعد الهجرة، وبويع له بالخلافة سنة ٦٤هـ عقيب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام وجعل قاعدة ملكه المدينة، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة حتى سيَّرُوا إليه الحجاج الثقفي في أيام عبد الملك بن مروان ونشبت بينهما حروب انتهت بمقتله في مكة وهو في عشر الثمانين ومدة خلافته تسع سنين وقتل سنه ٧٣هـ، الأعلام ٤/٨٧.

(٤) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن عثمان من قريش أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب، كانت تكنى بأم عبد الله، تزوجها النبي ﷺ في السنة الثانية بعد الهجرة، كانت أحب نسائه إليه وأكثرهن رواية للحديث عنه ولها خطب ومواقف، وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض فتجيبهم، توفيت بالمدينة سنة ٥٨هـ. الأعلام ٣/٢٤٠.

وحفصة[١] وأم سلمة[٢] وأم حبيبه[٣] رضي الله عنهن وكذلك عن أبي هريرة وسلمان الفارسي[٤] وسعد ابن أبي

---

(١) هي حفصة بنت عمر بن الخطاب صحابية جليلة صالحة من أزواج النبي ﷺ ولدت بمكة وتزوجها خنيس بن حذافة السهمي فكانت عنده إلى أن ظهر الإسلام، فأسلما، وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها فخطبها النبي ﷺ من أبيها فزوجه إياها سنة اثنتين أو ثلاث من الهجرة واستمرت في المدينة بعد وفاة النبي ﷺ إلى أن توفيت بها سنة ٤٥هـ، الأعلام ٢/٢٦٤-٢٦٥.

(٢) هي هند بنت سهيل المعروف بأبي أمية المخزومية أم سلمة من زوجات الرسول ﷺ تزوجها في السنة الرابعة للهجرة وكانت من أكمل النساء عقلاً وخلقاً، هاجرت مع زوجها إلى الحبشة وولدت له ابنه سلمة ورجعا إلى مكة ثم هاجرا إلى المدينة، ومات أبو سلمة فخطبها الرسول ﷺ وتزوجها، وكان لها يوم الحديبية رأي أشارت به على النبي ﷺ دل على وفور عقلها، وكانت وفاتها بالمدينة سنة ٦٢هـ، الأعلام ٨/٩٧-٩٨.

(٣) هي رملة بنت أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أميه صحابية جليلة من أزواج النبي ﷺ وهي أخت معاوية كانت من فصيحات قريش وهي من ذوات الرأي والحصافة، تزوجها أولاً عبيد الله بن جحش وهاجرت معه إلى أرض الحبشة (في الهجرة الثانية)، ثم ارتد عبيدالله عن الإسلام فأعرضت عنه إلى أن مات، فأرسل إليها النبي ﷺ يخطبها وعهد للنجاشي ملك الحبشة بعقد نكاحه عليها وذلك سنة ٧هـ ولها من العمر بضع وثلاثون سنة، وكان أبوها لا يزال على دين الجاهلية، فلما بلغه ما صنع الرسول ﷺ عجب له وقال ذلك الفحل لايقرع أنفه، توفيت بالمدينة سنة ٤٤هـ. الأعلام ٣/٣٣.

(٤) هو سلمان الفارسي صحابي من مقدميهم كان يسمى سلمان الإسلام، أصله من مجوس أصبهان، عاش عمراً طويلاً، ورحل إلى الشام فالموصل فنصبين فعمورية وقرأ كتب الفرس والروم واليهود، وقصد بلاد العرب فلقيه ركب من بني كلب فاستخدموه ثم استعبدوه وباعوه، فاشتراه رجل من بني قريظه فجاء به إلى المدينة، وعلم سلمان بخبر الإسلام فقصد النبي ﷺ بقباء وسمع كلامه، فأظهر إسلامه وكان قوي الجسم صحيح الرأي عالماً بالشرائع وغيرها، وهو الذي دلّ المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب. توفي سنة ٣٦هـ، الأعلام ٣/١١٢.

وقاص[١] وعبد الله بن عمر بن الخطاب[٢] وعبد الله بن عمرو بن العاص[٣] وأبي سلمة[٤] وأبي أيوب الأنصاري[٥] وسمرة بن

---

(١) هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري أبو إسحاق الصحابي الأمير فاتح العراق ومدائن كسرى وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وشهد بدراً وافتتح القادسية ونزل أرض الكوفة فجعلها خططاً لقبائل العرب وظل والياً عليها مدة خلافة عمر بن الخطاب، وأقره عثمان زمناً ثم عزله، فعاد إلى المدينة ومات فيها سنة ٥٥هـ، الأعلام ٣/٨٧.

(٢) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي أبو عبد الرحمن صحابي وهاجر إلى المدينة مع أبيه، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، ولما قتل عثمان عرض عليه نفر أن يبايعوه بالخلافة فأبى، وغزا أفريقية مرتين الأولى مع ابن أبي السرح والثانية مع معاوية بن حديج سنة٣٤هـ، وكف بصره آخر حياته وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة سنة ٧٣هـ، الأعلام ٤/١٠٨.

(٣) هو عبد الله بن عمرو بن العاص من قريش صحابي من النساك من أهل مكة، كان يكتب في الجاهلية ويحسن السريانية وأسلم قبل أبيه، فاستأذن النبي ﷺ أن يكتب ما يسمع منه فأذن له، وكان كثير العبادة حتى قال له الرسول ﷺ إن لجسدك عليك حقا، وكان يشهد الحروب والغزوات ويضرب بسيفين، وحمل راية أبيه يوم اليرموك وشهد صفين مع معاوية وولاه معاوية الكوفة مدة قصيرة، مات سنة ٦٥هـ، الأعلام ٤/١١١.

(٤) هو أبو سلمة بن عبد الأسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، السيد الكبير أخو النبي ﷺ من الرضاعة وابن عمته برّه بنت عبد المطلب، وأحد السابقين الأولين هاجر إلى الحبشة ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرا ومات بعدها بأشهر سنة ثلاث من الهجرة، سير أعلام النبلاء ١/١٥٠.

(٥) خالد بن زيد بن كلب بن ثعلبه أبو أيوب الأنصاري من بني النجار، صحابي شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد وكان شجاعاً صابراً تقياً محباً للغزو والجهاد، وكان يسكن المدينة فرحل إلى الشام ولما غزا يزيد القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية صحبه أبو أيوب غازياً فحضر الوقائع ومرض فأوصى أن يوغل به في أرض العدو فلما توفي دفن في أصل حصن القسطنطينية سنة٥٢هـ، الأعلام ٢/٢٩٥.

جندب[١] وأبي سعيد الخدري[٢] وعبد الرحمن بن عوف[٣] ومعاذ بن جبل[٤] رضي الله عنهم أجمعين[٥].

---

(١) هو سمرة بن جنب بن هلال الفزاري صحابي من الشجعان القادة، نشأ في المدينة ونزل البصرة فكان زياد يستخلفه عليها إذا سار إلى الكوفة، ولما مات زياد أقره معاوية عاماً أو نحوه ثم عزله، وكان شديداً على الحرورية مات بالكوفة وقيل بالبصرة سنة٦٠هـ، الأعلام ١٣٩/٣.

(٢) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي أبو سعيد صحابي، كان من ملازمي النبي ﷺ وروى عنه أحاديث كثيره، غزا اثنتي عشرة عزوة، توفي في المدينة سنة ٧٤هـ، الأعلام ٨٧/٣.

(٣) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث أبو محمد الزهري القرشي، صحابي من أكابرهم وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وأحد السابقين إلى الإسلام، وكان من الأجواد الشجعان العقلاء اسمه في الجاهلية عبد الكعبة أو عبد عمرو وسماه النبي ﷺ عبدالرحمن، وأسلم وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها وجرح يوم أحد [٢١] جراحة، وأعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً، وكان يحترف التجارة والبيع والشراء، توفي سنة٣٢هـ، الأعلام ٣٢١/٣.

(٤) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن صحابي جليل، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ، أسلم وهو فتى وآخى الرسول ﷺ بينه وبين جعفر بن أبي طالب، وشهد العقبة مع الأنصار السبعين، وشهد بدراً وأحد والخندق والمشاهد كلها، وبعثه النبي ﷺ بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً لأهل اليمن، فبقي في اليمن إلى أن توفي النبي ﷺ وولي أبو بكر فعاد إلى المدينة، ثم كان مع أبو عبيدة بن الجراح في غزو الشام، توفي سنة١٨هـ، الأعلام ٧/ ٢٥٨.

(٥) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١٨٧/٢، والتفسير والمفسرين ٤٩/١ مرجع سابق.

المبحث الثالث

عدالة الصحابة وما انفردوا به عن غيرهم

سبق وأن ذكرنا بعضاً من النصوص في الكتاب والسنة الدالة على فضل الصحابة ومنزلتهم العالية وعدالتهم، والتي يفهم منها ومن غيرها من النصوص الكثيرة والمتواترة وجوب محبتهم وتعظيمهم وحرمة سبهم وتنقصهم والإساءة إليهم، وأن الله سبحانه وتعالى جعل أمر تعديلهم لنفسه عز وجل ولرسوله ﷺ، ولم يجعل ذلك لأحد من المسلمين، فكل أحد يفتش عن عدالته إلا أصحاب النبي ﷺ وهذا ما أجمع عليه أهل السنة، يقول الخطيب البغدادي[1]: «عدالة الصحابة ثابتة بتعديل الله لهم وأخباره عن طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن»[2]، ثم حكى الإجماع على ذلك بقوله: «هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء»[3].

وقال ابن الصلاح: «ثم إن الأمة المسلمة مجتمعة على تعديل جميع الصحابة ومن لابس الفتن منهم، فكذلك بإجماع العلماء الذين يعتد بهم في الإجماع

---

(١) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبو بكر المعروف بالخطيب أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين، ومنشؤه ووفاته ببغداد، رحل إلى مكة وسمع بالبصرة والدينور والكوفة وغيرها وعاد إلى بغداد فقربه رئيس الرؤساء ابن مسلمة وزير القائم العباسي، كان فصيح اللهجة عارفاً بالأدب له مصنفات كثيرة من أفضلها: "تاريخ بغداد"، و"الكفاية في علم الرواية"، و"الجامع لأخلاق الراوي"، و"آداب السامع"، و"الفقيه والمتفقه"، وغيرها. مات سنة٤٦٣هـ، الأعلام ١/١٧٢.

(٢) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص ٤٦.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩.

إحساناً للظن بهم ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر وكان الله عز وجل أتاح الإجماع على ذلك لكونهم نقلة الشريعة والله أعلم»[١].

وقال ابن حجر: «اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذاذ من المبتدعة»[٢].

وليس المراد بالعدالة هنا عدم الوقوع في الذنوب والخطأ، فإن هذا لا يكون إلا لمعصوم، وإنما تعني تجنب الكذب والاحتراز منه في الرواية وغيرها، فقد علم الله تعالى أن شهداءه هؤلاء غير معصومين يقع منهم ما يقع من غير المعصومين من الذنوب ومن خطأ الاجتهاد، وأنه لذلك سيكون منهم اجتهاد في القتال واجتهاد في الأموال قد يكون فيه الخطأ الذي يؤجر عليه صاحبه، إلا أن من يجهل حكم الله في الاجتهاد سوف يؤاخذهم ويشنع عليهم بذلك، وأنه ستكون منهم عثرات وذنوب ولكن من لا يعرف حكم الله في الحسنات الماحية والمصائب المكفرة والتوبة و الاستغفار سوف يعدّون عليهم ذنوبهم ولا يذكرون لهم حسناتهم ولا توبتهم ولا استغفارهم، كما أن الله قد علم أن بعضاً من الحاقدين الذين دخلوا في الإسلام ليفسدوه كغلاة الروافض والسبئية، وأصحاب الأهواء والبدع من الخوارج والمعتزلة وغيرهم، كل هؤلاء سوف يستغلون جهل الجاهلين فيشنعون على الصحابة بهذه الأعمال، ثم إن بعضاً من هؤلاء سوف يُحرِّف ما يُرْوى عنهم بل ويفتري الكذب

---

(١) معرفة علوم الحديث لابن الصلاح ص٤٢٨ (مقدمة ابن الصلاح) ١/٦٥.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ص١١، طبعة بيت الأفكار الدولية عمان، الأردن بدون تاريخ.

عليهم، كما أن الله قد علم أن هدف بعض هؤلاء هو تجريح شهدائه وهم حملة تبليغ القرآن والسنة للتشكيك في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وهما الأصلان الضابطان لدينه وشرعه، قال أبو زرعة الرازي[1] شيخ الإمام مسلم: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب النبي ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ حق والقرآن الكريم حق وما جاء به حق وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقه»[2].

فأهل السنة يحبون أصحاب رسول الله ﷺ جميعاً ويترضون عليهم وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها ويعرفون لكلٍّ فضله وقدره، فلا يرفعونهم فوق منزلتهم التي لا يستحقونها ولا يقصرون بهم عنها، يقول الإمام الطحاوي[3]: «ونحن نحب أصحاب رسول الله ﷺ لا نفرط في حب أحد

---

(١) هو الإمام سيد الحفاظ عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد من خرّوج محدث الري، وطلب هذا الشأن وهو حدث وارتحل إلى الحجاز والشام ومصر والعراق والجزيرة وخراسان، وكتب ما لا يوصف كثرة، توفي أبو زرعة الرازي في آخر يوم من سنة أربع وستين ومائتين ومولده كان في سنة مائتين، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٧٧.

(٢) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص٩٧، والإصابة لابن حجر ١/ ١٠. وانظر تحقيق موقف الصحابة في الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين محمد أمحزون ص٩٥-٩٦ طبعة دار السلام القاهرة، ط١ ١٤١٦هـ.

(٣) هو أحمد بن محمد بن سلامه الأزدي الطحاوي أبو جعفر، فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، ولد ونشأ في طحا من صعيد مصر، وتفقه على مذهب الشافعي ثم تحول حنفياً، ورحل إلى الشام سنة٢٦٨هـ فاتصل بأحمد بن طولون فكان من خاصته، من تصانيفه: "شرح معاني الآثار ومشكل الآثار"، وغيرها، توفي بالقاهرة سنة ٣٢١هـ، الأعلام ١/ ٢٠٦.

منهم ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»[١]، وقال ابن أبي زيد القيرواني[٢] في مقدمة رسالته المشهورة: «وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدين المهديون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين وأن لا يذكر أحد من صحابة النبي ﷺ إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم حسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب»[٣].

وقال الإمام الذهبي: «كما تقرر الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين، وما زال يمر ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف وبعضه كذب وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا فينبغي طيه وإخفاؤه بل إعدامه لتصفو القلوب وتتوفر على حب الصحابة والترضي عنهم وكتمان ذلك، فتتعين على العامة وآحاد العلماء وقد يرخص في

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، محمد بن أبي العز الحنفي ٦٨٩/٢ تحقيق، عبد الله التركي، شعيب الأرناؤوط طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢، ١٤١١هـ.

(٢) الإمام العلامة القدوة الفقيه عالم المغرب أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي ويقال مالك الصغير، وكان أحد من برز في العلم والعمل، وهو الذي لخّص المذهب وملأ البلاد من تواليفه: "سمع فيه خلق كثير"، اختصر المدونة وصنف كتباً منها: الرسالة والنوادر والزيادات وغيرها، سير أعلام النبلاء ١٠/١٧.

(٣) الثمر الداني في تقريب المعاني، شرح رسالة أبي زيد القيرواني، صالح عبد السميع الأزهري ص ٢٢، ٢٣. طبعة دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ.

مطالعة ذلك خلوة للعالم المنصف العري من الهوى... فالقوم لهم سوالف وأعمال مكفرة لما وقع بينهم وجهاد محّاء وعبادة ممحصه»[١].

وقد أورد ابن كثير رحمه الله شواهد ومواقف استدل بها على فضلهم وعلو منزلتهم وانقيادهم وصبرهم وشجاعتهم وكمال طاعتهم لله ولرسوله ﷺ، فمن ذلك ما جاء عند تفسير الآية: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[٢] قال: «أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا كما قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾[٣] فخالفوا و كفروا وظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات وخوارق العادات، ومن هنا تبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته منها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلاً على الرسول ﷺ لكن لما أجهدهم الجوع سألوه تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا الله فيه وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم، وكذلك لما احتاجوا الماء سأل الله تعالى فجاءت سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم، ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر، فهذا هو الأكمل في الاتباع المشي مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ»[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/٩٢، وانظر تحقق مواقف الصحابة في الفتنه ٩٧-٩٩ مرجع سابق.

(٢) سورة البقرة، الآية [٥٧].

(٣) سورة سبأ، الآية [١٥].

(٤) التفسير ١/١٢٥.

وقال عند تفسير الآية: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾[١]: «وعن ابن عمر بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآناً، وقد أمر أن نستقبل الكعبة فاستقبلوها فتوجهوا إلى الكعبة[٢]... وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ورسوله وانقيادهم لأوامر الله عز وجل رضي الله عنهم أجمعين»[٣].

وقال عند تفسير الآية: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[٤]: «وهذا نكول منهم عن الجهاد ومخالفة لرسولهم وتخلف عن مقاتلة الأعداء... وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر حين استشارهم في قتال النفر الذين جاؤوا لمنع العير التي كانت مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير واقترب منهم النفير وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة والبيض[٥]

---

(١) سورة البقرة، الآية [١٤٣].

(٢) متفق عليه، وأخرجه البخاري كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة ومن لم ير الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة رقم (٤٠٣)، وكذلك في كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ رقم (٤٤٨٨) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة رقم (٥٢٦)، والترمذي، كتاب الصلاة باب ما جاء في ابتداء القبلة رقم (٣٤١).

(٣) التفسير ١/٢٣٩.

(٤) سورة المائدة، الآية [٢٤].

(٥) البيض: الحديد، القاموس المحيط، للفيروزأبادي ص ٦٣٨ طبعة مؤسسة الرسالة ط٦، ١٤١٩هـ.

واليَلَب[١] فتكلم أبو بكر ﷺ فأحسن ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين والنبي ﷺ يقول: **(أشيروا علي أيها المسلمون)** وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ، فقال سعد بن معاذ[٢]: كأنك تعرض بنا يا رسول الله فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لَصُبُر في الحرب صدق في اللقاء، ولعلى الله أن يريك منَّا ما تقر به عينك فَسِرْ بنا على بركة الله، فَسُرَّ النبي ﷺ بقول سعد ونشَّطه ذلك.

وعن أنس أن النبي ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ، قالوا: إذا لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى بَرْك[٣] الغماد لاتبعناك»[٤].

---

(١) اليَلَب: محركة الترسة، أو الدروع من الجلود، أو جلود يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الرؤوس خاصة، القاموس المحيط، مرجع سابق ص ١٤٥.

(٢) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأوسي الأنصاري، صحابي من الأبطال من أهل المدينة، كانت له سيادة الأوس وحمل لواءهم يوم بدر وشهد أحداً وكان ممن ثبت فيها، وكان أطول الناس وأعظمهم جسماً، ورمي بسهم يوم الخندق فمات من أثر جرحه سنة ٥هـ، ودفن بالبقيع وعمره سبع وثلاثون سنة، الأعلام ٨٨/٣.

(٣) برْك الغِماد: بكسر الباء وفتحها في «برك» وكسر الغين المعجمة وفتحها في «الغماد» وهناك من يضمها، والبرك حجارة مثل حجارة الحرة خشنة يصعب المسلك عليها وعره، واختلفوا في «الغماد» فقالوا: إنه موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر وقيل بلد باليمن، المعالم الأثريه في السنة النبوية، محمد حسن شراب، طبعة دار القلم بدمشق والدار الشامية ببيروت، ط١ ١٤١١هـ.

(٤) التفسير ٥١/٢.

وقال عند تفسير الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[1]: «فالصحابة ﷺ خلصت نياتهم، وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم، وقال مالك رحمه الله بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا» وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة مُعَظَّمة في الكتب المتقدمة وأعظمها وأفضلها أصحاب الرسول ﷺ وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة... ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله في رواية عنه بتكفير الروافض الذي يبغضون الصحابة قال: «لأنهم يغيظونهم ومن غاظه الصحابة فهو كافر لهذه الآية ووافقه طائفة من العلماء على ذلك.

والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم.. ثم قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ أي: ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم

(١) سورة الفتح، الآية [٢٩].

ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مثواهم وقد فعل.. وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)**[1]. وغيرها من المواطن الكثيرة التي أظهر فيها ابن كثير فضل الصحابة وعدالتهم وأبرز مكانتهم وعلو منزلتهم، سواء بالحديث عنهم بشكل عام كما ذكرنا، أو بتخصيص الحديث عن بعضهم كالمهاجرين والأنصار و أهل البيت وزوجات النبي ﷺ وأهل بيعة الرضوان، أو بذكر أعيانهم كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعبدالله بن مسعود[2] وعبدالله بن عمر ومعاوية ﷺ[3] وغيرهم، كما أنه رحمه الله يقوم بالدفاع عنهم، والرد على الذين ينتقصونهم ويذمونهم ويتعرضون لهم فمثلاً عند

---

(١) التفسير ٤/ ٢٤٠-٢٤١. والحديث سبق تخريجه ص ٢٥٥.

(٢) هو عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي أبو عبدالرحمن صحابي من أكابرهم فضلا وعقلا وقربا من الرسول ﷺ وهو أول من جهر بالقرآن الكريم بمكة، ولي بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة، ثم قدم المدينة في خلافة عثمان فتوفي فيها عن نحو ستين عاما سنة ٣٢ هـ. الأعلام ٤/ ١٣٧.

(٣) هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي مؤسس الدولة الأموية في الشام وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار كان فصيحاً حليماً وقوراً ولد بمكة وأسلم يوم فتحها سنة ٨هـ وتعلم الكتابة والحساب فجعله الرسول ﷺ في كُتّابه ولاّه عمر دمشق بعد موت أخيه يزيد وجاء عثمان فجمع له الديار الشامية كلها ولما قتل علي وبويع الحسن ابنه سلّم الخلافة إلى معاوية سنة٤١هـ مات في دمشق سنة٦٠هـ، الأعلام ٧/ ٢٦١.

تفسير الآية: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]، قال: «فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة ﷺ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم عياذاً بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدعون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون»[2].

وقال عند تفسير الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[3]، «ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم فإن الله عز وجل قد أخبر أنه

---

(١) سورة التوبة، الآية [١٠٠].

(٢) التفسير ٢/٤٧٤.

(٣) سورة الأحزاب، الآية [٥٨].

قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين»[1].

والدعاة إلى الله هم أولى من يقوم بالدفاع عن صحابة رسول الله ﷺ لا سيما في هذا العصر الذي كثر فيه سب الصحابة وتنقصهم والطعن فيهم من قبل أعداء الإسلام، وإن مما يقوم به بعض دعاة الإصلاح من الخوض والتنقص لصحابة رسول الله ﷺ وتجريحهم وغمزهم باسم النقد العلمي أو حرية البحث، إنما هو في الحقيقة هو السب الذي سب به السبئية والروافض والخوارج والمعتزلة والزنادقة أصحاب الرسول ﷺ وهو السب الذي دسه الرواة الكذابون — خصوصا الشيعة — في كتب التاريخ الإسلامي، وإن ما يسمى اليوم بالنقد العلمي الموضوعي لتاريخ صدر الإسلام لم يخرج قيد أنملة عن السب القديم، وكل ما فعله الطاعنون الجدد هو أنهم أحيوا هذا السب الذي أماته أهل السنة لما كانت الدولة دولتهم والسلطان سلطانهم وكان أهل الزندقة[2] والبدع مقموعين،

---

(١) التفسير ٦٣٦/٣.

وقد أكثر رحمه الله من الثناء على الصحابة ومدحهم في كتابه التاريخ — البداية والنهاية — انظر مثلاً: ٣٣/١٠، ٨٧/١٠، ١٠٤/١٠، ١٠٥/١٠، ١٠٧/١٠، ١٤٤/١٠، ١٤٦/١٠، ١٤٩/١٠، ١٨٢/١٠، ٢٠٧/١٠، ٢٤٧/١٠، ٢٥٣/١٠، ٣٤٤/١٠، ٢٤٥/١٠، ١٠٣٥١، ٣٩٣/١٠، ٤١٧/١٠، ٤١٨/١٠، ٤٧٣/١٠، ٤٧٥/١٠، ٤٨٠/١٠، ٥٠٥/١٠، ٥٤٠/١٠، ٥٧٤/١٠، ٥٧٥/١٠، ٦٧٥/١٠، ٦٨٣/١٠....

(٢) الزنديق بالكسر من معانيه أنه الذي يبطن الكفر ويظهر الإيمان وهذه الكلمة معربة، وأصلها «زنده كره» فأطلق على كل شاك أو ضال أو ملحد. المعجم الوسيط ص ٤٠٣.

وهذا السب إنما أحيي حديثا على يد طوائف الكفار من اليهود والنصارى لا سيما المستشرقين، منهم الحاقدين على الإسلام ومن قلدهم من أبناء هذه الأمة إما جهلا وإما افتتاناً بالغرب والشرق ومناهجهما والوقوع في حرمات الله باسم حرية الرأي والبحث العلمي، فأهل الأهواء الجدد يهدفون من وراء هذا النقد والسب إلى أمرين:

الأول: تجريح شهادة الصحابة والطعن في عدالتهم، ومن ثم التشكيك في الكتاب والسنة إذ إن الصحابة هم نقلة هذين الأصلين الضابطين لدين الله.

والثاني: إثبات عجز الإسلام عن الصمود للتجربة والتطبيق وإثبات عدم صلاحيته في هذا العصر، ذلك أنه إذا ثبت عجزه في تقويم أخلاق الصحابة وسلوكهم وإصلاح جماعتهم بعد أن فارقهم الرسول ﷺ بمدة يسيرة فهو أعجز من أن يكون منهجاً للإصلاح في عصرنا هذا[1].

---

(١) انظر محمد أمحزون، تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ص ١٠٤، طبعة دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

المبحث الرابع

المدارك التي شاركهم فيها غيرهم

من المعلوم أن هناك من الخصائص والمدارك التي لم ينفرد بها الصحابة دون غيرهم من الناس، لأنهم بشر مثلهم فشاركهم غيرهم فيها كالذكاء والفطنة والحافظة ومعرفة دلالات الألفاظ والأقيسة ونحوها، ولكن الصحابة يختلفون عن غيرهم بأنهم كانوا أبر قلوباً وأعمق علماً وأقل تكلفاً وأقرب إلى التوفيق إلى الحق والعمل به، لما خصهم الله من توقد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسعة العلم وسهولة الأخذ، وحسن الإدراك وسرعته، وقلة المعارض أو عدمه، وحسن القصد وتقوى الرب تعالى، فالعربية طبيعتهم وسليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرهم وعقولهم، ولا حاجة بهم إلى النظر في قواعد الأصول ومناهج الأصوليين بل قد غنوا عن ذلك كله، فليس في حقهم إلا أمران:

أحدهما: قال الله كذا وقال رسوله ﷺ كذا.

والثاني: معناه كذا وكذا، وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين وأحظى الأمة بهما فقواهما متوفرة مجتمعة عليها[1].

وإذا كان غيرهم من الأمة نال فضلاً فإنه ليس في الأمة المحمدية مثل الصحابة الكرام في الفضل بشاهد ما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: **(لا تسبوا صحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما**

---

(١) انظر ابن القيم أعلام الموقعين ٤/١٤٨-١٤٩.

أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[١]، وليس في الأمة كالصحابة الكرام في المعروف وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله تعالى والتقرب إليه والإحسان إلى الناس وكل ما ندب إليه الشرع من المحسنات ونهى عنه، وليس في الأمة كالصحابة في الإصابة للحكم المشروع والهدي المتبوع فهم أحق الأمة في إصابة الحق والصواب وأجدر الخلق بموافقة السنة والكتاب، ويشهد لهذا ما أخرجه الإمام أحمد وغيره عن ابن مسعود ﷺ قال: «من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً وأقومهم هدياً وأحسنهم حالاً قوم، اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوا آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[٢].

يقول ابن كثير رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٣]، «أي ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة»[٤]، وقال عند تفسير الآية: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾[٥]، «وأما أهل السنة

---

(١) سبق تخريجه ص٢٦٤.

(٢) انظر محمد عبد الهادي المصري، أهل السنة والجماعة معالم الانطلاقه الكبرى ص ٣، طبعة دار طيبه بالرياض ط٢، ١٤٠٨هـ.

(٣) سورة الفتح، الآية [٢٩].

(٤) التفسير ٤/٢٤١

(٥) سورة الأحقاف، الآية [١١].

والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة هو بدعة، لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها»[١].

(١) التفسير ٤/١٨٥

المبحث الخامس

ترجيح ابن كثير قول الصحابي على غيره من الناس

مر معنا أن منهج ابن كثير رحمه الله في التفسير هو ما قرره في مقدمة تفسيره وهو «أن يفسر القرآن بالقرآن... فإن لم يجد فمن السنة.. وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين وعبد الله بن مسعود... ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما»[1].

فابن كثير رحمه الله يقدم أقوال الصحابة على غيرهم من الأقوال ويجعلها في المرتبة الثانية بعد القرآن والسنة، فنجد أن تفسيره رحمه الله مليء بأقوال الصحابة وتفسيرهم لآيات القرآن الكريم وبيان معاني لفظه، يورد غالباً ما روي عنهم عند تفسيره الآيات ويحرص على ذكر أكبر قدر من الآثار والأقوال المروية عنهم في تفسير الآية، ويذكر عباراتهم ولو كانت متقاربة، كما أنه يورد لبعض المفسرين من الصحابة أكثر من قول في تفسير الآيات بروايات وطرق متعددة ومختلفة، وحينما يكون بين هذه الأقوال المتعددة اختلاف فإنه يناقش أسانيدها ومتونها ويبّين الصحيح من الضعيف منها، وكذلك يحرص على التوفيق بين

---

(١) التفسير ١/١٠-١١.

الأقوال بعضها مع بعض خاصة إذا كان الاختلاف في الألفاظ فقط فيحاول الجمع بين تلك الأقوال وتقريب بعضها من بعض، إضافة إلى ذلك فهو يبين الراجح والمرجوح مما يذكره من الآثار مستنداً في ترجيحه على ما دل عليه الكتاب والسنة أو ما دل عليه ظاهر الآية، وقد يوجه بعض الأقوال توجيهاً حسناً ويحملها على أطيب المحامل وأحسنه فالحاصل أن تفسير ابن كثير رحمه الله مليء بالأقوال والآثار عن الصحابة رضوان الله عليهم في تفسير الآيات وبيان معانيها، وسنكتفي بذكر أمثلة محدودة لأن المقام لا يتسع لتفصيل الحديث عن ذلك.

فمن الأمثلة على ترجيح ابن كثير أقوال الصحابة على غيرهم ما ذكره عند تفسير الآية: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[1]، فقال: «وقد قرأ عبدالله بن مسعود ﷺ: (ثم عرضهن) وقرأ أبي بن كعب: (ثم عرضها) أي المسميات والصحيح أنه علّمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وأفعالها كما قال ابن عباس ﷺ»[2]، وعند تفسير الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[3]، قال: «قال ابن عباس ﷺ أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض.... وقال مجاهد وعكرمة[4] من أطرافها قال خرابها...» وبعد ذكر جملة من الأقوال رجح قول ابن عباس وقدمه على غيره فقال: «والقول الأول أولى

---

(١) سورة البقرة، الآية [٣١].

(٢) التفسير ١/٩٥.

(٣) سورة الرعد، الآية [٤١].

(٤) هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني، أبو عبد الله مولى ابن عباس، تابعي كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، طاف البلدان، وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعياً، وكانت وفاته بالمدينة هو و(كثير عزه) في يوم واحد فقيل مات أعلم الناس وأشعر الناس، وكانت وفاته سنة ١٠٥هـ (الأعلام ٤/٢٤٤).

وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية»[١] وعند تفسير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ..﴾[٢]، قال: «قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غلام قتله سبعة فقتلهم، لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة وذلك كالإجماع»[٣]، وعند تفسير الآية: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ..﴾[٤]، قال: «عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله وقالوا قلوبنا غلف، قال قلوبنا مملوءة لا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره... ثم ساق بعض الأقوال والآثار، ثم قال: «والأول أولى وهو المنصوص عن ابن عباس أنهم يقولون نحن في غنية بما عندنا من العلم مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم»[٥].

ومن الأمثلة على ما أورده ابن كثير من أقوال الصحابة المتعددة والمختلفة الألفاظ والتي حاول فيها الجمع بين تلك الأقوال وتقريب بعضها من بعض ما ذكره عند تفسير الآية: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾[٦]، قال: «الأعراف جمع عرف وهو كل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفا... وعن ابن عباس قال الأعراف سور كعرف الديك، وفي رواية عنه عن ابن عباس الأعراف تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار وفي

---

(١) التفسير ٢/٦٤٢.

(٢) سورة البقرة، الآية [١٧٨].

(٣) المرجع نفسه ١/٢٦٠.

(٤) سورة البقرة [٨٨].

(٥) المرجع نفسه ١/١٥٦.

(٦) سورة الأعراف، الآية [٤٦].

رواية هو سور بين الجنة والنار... ثم قال واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها تقريباً ترجع إلى معنى واحد وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم نص عليه حذيفة[١] وابن عباس وابن مسعود ﷺ»[٢].

وعند تفسير الآية: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ ﴾، قال: «وفي قوله تعالى وآثارهم قولان: أحدهما أعمالهم التي باشروها بأنفسهم وآثارهم التي أثَرها مَن بعدهم فنجزيهم على ذلك أيضاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر....والقول الثاني أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية، وهذا القول لا تنافي بينه وبين القول الأول بل في هذا تنبيه ودلاله على ذلك بطريقة الأولى والأحرى فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب؛ فلأن تكتب التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم»[٣].

ومن أمثلة ترجيح ابن كثير لبعض الأقوال اعتماداً على ما دل عليه الكتاب والسنة أو ما دلت عليه ظاهر الآية ما جاء عند تفسير الآية: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[٤]، فقال: «وكان ابن عباس ﷺ يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من وضع الحمل أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين، وهذا

---

(١) هو حذيفة بن حسل بن جار العبسي أبو عبد الله واليمان لقب حسل صحابي من الولاة الشجعان الفاتحين كان صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين لم يعلمهم أحد غيره، ولما ولي عمر سأله أفي عمالي منافقين؟ فقال: نعم، واحد. قال من هو؟ قال: لا أذكره، وولاه عمر على المدائن، واستقدمه عمر إلى المدينة فلما قرب وصوله اعترضه عمر في ظاهرها فرآه على الحال التي خرج بها فعانقه وسُرَّ بعفته ثم أعاده إلى المدائن فتوفي فيها سنة ٣٦هـ، الأعلام ١٧١/٢.

(٢) التفسير ٢٧٤/٢.

(٣) المرجع نفسه ٦٩٣/٣-٦٩٤.

(٤) سورة البقرة، الآية [٢٣٤].

مأخذ جيد ومسلك قوي لولا ما ثبت من السنة من حديث سبيعة[١] الأسلمية المخرّج في الصحيحين من غير وجه أنه توفي عنها زوجها سعد بن خولة[٢] وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته... فلما تعلّت[٣] من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك[٤] فقال لها: ما لي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح، والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشراً.... فأتيتُ النبي ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حَللت حين وضعت وأمرني بالتزويج إن بدالي»[٥]، فقدَّم ابن كثير السنة على قول ابن عباس، ومن الأمثلة على توجيه الأقوال توجيه حسن أو حملها على أحسن

---

(١) هي سبيعة بنت الحارث الأسلمية، كانت امرأة سعد بن خولة رضي الله عنه، توفي عنها بمكة في حجة الوداع وهي حامل فوضعت بعد وفاته بليال، روي لها عن النبي ﷺ اثنا عشر حديثاً (تهذيب الأسماء لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ٢/٢٤٣).

(٢) هو سعد بن خولة القرشي العامري من بني مالك بن حسل، وقيل من حلفائهم وقيل من مواليهم، قال ابن هشام هو فارسي من اليمن حالف بني عامر، ذكره ابن إسحاق من البدريين، ذكر في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص حيث مرض بمكة فقال النبي ﷺ: (لكن البائس سعد بن خولة) يرثى له رسول الله ﷺ أن مات بمكة، وكذلك له في الصحيحين ذكر في حديث سبيعة بنت الحارث أنها كانت تحت سعد بن خولة فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل (الإصابة في معرفة الصحابة ١/٤٢٦).

(٣) أي خرجت من نفاسها وطهرت، المعجم الوسيط لإبراهيم أنيس وزملائه ص ٦٢٣.

(٤) هو أبو السنابل بن بعكك بن الحجاج بن الحارث العبدري القرشي، أمه عمرة بنت أوس من بني عذرة بن سعد، قيل اسمه حبة بن بعكك، من مسلمي الفتح كان شاعراً ومات بمكة، وهو الذي خطب سبيعة الأسلمية عند وفاة زوجها (الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ٢/٣٩).

(٥) التفسير ١/٣٥٣.

محمل ما جاء عند تفسير الآية: ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾[١] ، قال: «عن مصعب قال سألت أبي يعني سعد بن أبي وقاص ﷺ: ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ أهم الحرورية[٢] ؟ قال لا هم اليهود والنصارى أما اليهود فكذبوا محمد ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه... وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد: هم الحرورية، ومعنى هذا عن علي ﷺ أن هذه الآية تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج[٣] بالكلية وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود»[٤] ، فابن كثير رحمه الله حمل قول الصحابة في تفسير: ﴿ هَلْ

---

(١) سورة الكهف، الآية [١٠٣].

(٢) الحرورية: نسبة إلى حروراء موضع خرج فيه أول الخوارج على علي بن أبي طالب ﷺ، وهم الغلاة في حب أبي بكر وعمر وبغض علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين. (انظر مقالات الإسلامين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ١/١٦٧ طبعة المكتبة العصرية بيروت ١٤١١هـ).

(٣) الخوارج: هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، ويجمعهم القول بالتبري من عثمان وعلي ﷺ، كما أجمعوا – عدا النجدات– على تكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار إذا مات مصراً عليها، وفرق الخوارج تصل إلى عشرين فرقة وكانوا أهل عبادة ولكن على جهل، ومن أسمائهم الحرورية. (الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني ١/١١٤-١١٥، طبعة دار المعرفة، بيروت بدون تاريخ، وانظر أيضاً مقالات الإسلاميين ١/١٦٧-١٦٨).

(٤) التفسير ٣/١٣٦.

نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴾ بأنها عامة في كل من عبدَ اللهَ على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود ومنهم اليهود والنصارى والخوارج الحرورية.

وهذا المنهج الذي هو ترجيح قول الصحابة وتقديمه على قول غيرهم هو المنهج الذي يجب على الدعاة إلى الله أن يطبقوه ويلتزموا به وهو المنهج الذي سار عليه السلف الصالح من العلماء والدعاة والمصلحين أمثال الإمام ابن كثير رحمه الله، ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم شاهدوا التنزيل وعاصروه ولازموا النبي ﷺ وسمعوا منه وتلقوا عنه وحفظوا مقالته ووعوها ثم نقلوها إلى من بعدهم كما سمعوها وفهموها، ولذا فهم أفقه الأمة وأعلمهم بمراد الله ورسوله ﷺ، فمعاني القرآن كلها عندهم وما يغيب عن بعضهم لا يغيب عنهم كلهم، ولذلك نجد الشافعي رحمه الله يقول مبيناً أهمية اتباع رأيهم والأخذ به وتقديمه وترجيحه: «رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا»[1].

(١) أعلام الموقعين ٢/٢٠٥، وانظر مفرح القوسي، المنهج السلفي ص ٣٦٢-٣٦٣ طبعة دار الفضيلة، الرياض ط١، ١٤٢٢هـ.

الفصل الخامس

الشمول والموضوعية

ويحتوي على مبحثين:

المبحث الأول: شمولية منهج ابن كثير في الدعوة.

المبحث الثاني: الموضوعية الدعوية في منهج ابن كثير.

المبحث الأول

شمولية منهج ابن كثير في الدعوة

وفيه مطالب:

توطئة:

إن من تمام نعمة الله على هذه الأمة أن أكمل لها دين الإسلام ورضيه لها ديناً فقال سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1]. «فلا حلال إلا ما أحله الله ولا حرام إلا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب ولا خلف كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾[2] أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل الدين لهم تمت النعمة عليهم ولهذا قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ أي: فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي رضيه الله وأحبه وبعث به أفضل رسله الكرام وأنزل فيه أشرف كتبه»[3].

ومن هذا المعنى الذي قرره ابن كثير عند تفسير الآية السابقة ينطلق رحمه الله في تصوره لهذا الدين وهو شموله لجميع جوانب الحياة كلها فهو عقيدة وشريعة وعبادة وأخلاق وآداب وسلوك، وهو علم وعمل وظاهر وباطن، لذا نجد من

---

(١) سورة المائدة، الآية [٣].

(٢) سورة الأنعام، الآية [١١٥].

(٣) التفسير ١/١٨-١٩.

أبرز خصائص منهج ابن كثير الدعوي هو التصور الشمولي والتكاملي في الدعوة، فاشتملت دعوته على جوانب الدين كله فاهتم رحمه الله بتقرير العقيدة والدعوة إلى عبادة الله وحده دون سواه، وكذلك شملت دعوته طوائف المجتمع وفئاته وشملت الرجل والمرأة والشباب، وكذا غير المسلم من أصحاب الملل والنحل والطوائف والفرق إضافة إلى اهتمامه بمجتمعه وتعامله مع قضاياه وما يجري فيه من أحداث، وهذا كله نابع من تصوره الشمولي كما أشرنا ومن إحساسه بواجبه ومسؤوليته باعتباره عالماً وداعيةً ومصلحاً، وهو ما ينبغي أن يكون عليه الدعاة اليوم فيكونون على مستوى يؤهلهم لدعوة الناس بكافة فئاتهم وشرائحهم ليوصلوا دين الله إلى الناس أجمعين ويقوموا بواجب البلاغ المبين ليكونوا خير أمة أخرجت للناس.

المطلب الأول

شمول العقيدة

إن اهتمام ابن كثير رحمه الله بالعقيدة راجع إلى أهميتها فهي أصل الدين وأساسه، والاعتقاد الصحيح له أثر كبير على فهم النصوص الشرعية فهماً سليماً، لأن الاعتقاد أساس الفهم والتلقي فكلما كان المعتقد والتصور سليماً كلما كان منهج فهم النصوص وتلقيها والاستدلال بها موافقاً للحق، وأمر آخر جعل ابن كثير يهتم بجانب العقيدة هو ما أدركه من الضعف في الأمة والخلاف والفرقة مما سبب خللاً في عقائد المسلمين، من هنا كان اهتمام ابن كثير رحمه الله بالعقيدة واضحاً في تفسيره وهذا ما سنتناوله بالتفصيل إن شاء الله في مبحث

منهج ابن كثير في الدعوة إلى العقيدة، أما هنا فيمكن أن نلخص أبرز ملامح اهتمام ابن كثير بالجانب العقدي في النقاط التالية:

[١] حرص ابن كثير على الاستدلال بالكتاب والسنة والآثار على قضايا العقيدة: فلا نجد قضية عقدية إلا ويقررها ويثبتها من خلال النصوص والآثار، فمثلاً عند تفسيره الآية: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾[١]، قال: «وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي رصدت وهُيئت»[٢].

[٢] الدعوة إلى توحيد الله وعبادته: فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً فهو سبحانه: «ماخلق الخلق عبثاً وإنماخلقهم ليعبدوه وليوحدوه، ثم يجمعهم ليوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر»[٣]، لذا يجب عبادته سبحانه دون سواه فإن الخلق كلهم عبيده، «فإذا كان الجميع عبيداً فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة سوى الله»[٤]. وقد رد رحمه الله على شبهة المشركين في عبادتهم للأصنام بقولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[٥]، فقال: «وهذه الشبهة هي التي

---

(١) سورة آل عمران، الآية [١٣١].

(٢) التفسير ١/ ٨١.

(٣) التفسير ٤/ ٤٠، عند تفسير الآية: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗا﴾ [ص ٢٧].

(٤) المرجع نفسه ٢/ ٦٢٦، عند تفسير الآية: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ [الرعد ١٦].

(٥) سورة الزمر، الآية [٣].

اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إقرار العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به له، بل أبغضه ونهى عنه»[١].

[٣] التحذير من الشرك وبيان خطره: وكما يدعو رحمه الله إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له فهو ينهى عن الشرك ويحذر منه وينزه الله عنه ويبين خطر الإشراك بالله وينبه على بعض الأسباب المؤدية للشرك فيقول: «إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين فكادت أن تزول منه لعظمة الله»[٢]، ويقول عند تفسير الآية: ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٣]، «أي أُنزه الله وأُجلّه وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً»[٤]. وينعى رحمه الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره وأشركوا به سواه بأنهم «لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم

---

(١) التفسير ٢/٥٤-٥٥.

(٢) المرجع نفسه ٣/١٧٦، عند تفسير الآية: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم ٩٠].

(٣) سورة يوسف، الآية [١٠٨].

(٤) المرجع نفسه ٢/٦١٠.

وأسلافهم الحيارى الجهال كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1][2]، ومن أضرار الشرك وفساده أنه يؤثر على الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح فيقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3]: «وقال محمد بن إسحاق هم المنافقون قلت ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أنهم لهم فهم فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾[4] أي لا فهم، وتقدير الكلام ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم»[5].

[٤] الإيمان بتوحيد الربوبية يقتضي الإيمان بتوحيد الألوهية: فابن كثير يقرر دائماً أن الله الخالق الرازق المحيي المميت هو المستحق للعبادة، فيقول عند تفسير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾[6]: «شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانيته وألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة.... فبهذا استحق أن يعبد وحده

---

(١) سورة الزخرف، الآية [٢٣].

(٢) التفسير ٢/٣١٨.

(٣) سورة الأنفال، الآية [٢٢].

(٤) سورة الأنفال، الآية [٢٣].

(٥) المرجع نفسه ٢/٣٧٢.

(٦) سورة البقرة، الآية [٢١].

ولا يشرك به غيره»[١]، وعند تفسير الآيات: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[٢]، قال: «يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون أنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار وأنه الخالق الرازق لعباده... فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبدُ غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته وكثيراً ما يقرن تعالى مقام الألهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية»[٣]، ويقول أيضاً: «وإنما يستحق العبادة الله وحده لا شريك له الذي بيده الملك وله التصرف وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا إله إلا هو ولا رب سواه»[٤].

[٥] أن منهج السلف في إثبات الأسماء والصفات: هو المنهج الصحيح فيقول عند تفسير الآية: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[٥]، «وأما قوله ثم استوى على العرش فللناس في هذا

---

(١) التفسير ١/٧٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات [٦١-٦٣].

(٣) المرجع نفسه ٣/٥١٩.

(٤) المرجع نفسه ٢/٥٥٤، عند تفسير الآية: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود ٥٦].

(٥) سورة الأعراف، الآية [٥٤].

المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي[١] والثوري[٢] والليث بن سعد[٣] والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه[٤] وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادل إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه

---

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمد أبو عمر الأوزاعي، كان يسكن بمحلة الأوزاع ثم تحول إلى بيروت مرابطاً بها إلى أن مات. قال محمد بن سعد: «الأوزاعي بطن من همدان من أنفسهم، وكان ثقة»، قال: «ولد سنة ثمان وثمانين وكان خيراً فاضلاً مأموناً كثير العلم والحديث والفقه حُجَّة»، توفي سنة سبع وخمسين ومائة (سير أعلام النبلاء ١٠٧/٧).

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناة، أبو عبدالله أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، خرج من الكوفة سنة ١٤٤ هـ فسكن مكة والمدينة ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيا سنة ١٦١ هـ. الأعلام ١٠٤/٣.

(٣) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية، ولد بقرقشنده قرية من أسفل أعمال مصر في سنة أربع وتسعين، سمع عطاء وابن أبي مليكه وابن شهاب الزهري وغيرهم، كان الليث رحمه الله فقيه مصر ومحدثها ورئيسها، وقد أرادة المنصور على أن ينوب له على الإقليم فاستعفى من ذلك، توفي سنة ١٧٥هـ. سير أعلام النبلاء ١٣٦/٨.

(٤) هو الإمام الكبير شيخ المشرق سيد الحفاظ أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم ابن عبدالله بن مطر التميمي الحنظلي المروزي نزيل نيسابور، ومولده سنة إحدى وستين ومائة، وسمع عن ابن المبارك، قال الحاكم: «إسحاق بن راهويه إمام عصره في الحفظ والفتوى»، سكن نيسابور ومات بها سنة ثمان وثلاثين ومائتين. سير أعلام النبلاء ٣٥٨/١١.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[١] بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي[٢] شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ونفى عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى»[٣].

[٦] مسمى الإيمان غير مسمى الإسلام وأنه قول وعمل واعتقاد ويزيد وينقص: فابن كثير رحمه الله يقرر مذهب السلف في أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل فالعمل داخل في مسمى الإيمان، ويفرق بين مسمى الإيمان اللغوي والشرعي وأن مسمى الإيمان غير مسمى الإسلام وأن الإيمان يزيد وينقص فيقول[٤] رحمه الله: «أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]، وكما قال

---

(١) سورة الشورى، الآية [١١].

(٢) هو نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي أبو عبد الله، أول من جمع المسند في الحديث، كان من أعلم الناس بالفرائض، ولد في مرو الشاهجان وأقام مدة في العراق والحجاز يطلب الحديث، ثم سكن مصر ولم يزل فيها إلى أن حمل إلى العراق في خلافة المعتصم وسئل عن القرآن أمخلوق هو؟ فأبى أن يجيب فحبس في سامراء ومات في سجنه، من كتبه الفتن والملاحم، توفي سنة ٢٢٨هـ (الأعلام ٨/٤٠).

(٣) التفسير ٢/٢٨٠.

(٤) عند تفسير الآية: (البقرة ٢)

(٥) سورة التوبة، الآية [٦١].

إخوة يوسف: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾[١]، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال كقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[٢] فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً»[٣]، وقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾[٤] «وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد»[٥].

وقد رد رحمه الله على الذين لا يفرقون بين مسمى الإيمان والإسلام فقال عند تفسير الآية: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٦]، «احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين، وهذا الاستدلال ضعيف لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الإسمان هاهنا لخصوصية الحال ولا يلزم ذلك في كل حال»[٧]، ولذلك قال عند تفسير الآية:

---

(١) سورة يوسف، الآية [١٧].

(٢) سورة التين، الآية [٦].

(٣) التفسير ١/٥٦.

(٤) سورة الأنفال، الآية [٢].

(٥) المرجع نفسه ٢/٣٥٩.

(٦) سورة الذاريات، الآية [٣٦].

(٧) المرجع نفسه ٤/٢٧٨.

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾[1] وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة»[2].

[٧] أصول الإيمان: وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، يقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[3] قال: «فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام وأخذ بمجامع الخير كله وهو الإيمان بالله وهو أنه لا اله إلا هو وصدّق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله، والكتاب وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خير واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ونسخ فيه كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»[4].

فابن كثير رحمه الله يؤكد على الإيمان بهذه الأصول والأركان فيذكرها مجتمعة وقد يفرد الحديث عن ركن منها كالإيمان بالله كما سبق أو الملائكة أو بالكتب أو الرسل أو اليوم الآخر أو القضاء والقدر، فمثلا يؤكد على الإيمان بجميع الأنبياء

---

(١) سورة الحجرات، الآية [١٤].

(٢) التفسير ٤/٢٥٧.

(٣) سورة البقرة، الآية [١٧٧].

(٤) المرجع نفسه ١/٢٥٨.

والرسل و«أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود فنزّل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل»[١]، ومن أركان الإيمان وأصوله الإيمان باليوم الآخر «فإنه لابد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك. ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده فلابد في حكمة الحكيم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين دار أخرى لهذا الجزاء والمواساة»[٢].

وكذلك الإيمان بالقدر وثمرة ذلك على المؤمن فيقول رحمه الله عند تفسير آية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٣] «ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها»[٤]، ويقول أيضاً: «ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوّضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينا صادقا وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرا منه»[٥].

---

(١) التفسير ٢/٥٥٥ عند تفسير الآية: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [هود ٥٧].

(٢) المرجع نفسه ٤/٤١ عند تفسير الآية: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [سورة ص ٢٨].

(٣) سورة القمر، الآية [٤٩].

(٤) المرجع نفسه ٤/٣١٦

(٥) المرجع نفسه ٤/٤٤٢ عند تفسير الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن ١١].

[٨] وجوب تحكيم شرع الله ورد النتائج في الحكم إلى الله ورسوله ﷺ: فابن كثير رحمه الله يؤكد أنه «إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا ولا رأي ولا قول»[(١)]، ويضيف رحمه الله: «إن من لم يتحاكم في مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر»[(٢)]؛ وذلك لأنه ليس هناك «أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الأحكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم لكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء»[(٣)].

[٩] حب الصحابة والترضي عنهم وأن الخير كل الخير فيما ورد عنهم: وقد سبق الكلام على موقف ابن كثير من الصحابة فهو رحمه الله يرى أن الخير كل الخير فيما ورد عنهم؛ لأ ن «كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة هو بدعه؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها»[(٤)]، وكذلك موقفه رحمه الله من آل بيت النبي ﷺ، حيث ذكر شرفهم وفضلهم وأكد رحمه الله أنه «لا تنكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت

---

(١) التفسير ٦٣/٣ عند تفسير الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [الاحزاب ٣٦].

(٢) المرجع نفسه ٦٣٣/١٠ عند تفسير الآية: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [النساء ٥٩].

(٣) المرجع نفسه ٨٨/٢ عند تفسير الآية: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة ٥٠].

(٤) المرجع نفسه ١٨٥/٤ عند تفسير الآية: ﴿لَّوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف آية ١١].

وجد على وجه الأرض فخرا ونسباً وحسباً ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم كالعباس[١] وبنيه وعلي وأهل بيته وذويه ﷺ أجمعين»[٢].

[١٠] **التحذير من البدع وأهلها:** إن البدع التي يحذر منها ابن كثير هي البدعة في الدين «فالبدعة على قسمين تارة تكون بدعة شرعية كقوله ﷺ: **(فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)**[٣]، وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ عند جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم نعمت البدعة هذه[٤]»[٥]، فأهل البدع الذين يذمهم ابن كثير ويحذر منهم هم «أهل الضلال... المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما أنزله الله على رسوله من

---

(١) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أبو الفضل من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وجد الخلفاء العباسيين، قال رسول الله ﷺ في وصفه: **(أجود قريش كفاً وأوصلها هذا بقية آبائي)**، وهو عمه وكان محسناً لقومه شديد الرأي واسع العقل وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله ﷺ أخبار المشركين، ثم هاجر إلى المدينة وشهد وقعة حنين فكان ممن ثبت حين انهزم الناس، وشهد فتح مكة، وكانت وفاته في المدينة سنة٣٢هـ، الأعلام ٢٦٢/٣.

(٢) التفسير ١٣٣/٤ عند تفسير الآية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى ٢٣]. وانظر المرجع نفسه ٦٢٢/٤ عند تفسير الآية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى ٥].

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب تحقيق الصلاة والخطبة رقم (٨٦٧).

(٤) أخرجه البخاري كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان رقم (٢٠١٠) وهو موقوف عن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٥) المرجع نفسه ٢٠١/١ عند تفسير الآية: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة ١١٧].

الحق المبين ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء»[١].

[١١] **عدم تكفيره أهل الكبائر:** كما هو الحال عند الخوارج ومن تابعهم الذين يكفرون بالكبائر من الذنوب.

[١٢] **التحذير من موالاة أعداء الإسلام من الكفار ونحوهم.**

[١٣] **الأمر بالجماعة والنهي عن الفرقة:** فابن كثير رحمه الله حريص على تقرير هذا المبدأ وبيانه، وغير ذلك مما سبق بيانه، وكذلك مما سنتناوله عند مبحث منهج ابن كثير في الدعوة إلى العقيدة.

المطلب الثاني

شمول العبادة

من خصائص منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله في تفسيره الاهتمام بالجانب العبادي في الإسلام، من الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو وذلك من العبادات والمعاملات، وسنعرض ذلك مفصلاً إن شاء الله في مبحث منهج ابن كثير في الدعوة إلى الشريعة، أما هنا فسنوجز الحديث عن أبرز الملامح لنظرة ابن كثير للجانب العبادي في الإسلام من خلال تفسيره القرآن العظيم، فمن هذه الملامح:

[١] **سماحة الشريعة الإسلامية ويسرها وشمولها:** فمن خصائص الشريعة الإسلامية أنها «تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل»[٢]، والله تعالى «كما جعل هذه

---

(١) التفسير ٣/ ٢٥٩.

(٢) المرجع نفسه ٤/ ٢٣٩، عند تفسير الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [الفتح ٢٨].

الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب»[١]، ويقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢]، «أي: يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم وفضّلكم وشرّفكم وخصّكم بأكرم رسول وأكمل شرع: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء فشق عليكم إلا جعل لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعاً وفي السفر تقصر إلى اثنتين وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة كما ورد به الحديث[٣]، وتُصَلّى رجالاً وركباناً مستقبلاً القبلة وغير مستقبلها، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها والقيام فيها يسقط بعذر المرض فيصليها المريض جالساً فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات ولهذا قال عليه السلام: **(بعثت بالحنيفية السمحة)**[٤]، وقال لمعاذ ابن جبل وأبي موسى الأشعري حين بعثهما أميرين إلى اليمن: **(بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا)**[٥]، والأحاديث في هذا كثيرة ولهذا قال ابن عباس في قوله:

---

(١) المرجع نفسه ١/٣٢٧، عند تفسير الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة ١٤٣].

(٢) سورة الحج، الآية [٧٨].

(٣) الحديث أخرجه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة»، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها رقم (٦٨٧).

(٤) الحديث أخرجه أحمد ٣٦/٦٢٤ رقم (٢٢٢٩١) طبعة مؤسسة الرسالة بيروت ط١ ١٤٢١هـ.

(٥) الحديث متفق عليه، وأخرجه البخاري كتاب المغازي باب بعث أبي موسى ومعاذ رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع رقم (٤٣٤١)، ومسلم كتاب الجهاد، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير رقم (١٧٣٣).

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني من ضيق»[١].

[٢] عبادة الله هي الغاية من الخلق: وتعني «في اللغة من الذلة يقال طريق معبد وبعير معبد أي مذلل، وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف»[٢]، والعبادة في منظور ابن كثير شاملة لأنواع القرب فيذكر رحمه الله أن الله أقسم في سورة الفجر «بأوقات العبادة وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له الخائفون منه المتواضعون لديه الخاشعون لوجهه الكريم»[٣].

ويرى رحمه الله أن العبادة لا تتم «إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي وبالرجاء ينبعث إلى الطاعات»[٤]، فالمسلم «في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[٥] فإذا كان الاحتضار ليكن الرجاء هو الغالب»[٦].

كما يشير ابن كثير إلى أهمية التوكل في العبادة وأنه «كثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل كما في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٧]، و﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا

---

(١) التفسير ٣/٢٩٧.

(٢) المرجع نفسه ١/٣٨، عند تفسير الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة ٥].

(٣) التفسير ٤/٦٠١، عند تفسير الآية: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر ١-٢].

(٤) المرجع نفسه ٣/٦٢، عند تفسير الآية: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء ٥٧].

(٥) سورة الزمر، الآية [٩].

(٦) المرجع نفسه ٤/٥٧، عند تفسير الآية: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر ٩].

(٧) سورة هود، الآية [١٢٣].

بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[١] و﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾[٢] وأمر الله المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٣]»[٤]، وكذلك يُحَذِّر من عاقبة المعصية وأثرها على العباد فجزاء المعصية الوهن في العبادة»[٥].

[٣] الالتزام بجميع شرائع الدين: فالمسلم مطالب بأن يلتزم بجميع شرائع الدين والدخول في الإسلام كافة، فيقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾[٦]: «يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين المصدقين برسوله بأن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك»[٧].

[٤] شروط العمل الصالح: فحتى تكون العبادة مقبولة عند الله لا بد أن يكون العمل صالحاً «وهو ما كان موافقاً لشرع الله وخالصاً وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، هذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ»[٨]، ولذلك فإن: «كل عمل لا يكون

---

(١) سورة الملك، الآية [٢٩].

(٢) سورة المزمل، الآية [٩].

(٣) سورة الفاتحة، الآية [٥].

(٤) التفسير ٢/٥٢٨، عند تفسير الآية: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ [يونس ٨٥].

(٥) المرجع نفسه ٣/٦٥٤، عند تفسير الآية: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ ١٧].

(٦) سورة البقرة، الآية [٢٠٨].

(٧) المرجع نفسه ١/٣٠٨.

(٨) المرجع نفسه ٣/١٣٨.

خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل»[١]، قال سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢]، «ولم يقل أكثر عملاً بل أحسن عملاً ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدة من هذين الشرطين بطل وحبط»[٣]، وأحياناً يكون «العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله التعبد لله تعالى، فهو أيضاً مردود على فاعله، وهذا حال المنافقين والمرائين»[٤].

والخلاصة أنه «متى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمن فقد الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراؤون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً، ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين»[٥].

[٥] الإخلاص وأثره على العبادة والطاعة: إن أثر الإخلاص على العبادة والطاعة عظيم؛ لأن «العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا لله: أي ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل مستعيناً بالله في ذلك كله»[٦].

[٦] الاستمرار على الطاعة: فالمسلم مطالب بأن يستمر ويستقيم على طاعة الله وعبادته، لأن من عاش على شيء مات عليه، ولذا نجد الإمام ابن كثير

---

(١) التفسير ٣/٣٩١.

(٢) سورة هود، الآية [٧].

(٣) التفسير ٢/٥٣٩.

(٤) المرجع نفسه ١/١٩٤ عند تفسير الآية: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة ١١٢].

(٥) المرجع نفسه ١/٦٨٢، عند تفسير الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء ١٢٥].

(٦) المرجع نفسه ٢/٧١٥-٧١٦، عند تفسير الآية: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النحل ٧٨].

يحث على هذا ويُذكّر به دائما فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١]: «أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أن من عاش على شيء مات عليه ومن مات على شيء بعث عليه فعياذاً بالله من خلاف ذلك»[٢].

[٧] أثر تقوى الله وطاعته: ذكر ابن كثير رحمه الله آثار التقوى والطاعة منها:

(أ) التوفيق للأعمال الصالحة ومغفرة الذنوب فالله سبحانه وعد المتقين والمستقيمين على طاعته «أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم أي يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية وما قد يقع في المستقبل يلهمهم التوبة منها»[٣].

(ب) التوفيق لمعرفة الحق من الباطل: «فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه -وهو محوها وغفرها وسترها عن الناس -وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل»[٤]، ويؤكد أيضاً رحمه الله أن «حال من سلك طريق الهدى واتبع المرسلين وأعرض عن الظالمين يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه ويجعله إماماً يقتدى به في الخير داعياً إلى سبيل الرشاد»[٥].

---

(١) سورة آل عمران، الآية [١٠٢].

(٢) التفسير ١/٤٧٥.

(٣) المرجع نفسه ٣/٦٤٠، عند تفسير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [الأحزاب ٧٠].

(٤) المرجع نفسه ٢/٣٧٧، عند تفسير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [الأنفال ٢٩].

(٥) التفسير ٢/٥٨٩، عند تفسير الآية: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ [يوسف ٣٨].

(جـ) حفظ الله من اتقاه وأطاعه: فعاقبة من اتقى الله وأطاعه من عباده أن «يحفظهم الله ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم على أعدائهم ومخالفيهم»[١].

(د) غرس محبة من عَبَدَ الله واتقاه في قلوب الناس: يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[٢]: «يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات -وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية- يغرس في قلوب عباده الصالحين محبةً ومودةً، وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **(إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء أن الله يحب فلاناً، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء أن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء ثم توضع له البغضاء في الأرض)**»[٣].

---

(١) التفسير ٢/٧٣٢، عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل ١٢٨].

(٢) سورة مريم، الآية [٩٦].

(٣) المرجع نفسه ٣/١٧٧، والحديث متفق عليه وأخرجه البخاري كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم رقم (٣٢٠٩)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً أمر جبريل فأحبه وأحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض رقم (٢٦٣٧).

(هـ) حصول الخير له ودفع الشر عنه: يقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١]، «﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي أخلصوا له العبادة والخوف ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة»[٢].

(و) صلاح الأرض بالطاعة وفسادها بالمعصية: ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن الفساد في الأرض بعد إصلاحها فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[٣]، ومعنى ذلك: «أنه نهى تعالى عن الفساد في الأرض وما أضره بعد الإصلاح، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد»[٤]، ويقول عند تفسير الآية: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[٥]، «أي بان النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي وقال أبو العالية[٦]: من عصى الله في الأرض فقد أفسد

---

(١) سورة العنكبوت، الآية [١٦].

(٢) التفسير ٥٠٣/٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية [٥٦].

(٤) المرجع نفسه ٢٨١/٢.

(٥) سورة الروم، الآية [٤١].

(٦) هو رفيع بن مهران الإمام المقرئ الحافظ المفسر أبو العالية الرياحي البصري أحد الأعلام، كان مولى لامرأة من بني رياح بن يربوع ثم من بني تميم، أدرك زمان الرسول ﷺ وهو شاب وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، وحفظ القرآن وقرأه على أبي بن كعب وتصدر لافادة العلم وبُعد صيته، مات سنة ٩٣هـ (سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠٧/٤، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت ط١١ ١٤٢٢هـ).

في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة»[١]، وقال أيضاً عند تفسير الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[٢]: «يعني لا تعصوا في الأرض وكان فسادهم معصية الله لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة»[٣].

[٨] الأكل الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٤] يقول ابن كثير: «يقول تعالى آمراً المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم الله وأن يشكروه على ذلك إن كانوا عبيده، والأكل الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة كما أن الأكل الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[٥]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٦])، ثم ذكر الرجل يطيل السفر

---

(١) التفسير ٣/٥٣٧.

(٢) سورة البقرة، الآية [١١].

(٣) المرجع نفسه ١/٦٧.

(٤) سورة البقرة الآية [١٧٢].

(٥) سورة المؤمنون، الآية [٥١].

(٦) سورة البقرة، الآية [١٧٢].

أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»[١].

المطلب الثالث

من منهج ابن كثير الدعوي الاهتمام بقضايا المجتمع

إن عناية واهتمام ابن كثير رحمه الله وتفاعله مع مجتمعه ومناقشته لقضاياه ومشاركته في أحداثه نلمسها في جوانب عديدة من نشاطه العلمي والعملي، فكما أن له حضوراً ومشاركةً سواء في المناسبات الاجتماعية أو الأحداث السياسية أو القضايا الدينية أو المناشط العلمية، فنجد حرصه على معرفة ما يدور في واقعه المعاصر ومناقشة الأخطار والانحرافات التي تحدث، بالرد عليها من خلال مناظراته ومحاوراته، أو دروسه العلمية، أو بالنصح والإرشاد والتوجيه، وغير ذلك من المواقف العملية مع الولاة والأمراء في القضايا والمستجدات والأحداث السياسية، ولعل كتابه البداية والنهاية يبرز حجم مشاركاته في أحداث مجتمعه بينما لا نجد ذلك في تفسيره بهذا القدر، فصلته بأحداث المجتمع وقضاياه في كتابه التفسير من خلال التوجيه العام والدعوة إلى الله وبيان سنة الله في الأمم والحضارات وعوامل ضعفها وزوالها وأسباب حفظها وقوتها وانتصارها، أما ما له صلة بالأحداث الاجتماعية لعصره الذي عاش فيه فإن الحديث عن ذلك كما يبدو قليل إذا ما قورن بكتابه التاريخ،

---

(١) التفسير ١/ ٢٥٤، والحديث أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥)، والترمذي كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة رقم (٢٩٨٩).

فمثلا في التفسير تحدث عن قانون التتار المسمى "بالياسق" وبَيَّن أن الاحتكام إليه ضلال وكفر فقال رحمه الله عند تفسيره الآية: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]: «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما تحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة من ملكهم جنكيز خان[2] الذي وضع لهم «الياسق»، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يُحَكِّم سواه في قليل ولا كثير»[3].

ومن ذلك أيضا مناقشته لما يسمى بعلم «الكيمياء» وحكمه عليه بالبطلان والتفريق بينها وبين كرامات الأولياء فيقول إن «علم الكيمياء في نفسه علم

---

(١) سورة المائدة، الآية [٥٠].

(٢) جنكيز خان: : هو ملك التتر القائم بدولتهم في بلاد الشرق، ولما غلب الملك جنكيز خان وصارت له دولة قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه ياسق وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده (المواعظ والآثار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تأليف تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي ٢/٢٢ طبعة دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

(٣) التفسير ٢/٨٨.

باطل لأن قلب الأعيان لا يقدر عليها أحد إلا الله عز وجل... وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال يقول الله تعالى: **(ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة)**[١] وهذا ورد في المصورين الذين يُشبِّهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل فكيف بمن يدعي أن يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية أخرى، هذا زور ومحال وجهل وضلال، وإنما يقدرون على الصنع في الصورة الظاهرة، وهو كذب وزغل[٢] وتمويه وترويج أنه صحيح في نفس الأمر، وليس كذلك قطعا لا محالة، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي تبناها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون المزورون، أما ما يجريه الله تعالى من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهبا أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمر لا ينكره مسلم ولا يرده مؤمن، ولكن ليس هذا من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات واختياره وفعله»[٣].

ومن أمثلة دراسة المجتمع وتحليل أسباب قوته وضعفه ما جاء عند تفسير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٤]: «أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا

---

(١) متفق عليه، وأخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب نقض الصور رقم (٥٩٥٣)، ومسلم كتاب اللبس والزينة، باب تحريم صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتاً فيه صورة أو كلب رقم (٢١١١).

(٢) معنى زغل يعني غش، انظر المعجم الوسيط مادة «زغل» ص ٣٩٥.

(٣) التفسير ٣/٤٩٣.

(٤) سورة التوبة، الآية [١٢٣].

أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين وأن يعلي كلمته في سائر الأقاليم إنه جواد كريم»[1].

وكذلك ما ذكره عن الأمم والمجتمعات التي حادت عن طريق الله وعن هدي رسل الله فضلت وأضلت، عاقبها الله عقاباً شديداً وعذَّبها عذاباً نكراً وكان عاقبة أمرها خسرا، ولم تغن عنها قوتها وجبروتها وتقدمها — في العلوم والصناعات ونحوها- من عذاب الله شيئاً، يقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[2]، «أي من الأمم المكذبة بالأنبياء ما حل بهم من العذاب والنكال مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة

(١) التفسير ٢/٤٩٦.

(٢) سورة غافر، الآية [٢١].

﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أثرُّوا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه... ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسلهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد ولا وقاهم واق»[1].

وقال عند تفسير الآية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2]: «يخبر الله عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثَّروه في الأرض وجمعوه من الأموال فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس الله، وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات والحجج القاطعات والبراهين الدامغات لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل»[3].

إلى غير ذلك من التوجيهات والتنبيهات في أخذ العبرة والدروس مما حل بالأقوام والأمم الماضية نتيجة تكذيبهم للرسل وإعراضهم عما جاؤوا به ودعوا إليه وصدهم للناس عن الإيمان به واتباعه، وكما ذكرت فإن كتاب البداية والنهاية سَجَّل فيه ابن كثير مواقف متعددة من مشاركته في أحداث مجتمعه بشكل عملي ومباشر فمن ذلك مثلاً:

[١] اعتراض ابن كثير على أخذ ربع أموال النصارى الذين في الشام لعمارة ما خَرِب الإفرنج في الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزوهم بسبب اعتدائهم

---

(١) التفسير ٤/٩٠.

(٢) سورة غافر، الآية [٨٢].

(٣) المرجع نفسه ٤/١٠٦.

وتخريبهم للإسكندرية، فعنئذ أهانوا النصارى وطُلِبوا من بيوتهم بعنف. وكان موقف ابن كثير رحمه الله في هذه الحادثة بارزاً وكبيراً حيث وصف ما جرى بأنها «لم تكن حركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعاً»، ولم يكتف بذلك بل اجتمع بنائب السلطنة وأبدى اعتراضه على هذا الإجراء وقال إن «هذا مما لا يسوغ شرعاً ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يُؤخذ منهم الدرهم الواحد الفرد فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير»[(١)].

[٢] حضوره المجلس الذي عقد بدار السعادة بدمشق للتحقيق مع قاضي القضاة تاج الدين السبكي بحضور جمع من العلماء من المذاهب الأربعة في أمور اُتهم بها السبكي، وقد كان موقف ابن كثير هو تبرئة السبكي مما اتهم به، وقال: «ما رأيت عليه إلا خيراً»[(٢)].

[٣] ومن المواقف أيضاً ما ذكره في حوادث سنة (٧٦٢هـ) : «وجاءتني فتيا صورتها ما يقول السادة العلماء في ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدمه، ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله ومنع ورثته منه وتصرف في ممكلته، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله، فهل له الامتناع منه؟ وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً أم لا؟ وهل يثاب

(١) انظر تفصيل الحادثة في البداية والنهاية ١٨/٧٠٦-٧٠٧.

(٢) انظر تفصيل الحادثة في البداية والنهاية ١٨/٧٠٨-٧٠٩.

الساعي في خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال؟ أفتونا مأجورين. فقلت للذي جائني بها من جهة الأمير: إذا كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين الله تعالى فهو أعلم بنيته في الذي يقصده، ولا يسعى في تحصيل حق معين إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة على ذلك فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه، وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة والأمراء عليه فلا بد أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولاً ثم بعد ذلك يكتب بقية المفتين بطريقه، والله الموفق للصواب»[1].

وأخيراً من الأمثلة التي تدل على اهتمام ابن كثير ومشاركته لأحداث مجتمعه هو تأليفه لكتاب «الاجتهاد في طلب الجهاد»[2]، وذلك بناء على رغبة نائب السلطة بالشام الأمير منجك[3] بن عبد الله سيف الدين اليوسفي المتوفى سنة ٧٧٦هـ الذي طلب منه أن يكتب ما تيسر من الكتاب والآثار الحسنة في المرابطة بالثغور المحروسة الإسلامية، يقول ابن كثير في مقدمة كتابه: «الحمد لله وسلام

---

(١) النهاية والبداية ١٨/٦٣١.

(٢) الاجتهاد في طلب الجهاد، وقد حققه وعلق عليه الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن عسيلان وطبعته دار اللواء بالرياض ط٢ ١٤٠٢هـ، ويقع الكتاب في ٩٨ صفحة دون الفهارس.

(٣) هو منجك بن عبد الله سيف اليوسفي أمير داهية يعرف بمنجك الكبير، كان في خدمة الناصر محمد بن قلاوون، واستقر حاجبا بدمشق وولي الوزارة بمصر سنة٧٤٨هـ وصرف عنها ثم أُعيد إليها بعد أربعين يوماً، وقد تولى نيابة السلطة بالشام وولي حلب سنة ٧٥٩هـ، ومات في داره بمصر سنة٧٧٦هـ. انظر خطط المقريزي ٢/٣٢٠، والدرر الكامنة ٤/٢٣٠.

على عباده الذين اصطفى... أما بعد فقد أمر من أمره عزم وغنم وطاعته فرض وحتم وهو الشريف العالي المولوي الأميري الكبيري الزعيمي المجاهدي المرابطي المثاغري السيفي منجك نائب السلطة المعظمة بالشام المحروسة أعز الله أنصاره وأدام ملك سلطانه واقتداره، أن أكتب ما يتيسر من الكتاب والسنة والآثار الحسنة في المرابطة بالثغور المحروسة الإسلامية ليرغب أهلها في ثواب ما أهلهم الله من الرباط في الثغور الإسلامية التي هي حفظ حوزة الإسلام و أمان الأنام في جميع المعاقل والأمصار في سائر الليالي والأيام، فأجبته إلى ما أمر لأنه نائب الإمام وفيما أمر طاعة لله ولرسوله عليه أفضل الصلاة والسلام وقد كنت جمعت في ذلك مجلداً بسيطاً فاختصرت منه منهجاً وسطاً وسيطاً فأقول متوكلاً على العزيز الرحيم.....»[1].

ولا شك أن الداعية المهتم بشؤون مجتمعه وأحداثه وما يجري فيه ويحرص على المساهمة في توعيته وإرشاده وحل مشاكله، هو الداعية المؤثر في مجتمعه القادر على توجيهه التوجيه السليم فالمجتمعات التي آثر الدعاة العزلة عن الحياة، وعدم مشاركة الناس أمورهم والتقصير في توعيتهم وحل قضاياهم، كان من نتيجة ذلك أن تولى توجيه المجتمع وقيادته أناس بعيدون عن الدين وعن السلوك القويم مما كان له أثر في بعد الناس عن الالتزام بتعاليم الإسلام وتطبيقه في حياتهم، فواجب الدعاة أن يبذلوا قصارى جهدهم وأن تكون جهودهم ملموسة وآثارهم واضحة بين الناس وفي محيط المجتمع الذي يعيشون فيه.

---

(١) الاجتهاد في طلب الجهاد ص٦١-٦٢.

المطلب الرابع

شمول دعوته للطوائف والفرق

توطئة:

لقد شملت دعوة ابن كثير رحمه الله عموم المسلمين، سواء كانوا من العلماء والولاة، أو من عامة الناس، أو من أهل البدع والمنكرات من الطوائف والفرق، أو من غير المسلمين من أهل الكتاب والمشركين، وسنعرض بعض أسس ومعالم دعوة ابن كثير للطوائف والفرق، لأن تفصيل منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله للمدعوين من المسلمين وغير المسلمين سيكون في مبحث «منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله باعتبار المدعو».

أولا: بعض معالم دعوة ابن كثير للطوائف والفرق:

حرص ابن كثير على توجيه الأمة إلى الالتزام بمنهج السلف الصالح، وحذر من البدع والتفرق في الدين، وأن الله أمر بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف، وأن البدع لا تورث إلا الذلة والصغار في الحياة الدنيا، وما يقع فيه أهل البدع من الشكوك والاضطراب في الآراء والأحكام، ونحو ذلك مما أورده ابن كثير في التحذير من البدع، وما أوصى به من الاستقامة على منهج السلف وما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته الكرام. فمن ذلك مثلا:

[١] حال أهل البدع والضلال.

قال ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1] «يقول

---

(١) سورة الحج آية ٣.

الله تعالى ذامًّا لمن كذَّب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى معرضا عما أنزل الله على أنبيائه مُتَّبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلالة والبدع المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع والأهواء والآراء»[١].

وكذلك حال رؤوسهم الدعاة فقال عند تفسير الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[٢]، «لما ذكر الله حال الضلال والجهال المقلدين في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي بلا عقل صريح ولا نقل صحيح صريح بل بمجرد الرأي والهوى»[٣].

[٢] كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي فهو مفترٍ على الله تعالى:

فقال عند تفسير الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[٤]، «ويدخل في هذا كل مبتدع ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي»[٥].

---

(١) التفسير ٣/٢٥٩.

(٢) سورة الحج آية ٨.

(٣) المرجع نفسه ٢/٢٦٢.

(٤) سورة النحل آية ١١٦.

(٥) التفسير ٢/٧٢٨.

[٣] مخالفة أهل البدع والضلالات لما كان عليه الرسول ﷺ ولذا برأ الله رسوله ﷺ مما هم فيه:

فقال عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[١] «والظاهر أن الآية في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي فرقا كأهل الملل والنحل — وهي الأهواء والضلالات — قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه، فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له والتمسك بشريعة الرسول ﷺ المتأخِّر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، والرسل بُراء منها»[٢].

[٤] عاقبة البدعة هي الذل والصغار في الحياة الدنيا:

فقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾[٣]، «وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه كما قال الحسن البصري: «إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت[٤] بهم البغال

---

(١) سورة الأنعام، الآية [١٥٩].

(٢) التفسير ٢/٢٤٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية [١٥٢].

(٤) معنى هملجت الدابة أي سارت سيراً حسناً في سرعة، انظر المعجم الوسيط ص ٩٩٥.

وطقطقت[١] بهم البراذين[٢]»، وقال سفيان بن عيينه[٣]: «كل صاحب بدعة ذليل»[٤].

[٥] كل الفرق على ضلاله إلا أهل السنة:

قال ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٥]: «فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة كلها، وكل فرقة تزعم أنهم على شيء وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم[٦] في مستدركه أنه سئل عليه السلام عن الفرقة الناجية فقال: **(ما أنا عليه وأصحابي)**[٧].

---

(١) طقطقت: أي صوتت حوافرها على الأرض، انظر المعجم الوسيط ص ٥٦١.

(٢) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال من الفصيلة الخيلية غليظ الأعضاء قوي الأرجل عظيم الحوافر، انظر المعجم الوسيط ص ٤٨.

(٣) سفيان بن عيينه بن ميمون الهلالي الكوفي أبو محمد محدث الحرم المكي من الموالي، ولد بالكوفة وسكن مكة وتوفي بها، كان حافظاً ثقة واسع العلم كبير القدر، قال الشافعي: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز»، وكان أعور وحج سبعين سنة توفي سنة ١٩٨هـ، الأعلام ١٠٥/٣.

(٤) التفسير ٣١٣/٢-٣١٤.

(٥) سورة الروم آية ٣٢.

(٦) سبقت ترجمته ص٧١.

(٧) التفسير ٥٣٤/٣-٥٣٥، والحديث أخرجه الحاكم في مستدركه ١٢٩/١، طبعة دار المعرفة بيروت، بدون تاريخ.

[٦] الوعيد لمن اتبع سبل الضلالة بعد ما صار إلى السنة:

فقال عند تفسير الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[١]: «وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبيل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية و المحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام»[٢].

[٧] أن كل مبتدع في شك واضطراب في الآراء:

يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[٣]، «يخبر الله عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كل كافر ومبتدع من سائر الفرق»[٤].

ثانياً: مقولات أهل البدع:

أورد رحمه الله في تفسيره بعض مقولات أهل البدع من الفرق والنحل المختلفة وبيَّن خطأها وضلالها، كالقدرية والخوارج والجهمية والمعتزلة والرافضة، وغلاة الصوفية وغيرهم مما سنتحدث عنهم مفصلاً في المبحث القادم «منهج ابن كثير في دعوة أهل البدع والمنكرات».

---

(١) سورة الرعد، الآية [٣٧].

(٢) التفسير ٢/٦٣٩.

(٣) سورة القمر، الآية [٤٧].

(٤) التفسير ٤/٢١٦.

المطلب الخامس
شمول دعوة ابن كثير للمرأة

توطئة:

المرأة هي ذلك المخلوق الذي أوجده الله سبحانه وتعالى وخلقه ليكون شريكاً للرجل في حياته، وقد خلقها الله سبحانه في الأصل من الرجل ليكون ذلك أدعى للتجانس وأعمق في التقارب، وأوثق في الصلة ولتتحقق بينهما المودة والرحمة، في أحسن صورة كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، والإسلام رفع مكانة المرأة وأكرمها بما لم يكرمها دين سواه، فالنساء في الإسلام شقائق الرجال وخير الناس خيرهم لأهله.

فالمرأة في طفولتها لها حق الرضاع والرعاية وإحسان التربية، وإذا كبرت فهي المعززة المكرمة التي يحوطها وليها برعايته ويغار عليها، فلا يرضى أن ينالها أذى بأي شكل من الأشكال، وإذا تزوجت فواجب على زوجها إكرامها والإحسان إليها وكف الأذى عنها والنفقة عليها، وإذا كانت أماً فلها من الحقوق ما ليس للأب، وعقوقها والإساءة إليها من أكبر الكبائر، وإذا كانت أختاً فالإسلام أمر بصلتها وإكرامها والبر بها والغيرة عليها وحمايتها من كل

---

(١) سورة النساء، الآية [١].

(٢) سورة الروم، الآية [٢١].

سوء، وإذا كانت خالةً فهي بمنزلة الأم في البر والصلة، وإذا كانت جدة أو كبيرة في السن زادت قيمتها لدى أولادها وأحفادها وجميع أقاربها، فلا يكاد يرد لها طلب ولا يعارض لها رأي، وإذا كانت غير قريبة فلها حق الإسلام العام وكف الأذى وغض البصر ونحو ذلك. والمرأة في الإسلام لها حق التملك والإجارة والبيع والشراء وسائر العقود ولها حق التعلم والتعليم ومن إكرام الإسلام أن أمرها بما يصونها ويحفظ كرامتها ويحميها من الأذى، فأمرها بالحجاب والستر وعدم التبرج وعن الاختلاط بالرجال الأجانب وعن كل ما يُؤَدِّي إلى فتنتها، إلى غير ذلك من صور تكريم الإسلام للمرأة مما ليس هذا مجال بسطه وتفصيله.

فالمرأة في ظل تعاليم الإسلام وتوجيهاته الربانية الحكيمة تعيش حياة كريمة من أول يوم تقدم فيه إلى هذه الحياة، بينما هي قبل الإسلام تعيش حياة الذل والمهانة حيث لا قيمة لها ولا وزن فهي تورث وتوأد وتعد من سقط المتاع، ولذا نعى الإسلام تصرفات الجاهلية ومواقفه الجائرة تجاه المرأة، فعاب وأد البنات كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى التُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1]، يقول محمد رشيد رضا[2] واصفاً حالة المرأة في غير ظل الإسلام: «كانت المرأة تشترى

---

(١) سورة النحل آية ٥٨-٥٩.

(٢) هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين البغدادي الأصل الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، ولد ونشأ في القلمون من أعمال طرابلس الشام، رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، ثم أصدر مجلة المنار لبث آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي وأصبح مرجعاً للفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة، أشهر آثاره مجلة المنار وتفسير القرآن الكريم ويسر الإسلام وأصول التشريع العام وغيرها، توفي في مصر سنة ١٣٥٤هـ (الأعلام ٦/١٢٦).

وتباع كالبهيمة والمتاع وكانت تكره على الزواج والبغاء وكانت تورث ولا ترث، وكانت تُملك ولا تملك، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل، وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بمالها من دون إذنها، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها إنساناً ذات نفس وروح خالدة كالرجل أم لا ؟ وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة أم لا؟ فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود ولكن يجب عليها العبادة والخدمة وأن يُكَمَّ فمها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك والكلام لأنها أحبولة الشيطان، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته، وكان بعض العرب يرون أن للأب الحق في قتل بنته بل في وأدها — دفنها حية — أيضاً وكان منهم من يرى أنه لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية»[1].

والمرأة في عصرنا هذا تعاني في كثير من المجتمعات غير الإسلامية أنواعاً قاسية من الظلم والامتهان بسبب اختلاطها بالرجال الأجانب ومزاولتها لأعمال شاقة وقضائها وقتاً طويلاً خارج منزلها، كل ذلك باسم التقدم والتحرر ونيل حقوق المرأة المهضومة وقد صورت الكاتبة الشهيرة «مس أترو» هذا الواقع بقولها: «لأن يشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاء من اشتغالهن في المعامل حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة... ثم تقول: نعم إنه العار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال فما

(١) محمد رشيد رضا، حقوق النساء في الإسلام ص٦، وانظر عبد الرزاق البدر، الجامع للبحوث والرسائل، تكريم الإسلام للمرأة ص٥٣٨، طبعة كنوز إشبيليا بالرياض ط ١ ١٤٢٦ هـ.

بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل على ما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت وترك أعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها»[١].

وتقول الكاتبة اللادي كوك: «إن الاختلاط يألفه الرجال ولهذا طمعت المرأة فيما يخالف فطرتها وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا، وهذا البلاء العظيم على المرأة، فالرجل الذي علقت منه يتركها وشأنها تتقلب على مضجع الفاقة والعناء، وتذوق مرارة الذل والمهانة والاضطهاد، بل الموت أيضاً، أما الفاقة فلأن الحمل وثقله والوحم ودواره من موانع الكسب الذي تحصل به قوتها، وأما العناء فهو أن تصبح شريدة حائرة لا تدري ماذا تصنع بنفسها، وأما الذل والعار فأي عار بعد، وأما الموت فكثيراً ما تبخع نفسها بالانتحار وغيره، هذا والرجل لا يلم به شيء من ذلك وفوق هذا كله تكون المرأة هي المسؤولة وعليها التبعة مع أن عوامل الاختلاط كانت من الرجل.

أما آن لنا أن نبحث عما يخفف — إن لم نقل يزيل هذه المصائب العائدة بالعار على المدنية الغربية؟ أما آن لنا أن نتخذ طرقاً تمنع قتل ألوف الألوف من الأطفال الذين لا ذنب لهم بل الذنب على الرجل الذي أغرى المرأة المجبولة على رقة القلب تصديق ما يوسوس به الرجل من الوعود ويمني من الأماني حتى إذا قضى منها وطراً تركها وشأنها تقاسي العذاب الأليم»[٢]، إلى غير ذلك من الصيحات والتحذيرات التي ينادي بها العقلاء في الغرب والشرق من خطورة تجاهل اختلاف طبيعة الرجل والمرأة والإصرار على المساواة بينهما في

---

(١) حقوق النساء في الإسلام ص٧٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٧-٧٨.

جميع الأحوال والأعمال، ولا شك أن الفارق بين الرجل والمرأة «أمراً اقتضته حكمة الخالق سبحانه لتحتفظ البشرية ببشريتها وليكون كل من الرجل والمرأة مكملاً للآخر، وحتى في الماديات وجد أن الأقطاب المتشابهة تتنافر ولا تتجاذب والعكس تجاذب المختلف وتآلفها، ولعل هذا من حكمة الله في الاختلاف البيِّن بين الرجل والأنثى ولله في خلقه شؤون.

ونشير إلى مثال واحد معاصر على الاختلاف بين الذكر والأنثى وهو مثال حي ومن إمرأة ليست عادية بل قادت أمة بأسرها أمداً من الزمن تعترف بالفوارق بينها وبين الرجال وهذا فيه رد مفحم وضربة لا زب على داعيات المساواة[1] من الرجل والمرأة مما يدل على أن ادعاءهن زور وبهتان ليس وراءه

---

(١) والتي تمثلت في الحركة النسوية التي ظهرت مع نهاية القرن التاسع عشر في فرنسا وبريطانيا وأمريكا والتي تنطلق من مفاهيم التحرر والمساواة في سبيل القفز بالمرأة، إلى واقع لا رصيد له من التاريخ البشري والفطرة الإنسانية والتقاليد والأعراف الاجتماعية الوضعية والديانات السماوية والمنطق العلمي التجريبي، وقد نجحت الحركة النسوية من خلال المؤتمرات العالمية للمرأة إلى حذف مصطلح (sex) والذي يصنف الإنسان بيولوجيا إلى ذكر وأنثى وحل محله في كافة وثائق الأمم المتحدة ومن ثم الاتفاقات الدولية ومن بعدها الدساتير والقوانين المحلية لكل دولة مصطلح «الجندر» (gander) الذي لا يقف عند الفروق البيولوجية لكنه يمتد ليشمل ما تمليه طبائع ورغبات الشخص، فإذا كان الجنس (sex) مسألة بيولوجية فالنوع gonder تصور اجتماعي وهذا التقسيم أتاح الفرصة للسحاقيات واللوطيين أن ينضموا إلى تصنيفات التقسيم البشري السوي وأصبح من حقهم الإعلان بمنتهى السهولة عن حقيقتهم بلا خجل».
انظر الحركة النسوية وخلخلة المجتمعات الإسلامية ص١٤ – ص ١٥. د. خالد قطب وزملاؤه طبع بمطابع أضواء المنتدى ١٤٢٧هـ.

مثقال حبة من الحقيقة، فتقول رئيسة الفلبين (كورازون اكينو) في تصريح أدلت به إلى وكالة أنباء رويتر في السابع من شهر ربيع الأول عام ١٤٠٨هـ الموافق للثلاثين من شهر أكتوبر عام ١٩٨٧م تقول فيه: «إنه بوسع الرجل أن ينهض من الفراش ويمشط شعره ليكون مستعداً لمباشرة عمله خلال دقائق غير أن الأمر يختلف بالنسبة للمرأة، وتسوق مثلاً على ذلك من واقعها فتقول: في ليلة محاولة الانقلاب الفاشلة في الثامن والعشرين من أغسطس الماضي عندما تم إيقاظي من سبات عميق لإبلاغي بنبأ محاولة جنود متمردون اغتيالي انصرف ذهني حينئذ إلى الاهتمام بمظهري، وتابعت حديثها الذي أدلت به إلى رابطة الصحفيين الأجانب في مأدبة عشاء في الفلبين تقول لو كنت رئيساً – أي رجلاً – فكل ما يتعين علي أن أفعله هو ارتداء ملابس وهذا كل الأمر ولكن في حالة كون رئيس البلاد امرأة فإن الأمر يتطلب الاهتمام بالماكياج»[1].

ولا شك أن تجاهل واقع المرأة أدى إلى نتائج وخيمة لأن غياب المرأة عن بيتها طويلاً ومشاركتها للرجال الأجانب والاختلاط بهم ومشاركتهم في جميع الأعمال أثّر على العلاقات الاجتماعية والأسرية بحيث حصلت تحولات قيمية مما دعا بعض المفكرين الغربيين أن يسمي هذا الواقع الاجتماعي في البلاد الغربية - ولا سيما الصناعية منها -

(١) علم النفس الدعوي، د. محمد زين الهادي ص٦٧، طبعة شركة مطابع السودان للعلم المحدودة بدون تاريخ.

بالانفراط العظيم[١].

(١) الانفراط العظيم عنوان كتاب صدر عام ١٩٩٩م للمفكر الأمريكي فرانسيس فوكاياما صاحب الكتاب الشهير "نهاية التاريخ"، وقد ناقش الكتاب قضية تدهور العلاقات الاجتماعية في البلدان الغربية الصناعية في الفترة ما بين الستينات إلى أوائل التسعينات وقد أرجع السبب في التحولات القيمية لهذه المجتمعات إلى أسباب كثرة من أهمها حبوب منع الحمل والإجهاض الآمن، فحبوب منع الحمل وتوفر الإجهاض أذنا للنساء ولأول مرة في التاريخ بأن يتعاطين الجنس بلا خوف من العواقب وأن هذا جعل الذكور يشعرون بأن التحرر من القيم التي كانت تعرض عليهم مسؤولية العناية بالنساء اللاتي يحملن منهم، ويقول: «إن الذي كان يمنع النساء من استبدال زوج يناسبهن كان الزوج الذي يعشن معه ويكتشفن أنه لا يناسبهن هو أنهن لم يكن قادرات على الإنفاق على أنفسهن بسبب أنهن لم يكن يعملن، فلما عملت النساء وصار دخولهن يزداد باطرد وجدن أنه بإمكانهن أن يربين أطفالهن من غير عون من الأزواج، لكن إنجاب الأطفال يقلل من فرص المرأة في العمل، فلكي تنجب المرأة ففي هذه الحالة إما أن لا تنجب إطلاقا وإما أن تتوقف عن العمل لفترات، فإذا كانت حريصة على العمل فإنها ستلجأ إلى الحد من الإنجاب، ثم إن قلة الأطفال تزيد من احتمالات الطلاق؛ لأن الأطفال هم رأس المال المشترك، بين الزوجين ويقول إن هناك دلائل تجريبية كثيرة تؤكد الصلة بين الدخول العالية للنساء بين معدلات الطلاق والإنجاب خارج نطاق الزوجية، ثم إن ازدياد معدلات الطلاق يؤدي إلى عدم ثقة النساء باستمرار الحياة الزوجية ويدفعهن إلى تأهيل أنفسهن للعمل كي يضمنّ مستقبلهن، ثم يذكر بعض الآثار السلبية من هذا الأمر منها:

١- أن نصف السكان في أوروبا واليابان ستكون أعمارهن أكثر من خمسين عاماً في غضون العقدين القادمين وسيؤدي هذا إلى ما يصحبه من نقص في عدد السكان إلى نقص في الدخل القومي.

منهج ابن كثير في دعوة المرأة:

اهتم ابن كثير بالمرأة وأولاها عناية كبيرة فنجد أنه في تفسيره أبرز قواعد الشريعة الإسلامية فيما يخص المرأة وتناولها بالشرح والإيضاح ووضع الضوابط التي من شأنها صيانة المرأة والوصول بها إلى حياة سعيدة، ثم إنه ركز على بيان طبيعة المرأة وتكوينها الفطري والعقلي والنفسي وعلاقتها بالرجل وغير ذلك من الجوانب الكثيرة التي تمثل منهج ابن كثير الدعوي في الاهتمام بالمرأة والعناية بها ودعوتها وترتيبها تربية صالحة فمن أبرز ملامح هذا المنهج:

٢- أن الدول الاسكندينافية التي هي الأعلى في التفكك الأسري هي الأعلى أيضا في نسبة التوحد إذ أن خمسين في المائة من البيوت صارت تتكون من شخص واحد بل أن في مدينة (أوسلو) عاصمة السويد بلغت نسبة خمسة وسبعين في المائة.

٣- أن قائدات الحركة النسوية بالغن في إطراء عمل المرأة وغفلن عن تأثيره على الأطفال وهو تأثير لازم وواقع (انظر كتاب عمل المرأة بين الأديان والقوانين ودعاة التحرر للدكتور زكي علي السيد بوغضه ص ٣٥٣. تطور فكر دعاة عمل المرأة من المشروع إلى الممنوع » مطبعة دار الوفاء للطباعة والنشر مصر ط الأولى ٢٠٠٧م ١٤٢٨هـ)

٤- أن ضرر الجريمة لا يقتصر على من يقع ضحيتها بل يتعداه إلى المجتمع كله وذلك أن انتشار الجريمة يقلل من ثقة الناس بعضهم ببعض ويعوق أو يحول دون تعاونهم بل إن الجريمة لتؤدي إلى جعل المجتمع مجتمعا ذريا يحصر كل إنسان فيه اهتمامه في نفسه وفي أقرب الناس إليه من ذلك مثلا أن الجيران كانوا يتعاونون جميعا على تربية أولادهم وأما الآن وبعد أن كثر الاعتداء على الأطفال فإذا رأى والد شخصا يؤدب ولده فالإحتمال الأقرب أن يتصل بالشرطة، وعند حديث الكاتب عن الحل أو المخرج فإنه يرى أنه كما للدين تأثير في إعادة بناء المجتمع في الماضي فيتوقع أن يكون له تأثير الآن. انظر جعفر شيخ إدريس، الإسلام لعصرنا ص ٣٠-٤٣ مطابع أضواء المنتدى، ط الأولى ١٤٢٢هـ.

أولاً: تحديد طبيعة المرأة[1] وعلاقتها بالرجل:

خُلِقت المرأة من الرجل ولذلك بينهما تجاذب وحنين وشوق كانجذاب الفرع إلى الأصل والأصل إلى الفرع وهذا ما يقرره ابن كثير رحمه الله في كثير من المواضع في تفسيره عن طبيعة المرأة، وأصل خلقها ونقصان عقلها وإرادتها وقوة عاطفتها وتفوقها على الرجل في التأثير عليه وأنه ضعيف أمامها ولا يصبر عنها وتحدث عن ذهاب لب الحازم عندها، وكذلك محبة الرجل ورحمته لها وأن الزوجة سكن لزوجها لما بينهما من المودة والرحمة وأن كلاً منهما لباس للأخر إلى غير ذلك، فيقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ

---

(١) هناك كتاب بعنوان:

BRAINSEX- The Real Difference Between Men and Women, Anne Moir &David Jessel.

وقد ترجمه الأستاذ / بدر المنيس (جنس الدماغ) الفارق الحقيقي بين الرجال والنساء.

وهذا الكتاب يبين الاختلاف بين الرجل والمرأة يقول المترجم في المقدمة: « والآن جاء العلم متمثلاً في علم البيولوجيا ليقول كلمته في الموضوع وليقف إلى جانب أولئك الذين يقولون باختلاف الرجل والمرأة من خلال الأبحاث التي أجريت على تركيب أدمغة الذكور والإناث وعلى الأثر الذي تقوم به الهرمونات في السلوك الإنساني و إلى الدراسات الميدانية التي أجريت في هذا الخصوص..... ثم يقول أن هذا الاختلاف بينهم يكمل بعضه بعضاً في إدارة شئون الحياة في المجتمع فعمل المرأة في المنزل مثلاً يساوي قيمته ويكمل عمل الرجل في المكتب كما أن بإمكان المرأة أن تحقق ذاتها وطموحها في الحياة العملية بنجاح وفق طبيعتها الأنثوية الخاصة دونما حاجة إلى محاكاة الرجل في أسلوبه في التعامل مع مفردات الحياة العملية » ص١٠، وقد طبع بمطابع القبس بالكويت، ط١ مارس ١٩٩٣م ويقع في ٢٦٤صحفة من القطع المتوسط.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[١]، «وخلق منها زوجها وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته وأتى إليها وأتت إليه..... وفي الحديث الصحيح: **(أن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإذا ذهبت تقيمه كسرته وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج)**»[٢].

وكما أنها خلقت منه فهي ليست مثله في الجلد والقوة ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾[٣] «أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى»[٤]، وكذلك المخاصمة تغلبها العاطفة والضعف فتعجز عن إقامة حجتها وإظهار بينتها فيقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[٥]، «أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة وإذا خاصمت فلا عبارة لها بل هي عاجزة... عن الانتصار لا عبارة لها ولا همه»[٦]، وكذلك شهادتها في الأموال والعقود ونحوها تقام امرأتان مقام الرجل فإذا نسيت إحداهما الشهادة حصل لها ذكرى من الأخرى بما وقع به من الإشهاد لأنها مظنة الذهول

---

(١) سورة النساء، الآية [١].

(٢) التفسير ١/٥٤٩، متفق عليه، وأخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته رقم (٣٣٣١)، ومسلم كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء رقم (٣٦٤٣)، والترمذي، كتاب الطلاق واللعان، باب ما جاء في مداراة النساء رقم (١١٨٨).

(٣) سورة آل عمران، الآية [٣٦].

(٤) التفسير ١/٤٤٢، عند تفسير الآية: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ (آل عمران ٣٦).

(٥) سورة الزخرف، الآية [١٨].

(٦) التفسير ٤/١٤٨.

والنسيان، ولذا بين الرسول ﷺ أن نقصان عقل المرأة هو أن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل لا على أن عقلها نصف عقل الرجل ولذا قال ابن كثير: «ومن قال أن شهادتها معها – أي مع المرأة الأخرى– كشهادة ذكر فقد أبعد» قال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾[1]، «وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال وإنما أقيمت المرأة مقام الرجل لنقصان عقل المرأة كما قال مسلم في صحيحه حدثنا قتيبه... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **(يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار)**، فقالت امرأة منهن جزلة[2] وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: **(تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن)** قالت/ يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ قال: **(أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين)**[3]... و قوله أن تضل إحداهما، يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[4]، أي: يحصل لها ذكرى

---

(١) سورة البقرة، الآية [٢٨٢].

(٢) الجزلة عظيمة العجز، القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفروز آبادي، ص ٩٧٧، طبعة مؤسسة الرسالة ط٦، ١٤١٩هـ.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم رقم (٣٠٤)، وكتاب الزكاة باب الزكاة على الأقارب رقم (١٤٦٢) وكتاب الصوم باب الحائض تترك الصوم والصلاة رقم (١٩٥١) وكتاب الشهادات باب شهادة النساء رقم (٢٦٥٨)، ومسلم كتاب الإيمان باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات... رقم (٧٩).

(٤) سورة البقرة، الآية [٢٨٢].

بما وقع به الإشهاد... ومن قال أن شهادتها معها تجعل كشهادة ذكر فقد أبعد والصحيح الأول والله أعلم»[١].

ولذلك نجد أن ابن كثير رحمه الله اعتبر المرأة هي المرجع دون الرجل في الأمور التي لا تعلم إلا من جهتها فقال عند تفسير الآية: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٢]، «دل هذا على أن المرجع في هذا إليهن لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن وتتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك فرد الأمر إليهن»[٣].

وابن كثير لما عد المرأة من السفهاء في تفسير الآية: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾[٤]، فقال: «والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء»[٥] فهو في نفس الوقت لا ينكر أن هناك من النساء من تتصف بكمال العقل ورجاحته وقوة الذكاء والحزم يقول عند تفسير الآية: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾[٦]، «وكان فيها — بلقيس — ثبات وعقل ولها لب ودهاء وحزم فلم تُقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت آثاره وصفاته وأنه غُيِّر وبُدِّل ونُكِّر فقالت كأنه هو أي يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم»[٧].

---

(١) التفسير ١/٤١٤.

(٢) سورة البقرة، الآية [٢٢٨].

(٣) التفسير ١/٣٣٦.

(٤) سورة النساء، الآية [٥].

(٥) التفسير ١/٦٨.

(٦) سورة النمل، الآية [٤٢].

(٧) التفسير ٣/٤٥٢.

وقال عند تفسير الآية: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[١]، «أي نحن ليس بنا عاقة ولا بأس إن شئت أن تقصديه وتحاربيه فما لنا عاقة عنه، وبعد هذا فالأمر إليك فَرَيْ فينا رأيك نمتثله ونطيعه، قال الحسن البصري رحمه الله: فوضعوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها فلما قالوا إليها ما قالوا كانت هي أحزم منهم وأعلم بأمر سليمان وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سُخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً بديعاً فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونتمنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه ويخلص إليّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا، ولهذا قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها... ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة فقالت: إني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون، أي سأبعث إليهم بهدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك فلعله يقبل ذلك ويكف عنا أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا، قال قتادة: رحمها الله ورضي الله عنها ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها علمت الهدية تقع موقعاً من الناس وقال ابن عباس وغير واحد قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو مَلِك فقاتلوه وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه»[٢].

وابن كثير رحمه الله حينما يذكر هذا عن بلقيس وأمثالها من النساء ذوات الحزم والعقل والرأي والدهاء وغير ذلك من صفات الكمال، فهو يعتبر أن هذا

---

(١) سورة النمل، الآية [٣٣].

(٢) التفسير ٣/٤٤٩.

الكمال في عدد محدود من النساء بالنسبة للرجال، فقال عند تفسير الآية: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[١]، «وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: **(كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسيه امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)**[٢]. فجنس الرجال أفضل من جنس النساء والله تعالى قال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[٣]، أي في الفضيلة في الخَلْق والخُلق والمنزلة وطاعة الأمر والإنفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة»[٤]، كما جعل الرجال قوامين على النساء «فالرجل قَيّم على المرأة وهو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت»[٥].

وأخيراً فابن كثير رحمه الله يقرر علاقة الرجل الطبيعية بالمرأة وميله لها بل وضعفه أمامها فيقول عند تفسير الآية: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[٦]، «عن ابن طاووس عن

---

(١) سورة التحريم، الآية [١٢].

(٢) التفسير ٤/٤٦٥، والحديث متفق عليه، أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ رقم (٣٤١١) وكتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة رضي الله عنها رقم (٣٧٦٩)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة رضي الله عنها رقم (٢٤٣١).

(٣) سورة البقرة آية ٢٢٨.

(٤) المرجع نفسه ١/٣٣٦، عند تفسير الآية: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة ٢٨٨].

(٥) المرجع نفسه ١/٦٠١، عند تفسير الآية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء ٣٤].

(٦) سورة النساء، [٢٨].

أبيه[١] (ضعيفا) قال في أمر النساء قال وكيع[٢] يذهب عقله عندهن»[٣].

فالنتيجة أن الله «جعل بينهم مودة وهي المحبة، ورحمة وهي الرأفة فالرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو رحمته بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما»[٤]، وقال واصفاً أثر السحرة المذموم وهو «أنهم ليفرقون بن الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف»[٥].

ثانياً: تكريم الإسلام للمرأة وإعطاؤها حقوقها:

أوضح الإمام ابن كثير أن الإسلام رفع مكانة المرأة وأعلى منزلتها وأكرمها بما لم يكرمها به دين سواه، وأشار ابن كثير إلى بعض صور وعادات وأحكام

---

(١) هو طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء، أبو عبد الرحمن، من أكابر التابعين تفقهاً في الدين ورواية الحديث، وتقشفاً في العيش، وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك أصله من الفرس، ومولده ومنشأه في اليمن، توفي حاجاً بالمزدلفة أو بمنى، وكان هشام بن عبدالملك حاجاً تلك السنة فصلى عليه، وكان يأبى القرب من الملوك والأمراء قال ابن عيينه: مجتنبو السلطان ثلاثة: أبو ذر، وطاووس، والثوري، توفي سنة ١٠٦هـ (الأعلام ٣/٢٤٤).

(٢) هو وكيع بن الجراح بن بلح الرؤاسي، أبو سفيان، حافظ للحديث، ثبت كان محدث العراق في عصره، ولد بالكوفة، وأبوه ناظر على بيت المال فيها وتفقه وحفظ الحديث واشتهر وأراد الرشيد أن يوليه قضاء الكوفة فامتنع ورعاً، وكان يصوم الدهر، له كتب منها: "تفسير القرآن" و"السنن والمعرفة"، و"التاريخ والزهد"، توفي بفيد راجعاً من الحج سنة ١٩٧هـ (الأعلام ٨/١١٧).

(٣) التفسير ١/٥٨٦.

(٤) المرجع نفسه ٣/٥٣٠.

(٥) المرجع نفسه ١/١٨٠، عند تفسير الآية: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة ١٠٢].

الجاهلية التي فيها ظلم وهضم لحقوقها، كالحرمان من الميراث والصداق أو الإضرار بها كعضلها[١] وتطويل عدتها والبغي عليها، ونحو ذلك من صور الظلم والإهانة للمرأة واحتقارها وأن الإسلام ضمن لها حقوقها المشروعة كحق الصداق والنفقة والسكنى، وحق العشره وحق التصرف المالي، وحماها من الممارسات الظالمة، والأساليب الجائرة، كعضلها، وتطويل عدتها، وحرمانها من الميراث، والإمساك بها وعدم طلاقها بقصد إضرارها، ونحو ذلك من صور البغي والظلم والعدوان فقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[٢]، «قال سعيد بن جبير وقتادة كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء والأطفال شيئاً فأنزل الله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم»[٣].

ويقول عند تفسير الآية: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[٤]، «هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه تعالى ينهى عن قتل الأولاد كما أوصى بالأولاد

---

(١) العضل هو منع المرأة التزوج ظلماً، المعجم الوسيط ص ٦٠٧.

(٢) سورة النساء، الآية [٧].

(٣) التفسير ١/٥٥٦.

(٤) سورة الإسراء، الآية [٣١].

في الميراث وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته»[١].

وقال عند تفسير الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾[٢]، «عن ابن عباس رضي الله عنهما.. قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاؤوا زوجوها وإن شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية في ذلك، وقوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾، «أي لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقا من حقوقها عليك أو شيئا من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد»[٣]، وعند تفسير الآية: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[٤] قال: «إن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتما وأن يكون طيب النفس بذلك كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيبة بها كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيبا بذلك»[٥].

وقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾[٦]: «هذا أمر من الله عز وجل للرجال إذا طلّق أحدهم المرأة طلاقا له عليها فيه رجعة أن يحسن في أمرها إذا قضت عدتها ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها،

---

(١) التفسير ٣/٥١.

(٢) سورة النساء، الآية [١٩].

(٣) التفسير١/٥٦٩ -٥٧٠.

(٤) سورة النساء، الآية [٤].

(٥) التفسير ١/٥٥٣.

(٦) سورة البقرة، الآية [٢٣١].

فإما أن يمسكها أي يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة، ولا تقابح.... قال ابن عباس.... وغير واحد كان الرجل يطلق المرأة فإذا قارب انقضاء العدة راجعها ضرارا لئلا تذهب إلى غيره ثم يطلقها لتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة راجعها مرارا لئلا تذهب إلى غيره، ثم يُطلقها فتعتد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: بمخالفته أمر الله»[1].

وقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾[2] «وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي غضب على الأشعريين فأتاه أبو موسى فقال يا رسول الله أغضبت على الأشعريين فقال: **(يقول أحدكم قد طلقت قد راجعت ليس هذا طلاق المسلمين طلقوا المرأة في قُبُل عدتها)**.... وقال مسروق هو الذي يطلق في كنهه[3] ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة»[4]. وقال عند تفسير الآيـــة: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا

---

(١) التفسير ١/٣٤٨، ٣٤٩.

(٢) سورة البقرة، الآية [٢٣١].

(٣) كنهه: أي وقته، المعجم الوسطي ص ٨٠٢.

(٤) التفسير ١/ ٣٤٩ والحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٠/٨٢ حديث رقم (٤٢٦٥)، انظر الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان لابن بلبان علاء الدين علي الفارسي، طبعة مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٤هـ.

تَخْرُجْنَ ﴾[١]، «أي احفظوها واعرفوا ابتداء ها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج واتقوا الله ربكم، أي: في ذلك وقوله: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضا الخروج لأنها مُعْتَقَلة لحق الزوج أيضا»[٢]. وغير ذلك من الحقوق الكثيرة التي كفلها الإسلام للمرأة كما أنصفها من صور الظلم والبغي والعدوان عليها، يقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[٣] «تهديد للرجال إذا بغوا على النساء في غير سبب فإن الله العلي الكبير وليُهُنَّ وهو ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن»[٤].

ولذا يؤكد ابن كثير على أهمية احترام المرأة ومعاملتها بالتي هي أحسن والتلطف معها ومؤانستها كما هو هدي الرسول ﷺ مع نسائه فيقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[٥]، طَيِّبوا أقوالكم لهن وحَسِّنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها فافعل بها أنت مثله كما

---

(١) سورة الطلاق، الآية [١].

(٢) التفسير ٤/٤٤٦.

(٣) سورة النساء، الآية [٣٤].

(٤) التفسير ١/٦٣.

(٥) سورة النساء، الآية [١٩].

قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[١] وقال ﷺ: **(خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)**[٢]، وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر يداعب أهله ويتطلف بهم، ويوسعهم نفقته ويضاحك نساءه حتى أنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يتودد إليها بذلك، قالت: (سابقني ﷺ فسبقته وذلك قبل أن أحمل اللحم ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني فقال: **(هذه بتلك)**)[٣]. ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، فكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد ويضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء فدخل منزله يسمر مع أهله قليلا قبل أن ينام ويؤانسهم بذلك ﷺ»[٤].

وأخيراً نختم هذا الموضوع بكلمة لابن كثير رحمه الله من كتابه البداية والنهاية تدل على اهتمامه بالمرأة ومنع ظلمها حتى ولو كانت غير مسلمة فيقول رحمه الله عند كلامه حول حادثة أخذ نائب السلطان ربع أموال النصارى بدمشق لعمارة ما خربه إخوانهم الفرنج في الإسكندرية ولعمارة مراكب تغزوهم بسبب ذلك. «وفي أوائل هذا الشهر – شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٧هـ ورد المرسوم الشريف السلطاني بالرد على نساء النصارى ما كان أُخذ منهن من

---

(١) سورة البقرة، الآية [٢٢٨].

(٢) الحديث أخرجه الترمذي كتاب المناقب، باب فضل أصحاب النبي ﷺ رقم (٣٨٩١)، وابن ماجة كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء رقم (١٩٧٩).

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجة كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء رقم (١٩٧٩).

(٤) التفسير ١/ ٥٧٠، ٥٧١.

الجباية التي كان تقدم أخذها منهن وإن كان الجميع ظلما، ولكن الأخذ من النساء أفحش وأبلغ في الظلم»[١].

ثالثا: الواجبات المطلوبة من المرأة المسلمة:

وكما أن للمرأة حقوقا ضمنها الإسلام لها فكذلك عليها واجبات هي مطالبة بأدائها والقيام بها، فالله سبحانه وتعالى جعل المرأة أهلا للتكليف وتحمل المسؤولية، وهذه الأهلية هي مناط تكريم وإعزاز للمرأة المسلمة، مثلها في ذلك مثل الرجل، فالنساء شقائق الرجال، وهي مساوية للرجل في أصول التكاليف الشرعية، من عبادة الله وتوحيده والإيمان به وتعلم ما يلزمها من أمور دينها وطاعة زوجها وتربية أبنائها ونحو ذلك من الواجبات الأخرى، وعندما قالت أم سلمة رضي الله عنها[٢] زوج النبي ﷺ: يا نبي الله مالي أسمع الرجال يُذكرون في القرآن والنساء لا يُذكرن؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣].

---

(١) البداية والنهاية ١٨/ ٧١٠.

(٢) سبق ترجمتها ص ٢٦٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآية [٣٥]، وانظر التفسير ٣/ ٦٠١.

يقول الإمام ابن كثير: «وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم أن الله سبحانه قد أعد لهم أي هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجرا عظيماً وهو الجنة»[١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[٢] قال ابن كثير: «شرع سبحانه – في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير وهو النقرة في ظهر نواة التمر»[٣] وقال عند تفسير الآية: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[٤]، «﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: أي من النساء قانتات، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد يعني مطيعات لأزواجهن»[٥]، ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ قال السدي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله... وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: **(خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك)**[٦].

---

(١) التفسير ٣/٦٠١.

(٢) سورة النساء، آية [١٢٤].

(٣) التفسير ١/٦٨٢.

(٤) سورة النساء، الآية [٣٤].

(٥) التفسير ١/٦٠١.

(٦) الحديث أخرجه النسائي ٥/٣١٠ طبعة دار الفكر العلمية ط١، ١٤١١هـ، وأحمد بلفظ: **(أي النساء خير قال الذي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله)** رقم (٧٤٢١)، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت ط١، ١٤١٧هـ.

رابعاً: صيانتها من التبرج والسفور والاختلاط وما يؤدي إلى سبيل الفتنة:

المرأة في الإسلام درة ثمينة وجوهرة كريمة تصان من كل أذى وتحمى من كل رذيلة، لذا جعل الإسلام للمرأة ضوابط دقيقة، تنال بها عفة نفسها وصيانة فرجها، وسلامة عرضها فأمرها بالحجاب ورغبها في القرار في البيت، ومنعها من التبرج والسفور، ومن الخروج وهي متعطرة ونهاها عن الاختلاط بالأجانب والخلوة معهم، إلى غير ذلك من الضوابط الكريمة والأوامر الجليلة التي لم تؤمر بها إلا صيانة لها من الابتذال، وحماية لها من الشرور والفساد ولتكسى بذلك حلل الطهر والعفاف وليكون أثرها في مجتمعها وأمتها أثراً ايجابيا بناءً، أما إذا تحول أثرها في حياة الأمة إلى أثر سلبي عندئذ تكون فتنة وأي فتنة وضرر وأي ضرر، ففي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنه[1] قال: قال رسول الله ﷺ: **(ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)**[2]، لذا حذر عليه الصلاة والسلام من ذلك فقال: **(اتقوا الدنيا واتقو النساء فان أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)**[3].

فلا غرو ولا عجب أن يهتم الإمام ابن كثير بموضوع صيانة المرأة والحرص

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل من كنانة عوف. الصحابي الجليل حب رسول الله ﷺ وابن حبه ولد سنة ١١ قبل الهجرة ومات سنة ٥٤هـ. انظر الإصابة ٤٥/١ رقم ٨٩، وسير أعلام النبلاء ٤٩٦/٢ والأعلام ٢٨١/١.

(٢) متفق عليه، وأخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب ما يُتقى من شؤم المرأة وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ رقم (٥٠٩٦)، ومسلم كتاب الرقائق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء بلفظ: **(ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء)** رقم (٢٧٤١).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الرقائق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء رقم (٤٧٤٠).

على توجيهها التوجيه السديد، والإرشاد السليم ودعوتها إلى عبادة ربها وطاعة زوجها ودرء المفاسد والشرور عنها لتبقى طاهرة الخلق مصونة عن التهتك والابتذال وبعيدة عن أسباب الزيغ والانحراف والانحلال، فيقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾[1]: «هذه آداب أمر الله بها نساء النبي ﷺ ونساء الأمة تبع في ذلك، فقال مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة ثم قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾.

قال السدي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبهن الرجال ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، أي: دغل ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾... قولاً حسنا معروفا في الخير، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها، وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾، أي: اِلْزَمْنَ بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه كما قال ﷺ: **(لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات)** وفي رواية: **(وبيوتهن خير لهن)**[2] وعن أنس رضي الله عنه قال: جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله ذهب الرجال

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان [٣٢- ٣٣].

(٢) الحديث متفق عليه، وأخرجه البخاري، كتاب الجمعة باب حدثنا يوسف بن موسى رقم (١٣) ورقم الحديث (٩٠٠)، وأخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج مطيبه رقم (٩٩٠).

بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله فقال ﷺ: **(من قعدت - أو كلمة نحوها - منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله)**[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾، قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية، وقال قتادة: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾، ويقول: «إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله عن ذلك... وقال مقاتل... والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج»[2].

وقال عند تفسيره الآية: ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾[3]، قال: «أي وترك وضعهن لثيابهن يعني القواعد من النساء — وإن كان جائزا خير لهن وأفضل لهن»[4]، وقال عند تفسيره الآية: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾[5] «كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت — لا يسمع صوته — ضربت برجلها الأرض فيعلم الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا كان شيء من زينتها

---

(١) الحديث أخرجه البزار رقم (١٤٧٥) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار لأبي بكر الهيثمي ١٨٢/٢ طبعة مؤسسة الرسالة بدون تاريخ.

(٢) التفسير ٥٩٤/٣.

(٣) سورة النور، الآية [٦٠].

(٤) التفسير ٣٧٨/٣.

(٥) سورة النور، الآية [٣١].

مستورا فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾[١].

ومن ذلك أيضا أنها تُنْهَى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشم الرجال طيبها... فعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: **(كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعني زانية)**[٢].... وعن أبي هريرة ﷺ قال: لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب ولذيلها إعصار فقال يا أمة الجبار جئت من المسجد؟ قالت: نعم. قال: ولَهْ تطيبت؟ قالت: نعم، قال: إني سمعت حبي أبا القاسم ﷺ يقول: **(لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة)**[٣]... ومن ذلك أيضا أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج... عن أبي أسيد[٤] الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد — وقد اختلط الرجال بالنساء في الطريق — فقال رسول الله ﷺ للنساء: **(استأخرن فإنه ليس لكن أن تحققن[٥] الطريق، عليكن بحافات الطريق، فكانت المرأة**

---

(١) سورة النور، الآية [٣١].

(٢) الحديث أخرجه الترمذي كتاب الأدب، باب ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة رقم (٢٧٨٦)، وأبو داود بلفظ: **(إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم يجدوا ريحها فهي كذا وكذا)** كتاب اللباس، باب في طيب المرأة للخروج رقم (٤١٧٣).

(٣) الحديث أخرجه أبو داود كتاب اللباس، باب في طيب المرأة للخروج رقم (٣١٧٤)، وقال أبو داود: الأعصار الغبار، وابن ماجة كتاب الفتن باب فتنة النساء رقم (٤٠٠٢).

(٤) هو أبو أسيد الساعدي من كبار الأنصار واسمه مالك بن ربيعة بن البدن، شهد بدراً والمشاهد، وله أحاديث، وقد ذهب بصره في آخر عمره، وكان معه راية بني ساعدة يوم الفتح، توفي سنة ٦٠هـ (سير أعلام النبلاء ٢/٥٣٨).

(٥) تحققن الطريق: أي تتوسطن الطريق، المعجم الوسيط ص ١٨٨.

تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به)[١]، وقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢]، أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله ﷺ وترك ما نهيا عنه والله هو المستعان وعليه التكلان»[٣]، ومن أكبر أضرار الاختلاط وقوع الفتنة ولابد، وهذا ما يؤكده ابن كثير رحمه الله فقال في ترجمة الشيخ خضر الكردي وذلك في وفيات سنة ٦٧٦هـ «ولكنه افتتن لما خالط الناس ببعض بنات الأمراء وكن لا يتحجبن منه فوقع في الفتنة وهذا في الغالب واقع في مخالطة الناس فلا يسلم المخالط لهم من الفتنة ولا سيما مخالطة النساء مع ترك الاحتجاب فلا يسلم العبد البتّة منهن»[٤].

ولهذا يؤكد ابن كثير أن صلاة النساء في بيوتهن أفضل لهن فقال عند تفسير الآية: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٥]، «فأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن لما رواه أبوداود عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **(صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها**

---

(١) الحديث رواه أبو داود كتاب الأدب، باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق، رقم (٥٢٧٢).

(٢) سورة النور، الآية [٣١].

(٣) التفسير ٣/٣٥٦، ٣٥٧.

(٤) البداية والنهاية ١٧/٥٣٨، ٥٣٩.

(٥) سورة النور، الآية [٣٧].

وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها)[١] .

ولكن ابن كثير لم يمنعها من الصلاة في المسجد فقال: «هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط ألا تؤذي أحدا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب... وقد ثبت في صحيح مسلم عن زينب امرأة ابن مسعود ﷺ قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: **(إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا)**[٢]».

إلى غير ذلك من الآداب والتوجيهات والضوابط المتعلقة بالمرأة المسلمة والتي يعتبرها الإمام ابن كثير رحمة الله صمام أمان لها وحارساً لشرفها وكرامتها، والتي يتعين على الدعاة إلى الله مراعاة هذه الآداب والتوجيهات والضوابط المتعلقة بالمرأة، والحرص على دعوتها وتربيتها والعناية بها لا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه الدعوات الضالة لإفسادها والخروج بها عن طبيعتها وأداء رسالتها نحو تربية الأولاد ورعايتهم داخل المنزل، كل ذلك باسم تحريرها والنهوض بها ومشاركتها للمجتمع في عملية التنمية والتطوير.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود كتاب الصلاة، باب التشديد في خروج النساء إلى المسجد رقم (٥٧٠).

(٢) التفسير ٣/٣٦٧.

الحديث أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج مطيبه رقم (٤٤٣).

المبحث الخامس

الموضوعية في منهج ابن كثير

وفيه مطالب:

توطئة:

الموضوعية هي إقصاء العوامل الذاتية والنزعات الشخصية والتوجهات الأيدلوجية – الخاطئة – التي تشكل مجموع القيم التي يدين بها الباحث وتسيطر على تفكيره وتكوينه، وتتحكم في مجموع العمليات الفكرية والعقلية التي يقوم بها، وتوجهه نحو هدف معين[1][2].

---

(١) انظر الموسوعة الفلسفية العربية ص٨٠٣، نشر معهد الإنماء العربي ١٩٨٦م، والموضوعية والذاتية في الكتابة التاريخية، عبد الملك التميمي مجلة عالم الفكر وزارة الأعلام الكويتي العدد٤ المجلد٢٩.

(٢) وليس المراد بالتجرد والموضوعية هي تلك النظرة الساذجة الشائعة بين كثير من المثقفين منّا أو من الغربيين بل وحتى بين كثير من المشتغلين بالعلوم سواء منها الطبيعي أو الاجتماعي، هذه النظرة تقول إن للعلوم منهجاً واحداً متفقاً عليه بين كل العلماء الذين يدرسون الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية دراسة علمية، وأن هذا المنهج يُمكّن سالكه من الوصول إلى الحقائق الواقعية وتصويرها كما هي تصويراً أميناً، ويفسرها التفسير الصحيح الذي يتناسب معها، وهذا التصوير والتفسير لا علاقة لهما بمعتقدات الباحث المفسر ولا بآرائه الفلسفية أو قيمه الخلقية أو أهدافه الذاتية أو حقبته التاريخية أو بيئته الثقافية، وهذا يعني أن قضية المنهج العلمي قضية قد بُتَّ فيها ولم تعد تحتاج إلى نظر جديد، وأنه ما علينا إذا أردنا أن نكون علماء إلا أن نعرف هذا المنهج ونلتزم به في المجالات التي نريد دراستها لكي نصل إلى حقائقها وندرك=

ومن أبرز آثار الموضوعية الدعوية في منهج ابن كثير الإخلاص في الوصول إلى الحق ومحبة الآخرين، والحرص على نفعهم، وحسن الظن بهم، والتماس الأعذار لهم، واتباع منهج العدل والإنصاف مع الخصوم، واجتناب الجدل المذموم في الدين، ونبذ الجمود الفكري والتعصب المذهبي، وكذلك نظرة ابن كثير الواقعية للإنسان من حيث تكوينه ولوازم ذلك، وهذا ما ستتحدث عنه في هذا المبحث.

=تفسيرها، والحقيقة أنه إذا كان المراد بالتجرد من الاعتقادات والميول والأفكار هو أن يخلي العالم ذهنه فعلاً من كل هذا ويقبل على قضية بحثه مجرداً فهذا شرط يستحيل تطبيقه، وعلى فرض إمكانه فإنه لا يكون شرطاً لحصول العلم بل سبباً في عدم حصوله، وذلك أن كل إنسان يعلم من نفسه أنه لا يستطيع أن يكف لحظة واحدة وهو يقظان عن حديث مع نفسه أو حديث مع غيره وكلا الحديثين صادر عن أفكار واعتقادات فكيف والقضية التي يبحثها العالم قد تستغرق منه أشهراً بل سنين، فهو سبب في عدم حصول العلم لأن العلم وإن سمي علماً تجريبياً إلا أن التجربة والمشاهدة لا تكون إلا في ضوء سؤال أو افتراض، فالعالم لا يبدأ بحثه بالمشاهدة ولا بالتجربة ماذا يشاهد وماذا يجرب؟ إنه يبدأ بفكرة ثم يشاهد من الطبيعة أو المجتمع ما يراه متعلقاً بتلك الفكرة، أو يجري تجربة معينة ذات علاقة بإثبات تلك الفكرة أو نفيها، ولأن العلم كما يقولون أمر تراكمي أي أن الجديد المكتشف منه يضاف إلى قديم سبقت معرفته بل إن القضية الجديدة التي يراد البحث فيها إنما تنشأ عن معرفة سابقة، فلو أن كل باحث بدأ تجربته وهو خال الذهن حتى من تلك المعلومات الخاصة بمجال بحثه لما نما العلم وما تطور، وأما إذا كان المقصود بالتجرد أن يكون الإنسان مستعداً أن يقْبل ما دلّت عليه المشاهدة وما كان نتيجة للتجربة أو لازماً عقلياً من لوازمها أو أن يكون أميناً في نقل ما جرّب وشاهد واستنتج وإن خالف اعتقاداً سابقاً له أو للمجتمع الذي يعيش فيه، وكذلك إذا كان المقصود بالتجرد أن يشاهد الإنسان ويجرب بذهن منفتح غير متأثر بتأثيرات سابقة فيما يمكن أن يكون وما لا يكون، أو فيما يصح وما لا يصح من التفسيرات والنتائج فهذا أمر ممكن مرغوب فيه بل هو المثل الأعلى للمنهج العلمي القائم على التجرد والموضوعية، انظر إسلامية العلوم وموضوعيتها، جعفر شيخ إدريس ص٧-٦، مرجع سابق.

المطلب الأول

الإخلاص في الوصول إلى الحق

إن مما يمتاز به منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله هو إخلاصه ورغبته في الوصول إلى الحق، فكان رحمه الله يقبل الحق من كل أحد مهما كان؛ لأن الحق هو ضالة المؤمن فحيث وجده أخذ به وتمسك به، فكان الإخلاص رائده ودليله، ومعرفة الحق والوصول إليه غايته ومقصوده، ويظهر ذلك في أمانته العلمية بحيث ينقل نصوص مخالفيه بألفاظها، ثم تَثَبُّتُهُ وتَحرِّيْه فيما ينقل من الأقوال والمذاهب والآراء والتحقق من نسبتها إلى أصحابها، وكذلك توثيق المعلومات بذكر أصحابها أو مصادرها.

ومن مظاهر إخلاصه وتجرده أنه ينتقد الذين يعالجون الأخطاء والانحرافات بأخطاء مثلها ويقابلون البدعة ببدعة مثلها ومن الأمثلة على ذلك:

نَقْله كلام الرازي بحروفه عن وجوب تعلم السحر فقال: «المسألة الخامسة في أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور: اتفق المحققون على ذلك لأن العلم لذاته شريف وأيضا لعموم قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]؛ ولأن السحر لو لم يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة، والعلم بكون المعجز معجزاً واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب، فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبا وما يكون واجبا فكيف

(١) سورة الزمر، الآية [٩].

يكون حراما وقبيحاً، هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظر من وجوه...»[١].

فنلاحظ أن ابن كثير نقل كلام الرازي بحروفه ثم أخذ في الرد عليه، وكذلك عند تفسير الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] قال: «وقال أبو جعفر الرازي[٣] عن الربيع بن أنس[٤] عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: الإنس عالم والجن عالم وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم أو أربعة عشر ألف عالم - هو شك -..... وللأرض أربع زوايا وفي كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح»[٥].

---

(١) التفسير ١/١٨٢، ١٨١.

(٢) سورة الفاتحة، الآية [٢].

(٣) هو أبو جعفر الرازي عيسى ماهان عالم الري، يقال أنه ولد بالبصرة، وكان يتّجر إلى الري ويقيم به، ولد في حدود التسعين في حياة بقايا الصحابة، حدث عن عطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار وقتادة والربيع بن أنس وجماعة، توفي في حدود سنة ستين ومائة، سير أعلام النبلاء ٧/٣٤٦.

(٤) هو الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني المروزي، بصري سمع أنس بن مالك وأبا العالية الرياحي وأكثر منه، والحسن البصري، وكان عالم مرو في زمانه، وقد روى الليث عن عبيد الله بن زَحْر عنه، ولقيه سفيان الثوري، وسجنه أبو مسلم تسعة أعوام وتحيّل ابن المبارك حتى دخل إليه فسمع منه توفي سنة تسع وثلاثين ومائة، سير أعلام النبلاء٦/١٦٩.

(٥) المرجع نفسه ١/٣٥.

وقال عند تفسير الآية: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١]، قال: «والمسلمون متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى لما له في ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه، وقال أبو مسلم الأصبهاني[٢] المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، وقوله هذا ضعيف ومردود ومرذول، وقد تعسف في الأجوبة عما وقع..»[٣]. وغير ذلك من المواطن الكثيرة في تفسيره حيث إنه ينقل كلام من يختلف معهم بألفاظه وحروفه ثم يقوم بالرد عليها.

وكذلك توثيق المعلومات والأقوال والآراء بذكر أصحابها أو مصادرها، فمن ذلك مثلا قوله عند تفسير الآية: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾[٤] «أي ما ثم إلا هذه الدار يموت قوم ويعيش آخرون وما ثم معاد ولا قيامه وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد.... ويقوله الفلاسفة الدهرية الدورية والمنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد يتكرر مرات لا تتناهى فكابروا المعقول وكذبوا المنقول»[٥]،

---

(١) سورة البقرة، الآية [١٠٧].

(٢) هو محمد بن بحر الأصفهاني أبو مسلم، وَالٍ، من أهل أصفهان معتزلي من كبار الكتاب كان عالماً بالتفسير وبغيره من صنوف العلم وله شعر، ولي أصفهان وبلاد فارس للمقتدر العباسي، واستمر إلى أن دخل ابن بويه أصفهان سنة ٣٢١هـ فعزل، من كتبه: "جامع التأويل في التفسير"، و"الناسخ والمنسوخ"، وغيرها. توفي سنة ٣٢٢هـ. الأعلام ٦/٥٠.

(٣) المرجع نفسه ١/١٩٠.

(٤) سورة الجاثية، الآية [٢٤].

(٥) المرجع نفسه ٤/١٧٩

وقال أيضاً عند تفسير الآية السابقة «وقد غلط ابن حزم[١] ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدِّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث: **(لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر)**[٢]»[٣]، وعند تفسير الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[٤]، قال «فإن عائشة رضي الله عنها[٥] أم المؤمنين سألت عن ذلك - أي رؤية محمد ﷺ لربه - بعد الإسراء ولم يثبت لها الرؤية ومن قال إنه خاطبها على قدر عقلها أو حاول تخطئتها فيما ذهبت إليه كابن خزيمة[٦] في كتاب التوحيد فإنه هو المخطئ والله أعلم»[٧].

---

(١) هو الإمام الأوحد البحر ذو الفنون والمعارف أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفقيه الحافظ المتكلم الأديب الوزير الظاهري صاحب التصانيف، ولد أبو محمد بقرطبة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة نشأ في تنعم ورفاهية، ورزق ذكاءً مفرطاً وذهناً سيالاً وكتباً نفيسة كثيرة، وكان والده من كبراء أهل قرطبة، قيل إنه تفقه أولاً للشافعي ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليه وخفيه والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث والقول بالبراءة الأصلية واستصحاب الحال، وصنف في ذلك كتباً كثيرة منها: "المحلى والإحكام لأصول الأحكام"، وغيرها. توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة، سير أعلام النبلاء ١٨/١٨٤.

(٢) الحديث متفق عليه، وأخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب سورة (حم) الجاثية رقم (٤٨٢٦)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها رقم (٢٢٤٦).

(٣) التفسير ٤/١٧٩.

(٤) سورة النجم، الآية [١٣].

(٥) سبق ترجمتها ص ٢٦٧.

(٦) سبقت ترجمته ص٧١.

(٧) المرجع نفسه ٤/٢٩٧.

وكذلك انتقاده لمن يعالج الخطأ بخطأ مماثل فقال في أحداث سنة ٣٦٣هـ: «وفيها عُملت البدعة الشنعاء على عادة الروافض - وهي الاحتفال بيوم عاشوراء - ووقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والروافض وكلا الفريقين قليل عقل بعيد عن السداد، وذلك أن جماعة من السنة أركبوا امرأة وسموها عائشة وتسمى بعضهم بطلحة وبعضهم بالزبير وقالوا نقاتل أصحاب علي بن أبي طالب، فقتل من الفريقين خلق كثير، وعاث العيارون في البلد بالفساد ونهب الأموال وقَتْل الرجال، ثم أُخذ جماعة منهم فقتلوا وصلبوا فسكنت النفوس»[1].

فما يفعله الروافض في عاشوراء من النياحة وتعليق المسوح وتغليق الأسواق وخروج النساء سافرات عن وجوههن ينحن على الحسين[2] ويلطمن وجوههن، فهذا الخطأ لا يعالج بخطأ مثله من خروج امرأة من السنة وتتسمى بعائشة ومن

---

(١) البداية والنهاية ١٥/٤٨٣.

(٢) هو الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي العدناني أبو عبد الله السبط الشهيد ابن فاطمة الزهراء، وفي الحديث: (**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**)، ولد في المدينة ونشأ في بيت النبوة وإليه نسبة كثير من الحسينيين، ولما مات معاوية وخلفه ابنه يزيد تخلف الحسين عن مبايعته ورحل إلى مكة في جماعة من أصحابه وأقام فيها شهراً، ودعاه إلى الكوفة أشياعه (وأشياع أبيه وأخيه من قبل) فيها على أن يبايعوه بالخلافة فأجابهم، وخرج من مكة في مواليه ونسائه وذراريه ونحو الثمانين من رجاله، وعلم يزيد بسفره فوجه إليه جيشا فاعترضه في كربلاء بالعراق فنشب قتال عنيف وقتل ﷺ، قتله سنان بن أنس النخعي وقيل الشمر ابن ذي الجوشن سنة ٦١هـ. الأعلام ٢/٢٤٣.

الرجال من يتسمى بطلحة[١] والزبير ثم يتقاتل الفريقان من السنة والشيعة ولذا وصف ابن كثير هذا التصرف بقلة العقل والبعد عن السداد، وأن هذا «من باب مقابلة البدعة ببدعة مثلها ولا يرفع البدعة إلا السنة الصحيحة»[٢].

فحري بالداعية إلى الله أن يكون همه ومقصده الإخلاص وهدفه وغايته الوصول إلى الحق، وأن لا ينتصر لنفسه فيعالج الخطأ بخطأ مثله.

المطلب الثاني

محبة الآخرين والحرص على نفعهم

مما يمتاز به ابن كثير رحمه الله كذلك الحرص على نفع الناس ومحبة الخير لهم ونصحهم وإرشادهم وبذل الخير لهم، فيقول رحمه الله بعد ذكره قصة صاحب الجنة: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾[٣] وهذه القصة تضمنت: أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر بها، ولا يثق بها بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه في كل شيء نصب عينيه وليكن بما في يد الله أوثق منه مما في يديه، وفيها أن من قدَّم شيئا

---

(١) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي المدني أبو محمد صحابي، شجاع من الأجواد، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، قال ابن عساكر: «كان من دهاة قريش ومن علمائهم رضي الله عنه وبايعه على الموت فأصيب بأربعة وعشرين جرحاً وسلم»، فشهد الخندق وسائر المشاهد وكانت له تجارة وافره مع العراق ولم يكن يدع أحدا من بني تيم عائلاً إلا كفاه مؤونته ومؤونة عياله ووفى دينه. قتل يوم الجمل سنة ٣٦ هـ. الأعلام ٢٢٩/٣.

(٢) البداية والنهاية ٤٨٢-٤٨٣.

(٣) سورة الكهف، الآية [٣٩].

على طاعة الله والإنفاق في سبيله عُذِّب به وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده، وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق وأن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة، وفيها أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر ونفذ الأمر الحتم، والله المستعان وعليه التكلان[١].

ويقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾[٢]: «قال قتادة[٣]: لا تلقى المؤمن إلا ناصحا لا تلقاه غاشا... ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾[٤] «بإيماني بربي وتصديقي المرسلين، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه فلقد كان حريصا على هداية قومه»[٥]، فالمؤمن الصادق عند ابن كثير هو الذي يحرص على أن يكون داعية إلى الخير ومتعدياً نفعه إلى غيره، فيقول عند تفسير الآية: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[٦]

---

(١) البداية والنهاية ٢/٥٧٧

(٢) سورة يس، الآية [٢٦].

(٣) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عُزيز أبو الخطاب السدوسي البصري، مفسر حافظ، ضرير أكمه، قال الإمام أحمد بن حنبل: «قتادة أحفظ أهل البصرة»، وكان مع علمه في الحديث رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب، وكان يرى القدر، وقد يدس في الحديث، مات بواسط في الطاعون سنة١١٨هـ، الأعلام ٥/١٨٩.

(٤) سورة يس، الآية [٢٧].

(٥) التفسير ٣/٦٩٧.

(٦) سورة الفرقان، الآية [٧٤].

«فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذراريهم، وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثواباً وأحسن مآبا»[١].

ولذلك فمنهج ابن كثير الدعوي ينطلق من محبة الآخرين والحرص على دعوتهم ونفعهم دون التفريق بين شريف ووضيع وغني وفقير، فهو يشير رحمه الله إلى أن الله سبحانه «أمر رسوله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحدا بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف والفقير والغني والسادة والعبيد والرجال والنساء والصغار والكبار، ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم له الحكمة والحجة»[٢].

وهذا ما يجب أن يكون عليه الدعاة في علاقتهم بالآخرين ودعوتهم لهم.

المطلب الثالث

حسن الظن بالآخرين والبحث عن عذر لهم

فمنهجه رحمه الله عند مناقشته للآراء والأقوال يحسن الظن بقائليها، ويلتمس لهم الأعذار، ويبحث لهم عن المخارج، ومن ذلك مثلا مناقشته لكعب الأحبار في تفسيره لقول الله سبحانه عن ذي القرنين: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[٣] لما قال إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا فقال: «إن معاوية بن أبي سفيان قال

---

(١) المرجع نفسه ٣/٤١٠.

(٢) المرجع نفسه ٤/٥٥٥ وذلك عند تفسير الآية: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس ٨-١٠].

(٣) سورة الكهف، الآية [٨٤].

لكعب الأحبار[١]: أنت تقول إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك فإن الله تعالى قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، قال ابن كثير وهذا الذي أنكره معاوية رضي الله عنه على كعب الأحبار هو الصواب، والحق مع معاوية في ذلك الإنكار فإن معاوية كان يقول عن كعب: "إنا كنا لنبلو عليه الكذب"، يعني فيما ينقله لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس في صُحُفِه، ولكن الشأن في صحفه أنها من الإسرائيليات التي غالبها مبدّل مصحفَ محرّف مختلف...»[٢]

فابن كثير رحمه الله يحسن الظن بكعب، وإن المراد بالكذب الذي ذكره معاوية هو ما في الصحف المحرفة والمبدلة لا على أن كعباً رحمه الله يتعمد الكذب.

وقال عند تفسير الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[٣] «حدثنا ابن عون عن نافع قال قرأت ذات يوم ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فقال ابن عمر: أتدري فيما أنزلت؟ قلت: لا. قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن، قال ابن كثير: وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحا وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي.... وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك رحمه الله في «كتاب السر» وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رحمه الله، وقد وردت

---

(١) هو كعب بن مانع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم، فسكن حمص وتوفي فيها عن مائة وأربع سنين عام ٣٢هـ، الأعلام ٢٢٨/٥.

(٢) التفسير ١٢٩/٣.

(٣) سورة البقرة، الآية [٢٢٣].

الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه...»[١]، فدافع رحمه الله عن ابن عمر وأنه روى عنه خلاف ذلك وكذلك الشأن في الإمام مالك وان كتاب السر ليس له ولا يصح عنه هذا القول.

فالدعاة إلى الله أحوج ما يكونون إلى هذا الخلق النبيل لا سيما فيما بينهم فيحرص كل منهم على حسن الظن بأخيه، وأن يلتمس العذر له في بعض ما يجده منه من تصرفات معينة بحيث يبحث له عن مخارج حسنة، ويحمل هذا التصرف على أحسن المحامل، وإن مما يعين على ذلك حرص الدعاة على التواصل فيما بينهم والالتقاء والحوار الصادق للوصول إلى الحق وإزالة ما في النفوس من الوحشة والكدر.

المطلب الرابع

العدل والإنصاف مع الخصوم

العدل هو شعار ابن كثير في تعامله مع غيره وحتى ولو كانوا خصومه وأعداءه، فيقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢]: «أي لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال... والعدل به قامت السموات والأرض»[٣].

---

(١) التفسير ١/ ٣٢٤-٣٢٥.

(٢) سورة المائدة، الآية [٢].

(٣) التفسير ٢/ ١٠.

وهناك مواقف عملية لابن كثير رحمه الله تدل على التزامه بمبدأ العدل وإنصافه به مع خصومه ومناوئيه فمن ذلك مثلا:

[١] إنصافه مع ابن الزملكاني وقد كان له موقف مناوئ مع ابن تيمية شيخ ابن كثير الذي كان يحبه ويدافع عنه ويذب عنه، ومع ذلك لما ترجم له في وفيات سنة ٧٢٧هـ فقال: «شيخ الشافعية بالشام وغيرها انتهت إليه رياسة المذهب تدريسا وإفتاء ومناظرة ... وبرع وحصل وساد أقرانه من أهل مذهبه وحاز قصب السبق عليهم بذهنه الوقاد في تحصيل العلم، وأما دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس درس أحسن منها ولا أحلى من عبارته وحسن تقريره وجودة احترازاته وصحة ذهنه وقوة قريحته وحسن نظمه... ولا يهيله تعداد الدروس وكثرة الفقهاء والفضلاء، بل كلما كان الجمع أكثر والفضلاء أكبر كان الدرس أنضر وأبهر وأحلى وأنصح وأفصح، ثم لما انتقل إلى قضاء حلب وما معه من المدارس العديدة عامله معاملة مثلها وأوسع بالفضيلة جميع أهلها، وسمعوا من العلوم ما لم يسمعوا هم ولا آباؤهم، ثم طُلب إلى الديار المصرية ليولي البلاد الشامية دار السنة النبوية فعاجلته المنية قبل وصوله إليها.... وكان من نيته الخبيثة إذا رجع إلى الشام متولياً أن يؤذي شيخ الإسلام ابن تيمية فدعا عليه فلم يبلغ أمله ومراده فتوفي في سحر يوم الأربعاء[1]، فسار إليها صحبته البريد ليلة الأحد وخرج الكبراء والأعيان

(١) البداية والنهاية ١٨/٢٨٦-٢٨٨.

لتويدعه وفي خدمته»[١].

[٢] إنصافه لقاضي القضاة تقي الدين السبكي، وذلك برد الاتهام عنه والافتراء عليه بالتفريط في أموال اليتامى، وقد كان بين السبكي وابن كثير وشيخه ابن تيمية خصومة فكرية، يقول ابن كثير في أحداث سنة ٧٤٣هـ: «وكتبت فتوى عليه بذلك في تغريمه وداروا بها على المفتين.... وسئلت في الإفتاء عليها فامتنعت لما فيها من التشويش على الحكام، وفي أول مرسوم نائب السلطان أن يتأمل المفتون هذا السؤال ويفتوا بما يقتضيه حكم الشرع الشريف، وكانوا له في نية عجيبة ففرج عنه بطلبه إلى الديار المصرية فسار إليها...»[٢].

وكذلك مع ولده تاج الدين السبكي[٣] يقول ابن كثير: «ولما كان يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الثاني سنة ٧٤٣هـ عقد مجلس حافل بدار السعادة بسبب ما رمى به قاضي القضاة تاج الدين الشافعي ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي وكنت فمن طلب إليه فحضرته فيمن حضر.. وكان قد كتب

---

(١) البداية والنهاية ١٨/٤٥٤.

(٢) المرجع نفسه ١٨/٤٥٤.

(٣) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي أبو نصر، قاضي القضاة، المؤرخ الباحث ولد في القاهرة، وانتقل إلى دمشق مع والده فسكنها وتوفي بها، نسبه إلى سبك من أعمال المنوفية بمصر، وكان طلق اللسان قوي الحجة انتهى إليه قضاء القضاة في الشام، وعزل وتعصب عليه شيوخ عصره، من تصانيفه: "طبقات الشافعية الكبرى"، و"معيد النعم ومبيد النقم"، و"الأشباه والنظائر"، وغيرها، توفي سنة ٧٧١هـ، الأعلام ٤/١٨٤.

محضران متعاكسان أحدهما له والآخر عليه... وفيه عظائم وأشياء منكرة جداً ينبو السمع عن استماعها وفي الآخر خطوط جماعات من المذاهب بالثناء عليه وفيه خطّي بأني ما رأيت عليه إلا خيرا»[1].

[٣] ولم يكن التزام ابن كثير رحمه الله بالعدل والإنصاف مع المسلمين وأهل ملته فقط بل كان أيضاً مع غير المسلمين، ويوضح ما نقوله موقفه مع نصارى الشام، فحينما اعتدى الإفرنج على مدينة الإسكندرية عام ٧٦٧هـ وصدر المرسوم السلطاني بالانتقام من نصارى الشام ومصادرة أموالهم انتقاما من الإفرنج، اعترض ابن كثير رحمه الله على ذلك وأكد عدم جواز تطبيقه لمخالفته للشرع.

يقول رحمه الله: «ووردت الأخبار بما وقع من الأمر الفظيع بمدينة الإسكندرية من الفرنج لعنهم الله... فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار بعدما حرقوا أبوابا كثيرة منها، وعاثوا في أهلها فسادا يقتلون الرجال ويأخذون الأموال ويأسرون النساء والأطفال فالحكم لله العلي الكبير المتعال... ثم جاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة وأن يُؤخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الإفرنج فأهانوا النصارى وطلبوا من بيوتهم وخافوا أن يُقْتلوا، ولم يفهموا ما يراد بهم فهربوا كل مهرب، ولم تكن هذه الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعاً، وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة... فذكرت أن هذا لا يجوز اعتماده في

(١) البداية والنهاية ١٨/٧٠٨

النصارى، فقال إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك فقلت له إن هذا مما لا يسوغ شرعا ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة لا يجوز أن يُؤخذ منهم الدرهم الواحد الفرد فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير... فجعل يعجبه هذا جداً وذكر أن هذا كان في قلبه وأني كاشفته بهذا»[1].

والعدل والإنصاف من الصفات المهمة للداعية وذلك حتى يكون قدوة حسنة للمدعوين، ويكون محل ثقة وتقدير واحترام بينهم، ومن كانت هذه صفته من الدعاة فأحرى أن يقبل الناس دعوته ويتأثروا بقوله، وينقادوا له ويسمعوا منه.

وأمر آخر وهو أن الدعاة مطلوب منهم أن ينصف بعضهم بعضاً وأن يتعرف كل واحد بما عند الآخر من الفضل والخير، وأن يتعاونوا على البر والتقوى، وإذا قدر أن هناك خصومة وعداوة بين داعية وآخر فلا يعني ذلك حصول الظلم والعداوة والبغضاء، بل يكون المنهج الذي سار عليه ابن كثير من الإنصاف والعدل مع الخصوم هو المنهج الذي يُحتذى به ويسار عليه، وكم أعرض كثير من الناس عن سماع بعض الدعاة والاستجابة لهم بسبب ما يرونه من التنافس بينهم، وحصول البغضاء والشحناء والظلم وعدم الإنصاف.

---

(١) البداية والنهاية ١٨/٧٠٥ – ٧٠٧.

وللمزيد من معرفة بعض المواقف التي تدل على عدل الإمام ابن كثير وإنصافه مع غيره. انظر المرجع نفسه مثلاً: ٧/٤٦٣، ١٥/٣٤٤، ١٥/٥٨٣، ١٥/٢٧٢، ١٦/٤٧٦، ١٧/٥١٤، ١٧/١٥، ١٧/٦٥٢، ١٨/٥٧١، ١٥/٢٢٦، ١٥/٤٨٣، ١٧/٥١٤، ١٨/٧٠٨.

المطلب الخامس

النظرة الواقعية للإنسان من حوله من حيث تكوينه ولوازم ذلك

اهتم ابن كثير رحمه الله بالإنسان من جميع جوانبه النفسية والعقلية وميوله الذاتية والاجتماعية ورغباته وطبيعته واستجابته لأنواع المؤثرات من حوله، كما تعرض ابن كثير للفروق الفردية والتفاوت والاختلافات بين الناس، وغير ذلك مما يتعلق بالنظرة الواقعية للإنسان من حيث تكوينه ولوازم ذلك، ولعلنا نتعرف على نظرة ابن كثير للإنسان من خلال النقاط التالية:

[١] يرى ابن كثير أن النفوس خلقها الله سوّية ومستقيمة على الفطرة، فيقول عند تفسير الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[١]: «أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢]، وقال رسول الله ﷺ: **(ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)**[٣] وعن رسول الله

---

(١) سورة الشمس، الآية [٧].

(٢) سورة الروم، الآية [٣٠].

(٣) الحديث متفق عليه، وأخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ رقم (١٣٥٨) ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.. رقم (٢٦٥٨) وأبو داود في كتاب السنة، باب في ذراري المسلمين بلفظ «كل مولود... رقم (٤٧١٤) والترمذي في كتاب القدر باب ما جاء كل مولود يولد على الفطرة (٢١٣٨).

ﷺ قال: **(يقول الله عز وجل إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)**[١].

[٢] الإنسان طيب الأصل، فابن كثير يرى أن الإنسان طيب أصله ومعدنه حتى لو كان عدوا بخلاف العدو من الجن، فيقول رحمه الله عند كلامه على الاستعاذة: «قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤]. قال ابن كثير: «فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليردَّه عنه طبعُه الطيب الأصيل إلى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه من قبل»[٥].

---

(١) التفسير ٤/٦١٣. والحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة ونعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار رقم (٢٨٦٥).

(٢) سورة الاعراف، الآية [١٩٩].

(٣) سورة المؤمنون، الآية [٩٦ – ٩٨].

(٤) سورة فصلت، الآية [٣٤ – ٣٦].

(٥) المرجع نفسه ١/٢٢.

[٣] وكما أن الإنسان طيب الأصل ومفطور على الخير فإن من طبيعته أيضا القنوط واليأس إذا أصابته شدة، فيقول عند تفسير الآية: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾[١]، «يخبر الله تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل وكفر وجحود لماضي الحال كأنه لم ير خيرا ولم يرج بعد ذلك فرجا، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة «ليقولن ذهب السيئات عني» أي يقول ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، «إنه لفرح فخور»، أي فرح بما في يده بطر فخور على غيره»[٢].

[٤] وكذلك طبيعة أكثر الناس رديئة ومجبولة على مخالفة الأمر المطلوب منها، فيقول عند تفسير الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[٣]: «يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبوه من المناهي لما فعلوه لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن أو كان كيف يكون»[٤].

[٥] وكذلك من طبيعته أنه إذا أنعم الله عليه بحال وعافية أعرض عن طاعة الله ونأى بجانبه، يقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ

---

(١) سورة هود، الآية [٩].

(٢) التفسير ٢/٥٤٠.

(٣) سورة النساء، الآية [٦٦].

(٤) التفسير ١/٦٣٧.

أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾[١] «يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصم الله تعالى في حالتي سرائه وضرائه فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر ونال ما يريد أعرض عن طاعة الله ونأى بجانبه... وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب والحوادث والنوائب كان يؤوسا» أي قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير»[٢].

[٦] مراعاة ابن كثير للفروق الفردية بين الناس، وأن الله خلقهم وجعل بينهم تفاوتاً في الأرزاق والآجال، فيقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾[٣]، «أي فآوت بينكم في الأرزاق والآجال والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان وله الحكم في ذلك»[٤]. وقال عند تفسير الآية: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[٥] أي فيها — الأرض — من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما ذرأ فيها من صنوف النبات... واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى وما فيهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة»[٦].

[٧] خطر دعاة السوء، فابن كثير رحمه الله يحذر من خطر دعاة السوء فيقول عند تفسير الآية: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِنَا

(١) سورة الاسراء، الآية [٨٣].
(٢) التفسير ٣/٨٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية [١٦٥].
(٤) المرجع نفسه ٢/٢٥٤.
(٥) سورة الذاريات الآيتان [٢٠-٢١].
(٦) المرجع نفسه ٤/٢٧٦.

بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] «هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى الله عز وجل كمثل رجل ضل عن الطريق تائها ضالا إذ ناداه مناد يا فلان هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه «يا فلان هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق»[2].

[٨] أهمية إصلاح نفسه وعدم نظره إلى فساد الناس يقول رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[3] «يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ومخبرا لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريبا منه أو بعيدا»[4].

[٩] وأخيرا يؤكد ابن كثير على أن لا تقتصر همة الإنسان على الدنيا فقط بل تكون همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فيقول عند تفسير الآية: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[5]: «أي فلا يقتصر قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل

---

(١) سورة الأنعام، الآية [٧١].

(٢) التفسير ١٨٦/٢.

(٣) سورة المائدة، الآية [١٠٥].

(٤) المرجع نفسه ١٤١/٢، ١٤٢.

(٥) سورة النساء، الآية [١٣٤].

المطالب العالية في الدنيا والآخرة فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا اله إلا هو الذي قسم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة بين الناس وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا وممن يستحق هذا»[١].

فمعرفة الدعاة لطبيعة المدعوين وحاجاتهم ومراعاة الفروق بينهم من الأمور المهمة لنجاحهم في أداء رسالتهم وتأثيرهم على الآخرين، فهناك من الناس من يؤثر فيهم الأسلوب العاطفي فيحتاج إلى التذكير والموعظة الحسنة بينما هناك آخرون يناسبهم المنهج العقلي وأسلوب الإقناع والحوار والمجادلة وهكذا، فالناس ليسوا على درجة واحدة من الفهم والذكاء، وكذلك تختلف طبائعهم وعاداتهم مما يحسن بالداعية مراعاة ذلك والتنبيه له وسنتناول الحديث عن ذلك في مبحث العلم بأحوال المدعوين.

المطلب السادس

اجتناب الجدل المذموم في الدين

يحرص ابن كثير رحمه الله على تجنب الجدل المذموم والخصومات والمراء في الدين، وينهى عن ذلك أشد النهي، وذلك لأنه منهج يقود صاحبه إلى الخوض في الباطل والوقوع في الآراء الضالة، مع ما يورثه من العداوة والبغضاء، وابن كثير حينما ينهى عن الجدل المذموم في الدين فهو يُجيز المناظرة ويحبذها بل ويوجبها أحياناً متى وجدت أسبابها ودواعيها على أن يتجنب المحاور المماراة لأنها تقطع الفائدة والعلم النافع فيقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[٢]:

---

(١) التفسير ١/٦٨٩.

(٢) سورة الكهف، الآية [٥٤].

«يقول تعالى ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها لئلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصَّره بطريق النجاة»[١].

ويقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٢]، «يخبر تعالى أنه قادر على جعله الناس أمة واحدة من إيمان أو كفران... وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي ولا يزال الخُلْفُ من الناس في أديانهم واعتقاداتهم ومللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم..... إلا من رحم ربك أي إلا الموحدين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أُمروا به من الدين... كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فمن رحم ربك غير مختلف، وقيل ولذلك خلقهم؟ فقال خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق هؤلاء لرحمته وخلق هؤلاء لعذابه»[٣].

فعدم الاختلاف في الدين هو الرحمة، والذي أهلك الناس هو المراء والخصومات في الدين، يقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي

---

(١) التفسير ٣/١١٦.

(٢) سورة هود آية ١١٨- ١١٩.

(٣) التفسير ٢/٥٧٢- ٥٧٣.

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[١]، وعن ابن عباس قوله: ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[٢] وقوله: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[٣] ونحو هذا في القرآن، قال أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله، ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد»[٤].

وابن كثير رحمه الله يرسم منهجاً عظيماً وقاعدة مهمة في حكاية الخلاف واستعراض الأقوال والرد عليها فيقول في مقدمة التفسير عند ذكره للآية: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾[٥]: «فقد اشملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعلم ما ينبغي في مثل هذا فإنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال، ضعّف القولين الأولين وسكت عن الثالث فدل على صحته إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته..... فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥٣.

(٢) سورة الشورى، الآية [١٣].

(٣) سورة الشورى، آية [١٣].

(٤) التفسير ٢/٢٤٢.

(٥) سورة الكهف، الآية [٢٢].

والخلاف فيما لا فائدة تحته فتشتغل عن الأهم فالأهم، فأما من حكى خلافاً في مسألة لم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً فإن صحَّح غير الصحيح عامداً فقد تعمّد الكذب أو جاهلاً فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقولاً متعددة لفظاً، ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان وتكثّر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبي زور والله الموفق للصواب»[١].

كما يؤكد رحمه الله أنه يتعين على الإنسان أن يتكلم فيما يعلم ويسكت عما يجهل وأن لا يحاج فيما لا علم له به، فقال عند حديثه عن تحرج السلف عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه: «فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه ولهذا روي عن هؤلاء – السلف – وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد فإنه يجب السكون عما لا علم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[٢][٣]» ويقول عند تفسير الآية: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٤]، «هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم

(١) التفسير ١/١٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية [١٨٧].

(٣) التفسير ١/١٤٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية [٦٦].

له به فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم فيما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، والذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾»[١].

وكذلك الإعراض عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته فقال عند تفسير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[٢]:

«وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته فالأولى الإعراض عنها وتركها»[٣]، وأخيراً يُحذِّر رحمه الله من المماراة في الحوار والجدال فإن ذلك يقطع الفائدة والعلم النافع فقال عند كلامه عن ليلة القدر ومتى تكون «وعن عبادة بن الصامت[٤] قال خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى[٥]

---

(١) التفسير ١/٤٥٧.

(٢) سورة المائدة، الآية [١٠١].

(٣) المرجع نفسه ٢/١٣٨.

(٤) هو عبادة بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، صحابي، من الموصوفين بالورع، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وكذلك شهد بدرا وسائر المشاهد ثم حضر فتح مصر، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، ومات بالرملة أو ببيت المقدس، روى ١٨١ حديثا اتفق البخاري ومسلم على ستة منها وكان من سادات الصحابة، توفي سنة ٣٤ هـ، الأعلام ٣/٢٥٨.

(٥) تلاحى: تنازعا، انظر ترتيب القاموس للطاهر أحمد الزاوي ٤/١٣٢ طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ط٢، بدون تاريخ.

فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيراً لكم... وقوله «فتلاحى فلان وفلان فرفعت فيه استئناس لما يقال إن المماراة تقطع الفائدة و العلم النافع»[١].

المطلب السابع

نبذ الجمود والتعصب الفكري

يمتلك ابن كثير شخصية متحررة من الجمود الفكري والتعصب المذهبي ولا شك أن علاقته بابن تيمية وتأثره به كانت من أهم العوامل في تبلور شخصية ابن كثير المستقلة والمنفتحة على غيره، وإننا نلحظ ذلك حينما نرى أن عدداً من مشايخ ابن كثير كانوا من غير الشافعية، فمثلاً من مشايخه:

إسحاق بن يحيى الآمدي المتوفى سنة (٧٢٥هـ) قال عنه ابن كثير: «شيخنا عفيف الدين الآمدي»[٢] والآمدي حنفي، وكذلك عيسى بن أحمد المطعم المتوفى سنة (٧١٩هـ)، «سمع ابن كثير الحديث بدمشق من عيسى المطعم وذلك في العهد المبكر لابن كثير في دمشق»[٣]، وعيسى بن المطعم حنبلي، وكذلك محمد بن شرف الدين المتوفى سنة (٧٣٠هـ) يذكره ابن كثير ويثني عليه فيقول: «شيخنا الصالح العابد الناسك الخاشع شمس الدين... بن غيلان البعلبكي.. وكان يقرأ القرآن طرفي النهار، وعليه ختمت القرآن في سنة إحدى عشرة وسبعمائة»[٤]، والبعلبكي حنبلي، وكذلك عبد الله بن محمد بن يوسف

---

(١) التفسير ٤/٦٣٨.

(٢) البداية والنهاية ١٨/٢٦٠.

(٣) المنهل الصافي ٢/٤١٥.

(٤) البداية والنهاية ١٨/٣٢٦.

المقدسي المتوفى سنة (٧٣٧هـ) قال عنه ابن كثير: «شيخنا الإمام العالم العابد شمس الدين أبو محمد عبد الله العفيف... المقدسي النابلسي... قرأت عليه عام ثلاث وثلاثين وسبعمائة مرجعنا من القدس الشريف كثيراً من الأجزاء والفوائد»[١]، وابن العفيف المقدسي حنبلي، إضافة إلى أن ابن تيميه الذي كان من أخص شيوخه ومن أحبهم إليه وأكثرهم تأثراً به وهو حنبلي، وليس ابن تيمية هو صاحبه الوحيد من غير الشافعية، بل قد صرح بصحبة غيره مثل جمال الدين يوسف المقدسي الحنبلي، قال في ترجمة والده الذي هو شيخ ابن كثير والذي مر معنا، قال في ترجمته: «وهو والد صاحبنا الشيخ جمال الدين يوسف أحمد مفتي الحنابلة وغيرهم»[٢].

وكذلك قال عن ابن القيم الجوزية وفي أحداث سنة ٧٤٣هـ: «وفي يوم الخميس سادس صفر درس بالصدرية صاحبنا العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن.... الزرعي إمام الجوزية»[٣]، وقال في ترجمته «توفي صاحبنا الإمام الشيخ العلامة شمس الدين.... وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه»[٤]، وكذلك ابن عبد الهادي الحنبلي قال ابن كثير في ترجمته بعد وفاته: «وفي يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى سنة ٧٤٤هـ - توفي صاحبنا الإمام العالم العلامة الناقد البارع في فنون العلوم شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين أحمد عبد الهادي المقدسي الحنبلي»[٥].

---

(١) البداية والنهاية ١٨/٣٩٦- ٣٩٧.

(٢) المرجع نفسه ١٨/٣٩٧.

(٣) المرجع نفسه ١٨/٥٤٠.

(٤) المرجع نفسه ١٨/٥٢٣.

(٥) المرجع نفسه ١٨/٤٦٦/٤٦٧.

ومن مظاهر انفتاح ابن كثير وعدم تعصبه هو أنه لم يكتف بالسماع على مشايخ الشام فقط، بل حصل على الإجازة بالرواية والحديث من مشايخ مصر فأجازه أبو الفتح الدبوسي[١] وعلي بن عمر الواني[٢] ويوسف الختني[٣] وأبوموسى القرافي[٤] والحسيني[٥].... وغيرهم، وأجاز له من علماء بغداد ابن الدواليبي البغدادي[٦]»[٧].

ومما يدل على تحرر ابن كثير من القيود المذهبية موافقته وتبنيه لبعض الآراء والأقوال في بعض المسائل التي تخالف مذهب الشافعية الذي ينتمي إليه ابن كثير

---

(١) هو يونس بن إبراهيم بن عبدالقوي الكناني العسقلاني ويقال أيضا الدبوسي، عالم بالحديث، توفي بالقاهرة سنة ٧٢٩ هـ، الأعلام ٨ /٢٦٠.

(٢) علي بن عمر بن أبي بكر الواني، نزيل مصر، كان صالحاً سهل القياد، مات في المحرم سنة ٧٢٧ هـ، الدرر الكامنة ١/ ٣٧٣.

(٣) هو يوسف بن عمر بن أبي بكر الختني الحنفي المصري المعمر، وكان لا يسمع إلا بأجرة لأنه كان مقلا، مات سنة ٧٣١ هـ، الدرر الكامنة ٢/ ١٨١.

(٤) هو أحمد بن أيوب بن إبراهيم القرافي شهاب الدين، سمع الواني والدبوسي والختني، مات سنة ٧٩٤ هـ، الدرر الكامنة ١/ ٣٣ وإنباء الغمر ١/ ١٦٦.

(٥) هو محمد بن علي الحسيني، حدث بمصر وكان أحد العدول، مات سنة ٧٤٥ هـ، الدرر الكامنة ٢/ ٤٤.

(٦) هو عبدالدايم بن عبدالمحسن البغدادي الدواليبي، حدث عنه جماعة من أهل بلده وغيرهم، مات سنة ٧٢١هـ، الدرر الكامنة ١/ ٢٩٥.

(٧) الدر الكامنة ١/٣٩٩ وذيل طبقات الحفاظ ص٣٦١، وانظر ابن كثير الدمشقي للزحيلي ص٩٦ مرجع سابق.

من ذلك مثلاً :

* تبنيه رأي ابن تيمية في الطلاق فكان يفتي في مسألة طلاق الثلاث بلفظ واحد»[١].

* ترجيحه مذهب مالك وأحمد في وجوب مسح جميع الرأس»[٢].

* ترجيحه قول الجمهور أن معنى تعولوا أي تجوروا وليس تكثر عيالكم كما فسر الشافعي[٣].

* موافقته لرأي الإمام أحمد في مسألة المناقلة وأنها تجوز للمصلحة الراجحة وصنف في ذلك - الإمام أحمد - مسألة مفردة وقفت عليها فرأيتها في غاية الحسن والإفادة بحيث لا يتخالج من اطلع عليها ممن يذوق طعم الفقه أنها مذهب الإمام أحمد رحمه الله»[٤].

وغير ذلك من المسائل التي تدل على أن ابن كثير رحمه الله مستقل الرأي يدور مع الدليل حيث دار ولا يتعصب لمذهبه ولا لغيره ؛ لأن التقليد الأعمى من غير تبصرٍ ودليلٍ جهلٌ وعمى ، ولذلك وصف المقلدين لأئمة الكفر بأنهم «الطماطم[٥] الأغشام المقلدون لأئمة الكفر»[٦].

---

(١) انظر ص١٢٧.

(٢) انظر ص١٢٧ من هذا الكتاب ، والتفسير ٢/٣٣.

(٣) انظر ص١٢٨ من هذا الكتاب ، والتفسير ١/٥٥٢.

(٤) البداية والنهاية ١٨/٥٧٠-٥٧١.

(٥) الطماطم : الطِّمْطَمة العجمة ، والطمطم والطمطمي والطماطم والطمطمائي هو الأعجم الذي لا يفصح ، ورجل طِمْطم بالكسر أي في لسانه عجمة لا يفصح ، لسان العرب لجمال الدين ابن منظور ١٢/٣٧٠ طبعة دار صادر بيروت ، بدون تاريخ.

(٦) التفسير ٣/٣٦٩.

الباب الثاني

منهج الدعوة إلى الله عند ابن كثير من خلال أركان الدعوة

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله باعتبار الموضوع.

الفصل الثاني: منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله باعتبار المدعو.

الفصل الثالث: منهج ابن كثير في توجيه الدعاة.

الفصل الرابع: منهج ابن كثير في أساليب الدعوة ووسائلها.

الفصل الأول

منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله باعتبار الموضوع

ويحتوي ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: منهجه في الدعوة إلى العقيدة.

المبحث الثاني: منهجه في الدعوة إلى الشريعة.

المبحث الثالث: منهجه في الدعوة إلى الأخلاق.

المبحث الأول

منهج ابن كثير في الدعوة إلى العقيدة

وفيه مطالب:

المطلب الأول

أسباب اهتمام ابن كثير بالدعوة إلى العقيدة

يرجع اهتمام ابن كثير رحمه الله بالعقيد إلى عدة أسباب منها:

[١] أن توحيد الله وعبادته، وعدم الإشراك به، هو الغاية من خلق العباد، فالله سبحانه وتعالى: «خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذّبه أشد العذاب»[(١)].

وهو سبحانه «ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحّدوه، ثم يجمعهم ليوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر»[(٢)]، فمهمة الرسل عليهم السلام وأساس دعوتهم هي توحيد الله والتحذير من الإشراك به وعبادة ما سواه، فالله سبحانه وتعالى «أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله»[(٣)].

[٢] أن العقيدة هي أصل الدين وأساسه ن وأن قبول الأعمال مرتبط بالعقيدة والتوحيد، فلا يقبل الله عملاً أشرك صاحبه مع الله غيره في عبادته قال تعالى:

---

(١) التفسير ٤/ ٢٨٠ عند تفسير الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات ٥٦].

(٢) المرجع نفسه ٤/ ٤٠ عند تفسير الآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص ٢٧].

(٣) المرجع نفسه ٢/ ٦٢٦ عند تفسير الآية: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد ١٦].

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٢]، وبقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٣].

قال ابن كثير: «وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له»[٤]، فالإنسان مهما عمل من عمل فلا يكون مقبولاً عند الله حتى يكون خالصاً من الشرك وصاحبه على عقيدة صحيحة سالمة من الشرك بالله، كما قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[٥]، قال ابن كثير: «وهذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل»[٦].

[٣] أثر العقيدة على التصور والفهم والإدراك والسلوك، فالاعتقاد الصحيح يؤثر على فهم النصوص الشرعية وإدراكها ومعرفة حقائقها ودلالاتها؛ لأن

---

(١) سورة الأنعام، الآية [٨٨].

(٢) سورة الزمر، الآية [٦٥].

(٣) سورة الكهف، الآية [١١٠].

(٤) التفسير ٣/١٣٨.

(٥) سورة الفرقان، الآية [٢٣].

(٦) التفسير ٣/٣٩١.

الاعتقاد أساس الفهم، فكلما كان الاعتقاد سليما كلما كان منهج فهم النصوص وتلقيها وإدراكها والاستدلال بها صحيحا وموافقا للحق الذي أراده الله وأنزله على رسوله ﷺ، فانحراف العقيدة وفسادها يؤثر على سلامة الفهم وصحة القصد والعمل. يقول ابن كثير رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]: «وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون، قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح، ولو فرض أن لهم فهماً، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم»[2].

ويقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[3]: «يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق»[4].

[٤] أثر العقيدة على وحدة الأمة وتماسكها وقوتها، وأن من أكبر أسباب ضعف المسلمين وتفرقهم هو بعدهم عن عقيدتهم الصحيحة، لذا نجد أن ابن كثير رحمه الله يرى أن من أهم أسباب ضعف المسلمين وتفكك وحدتهم

---

(١) سورة الأنفال، الآية [٢٢].

(٢) التفسير ٢/٣٧٢.

(٣) سورة القمر، الآية [٤٧].

(٤) التفسير ٤/٣١٦.

وتكالب الأعداء عليهم في بعض العصور هو بعدهم عن التمسك بعقيدتهم الإسلامية الصحيحة وانتشار البدع والأهواء بينهم وظهور الفرق الضالة عن المنهج الصحيح للإسلام، والذي كان لها أكبر الأثر على ضعف المسلمين وتسلط التتار والنصارى عليهم، وكذلك ما حصل بسبب هذه الطوائف والفرق من النزاع بين المسلمين أنفسهم، كالذي يحصل بين السنة والشيعة، وأثر ذلك على ضعف المسلمين وتفرقهم وطمع الأعداء فيهم.

من ذلك مثلا ما ذكره ابن كثير في كتابه البداية والنهاية عند حوادث سنة ٣٥١هـ فقال بعدما أورد الممارسات الخاطئة من بعض الرافضة من لعن أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية وكتابة ذلك على المساجد: «ولا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء ويديل عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم وتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم وترك متابعة أنبياءهم وعلماءهم، ولهذا لما ملكت الفاطمية بلاد الشام استحوذ على سواحلها كلها – حتى بيت المقدس – الفرنج، ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة ودمشق وبعض أعمالها وجميع السواحل مع الفرنج، ..... والناس منهم في حصر عظيم وضيق من الدين، وأهل هذه المدن التي في يد المسلمين في خوف شديد في ليلهم ونهارهم من الفزع، فإنا لله وإنا له راجعون، كل ذلك من بعض عقوبات المعاصي والذنوب وإظهار سب خير الخلق بعد الأنبياء»[1].

---

(١) البداية والنهاية ١٥/٢٥٥ -٢٥٦.

وقال عن الفاطميين[١] «ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر الفساد وقلّ عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثر بأرض الشام النصيرية[٢] والدروز[٣]... وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكامله... وحين زالت أيامهم وانقضى إبرامهم أعاد الله هذه البلاد كلها على أهلها من السادة المسلمين ورد الله الكفرة

---

(١) الفاطميون أو العبيدون وهم شيعة رافضة ادعوا كذباً وزوراً أنهم من نسل فاطمة الزهراء، اختلف المؤرخون في نسبهم، فقيل ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق لذا سموا بالإسماعيلية أيضاً، وقيل إنهم يرجعون إلى رجل فارسي هو عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي الثنوي المذهب الذي يقول بوجود الآلهة «إله النور وإله الظلمة» (انظر موجز التاريخ الإسلامي، أحمد معمور العسيري، ص٢١٠ مطابع الابتكار، ط٣، ١٤٢٠هـ).

(٢) النصيرية نسبة إلى محمد بن نصير النمري وكان من أصحاب الحسن العسكري، وادعى النبوة ثم الربوبية، ويزعمون أن الله حل في علي ﷺ ويعتقدون إباحة المحرمات، ويسبون فاطمة بنت الرسول ﷺ ويكرمون عبد الرحمن بن ملجم لاعتقادهم أنه خلص روح اللاهوت من الجسد والتراب وذلك بقتله علياً ﷺ (انظر الملل والنحل ١/١٨٨-١٨٩، ومذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي ٢/٤٢٧ وما بعدها، طبعة دار العلم للملايين بيوت، ط١ ١٩٧٣م).

(٣) الدروز: نسبة إلى درزي بن محمد كما يسمونه وهو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الدرزي وإنما انتسبوا إليه تقية حين طوردوا، والمذهب الدرزي هو مذهب باطني وقد كان حمزة بن علي بن أحمد الفارسي الحاكمي الدرز من كبار الباطنية ومن مؤسسي المذهب الدرزي، حيث اتصل برجال الدعوة السرية في القاهرة من شيعة الحاكم بأمر الله الفاطمي فأصبح من أركانها واستمر يعمل لها في الخفاء ويواصل رفع كتبه إلى الحاكم حتى كانت سنة ٤٠٨هـ، فأظهر الدعوة وجاهر بتأليه الحاكم، وقال إنه رسوله وأقره الحاكم على ما نعت به نفسه فلقبه برسول الله وجعله داعي الدعاة ولما هلك الحاكم وحل ابنه (الظاهر لإعزاز دين الله)محله سنة ٤١١هـ فترت الدعوة ثم طوردت بعد براءة الظاهر منها سنة ٤١٤هـ فاضطر حمزة إلى الرحيل بعد ذلك بجبل الدروز في سورية، (انظر الأعلام ٢/٢٧٨).

خائبين وأركسهم[١] بما كسبوا في هذه الدنيا ويوم الدين»[٢]، وقال رحمه الله في حوادث سنة ٦٢٤هـ عن الإسماعيليه[٣] «وفيها قتلت الإسماعيلية أميرا كبيرا من نواب جلال الدين[٤] خوارزم شاه، فسار إلى بلادهم فقتل منهم خلقا كثيرا وخرب مدينتهم وسبى ذراريهم ونهب أموالهم، وقد كانوا قبحهم الله من أكبر العون على المسلمين لما قدم التتار إلى الناس وكانوا أضر على الناس منهم»[٥].

وقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٦]. «وهكذا

---

(١) أركسهم: أي ردهم، المعجم الوسيط ص ٣٦٩.

(٢) البداية والنهاية ١٦/٤٥٦ - ٤٥٧.

(٣) الإسماعيلية: نسبة إلى محمد بن إسماعيل، وهم ليسوا على دينه، ويدعون أنه الذي كتم السر الباطنة الذي أنزل على محمد ﷺ وأمر بكتمه عن الناس إلا عن وصيه علي بن أبي طالب ﷺ، واستكتمه أن لا يخرج منه ذلك إلا لمن يخلفه من الأئمة المعصومين من ذريته، حتى انتهى ذلك إلى محمد بن إسماعيل وأنكروا حقائق اليوم الآخر، وحملوها على تأويلات اصطلحوا عليها فمثلاً القيامة حدوث الشر، والميزان ميزان الحكمة (انظر التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي ص ٣٢، طبعة مكتبة المغني بغداد ومكتبة المعارف ١٣٨٨هـ).

(٤) جلال الدين خوارزم بن السلطان علاء الدين، كان يضرب به المثل في الشجاعة والإقدام، وافتتح المدن وسفك الدماء وظلم وعسف وغدر قال: ومع ذلك كان صحيح الإسلام وآل أمره إلى أن تفرق عنه جيشه حتى يقال إنه سار في نفر يسير فبيته كردي في منزله وطعنه بحربة وقتله بها سنة ٦٢٩هـ (مرأة الحنان وعبرة اليقظان في حوادث الزمان لليافعي ٢/١٦٣).

(٥) البداية والنهاية ١٧/١٥٨.

(٦) سورة التوبة، الآية [١٢٣].

الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال[١] وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها فلم يمانعوا[٢] لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم[٣][٤].

إلى غير ذلك من الأسباب التي جعلت ابن كثير يعتني بأمر العقيدة ويهتم به، وما ذاك إلا لأنها هي الأساس في الدعوة إلى الله، فأول ما دعت إليه الرسل كما ذكرنا هو عبادة الله وحده لا شريك له، ومن ثم كان للعقيدة مساحة واسعة في الدعوة، ناهيك عن حيازتها المقام الأول في دعوة الناس إلى

---

(١) سفال: نزول وانحطاط، المعجم الوسيط ص ٤٣٤.

(٢) أي: يحموا أطراف البلاد. انظر: المعجيم الوسيط ص ٨٨٨.

(٣) التفسير ٢/٤٩٦.

(٤) انظر مثلاً البداية والنهاية ١٥/٦٣٦، ١٦/١١٣، ١٧/٢٦١، ١٧/٢٧٣، ١٧/٣٤٨، ١٧/٣٥٨، ١٧/٣٥٩. وغير ذلك من الأمثلة والحوادث الكثيرة التي ذكرها ابن كثير والتي تدل على أثر الانحراف العقدي على ضعف المسلمين وتفرقهم، وكذلك أثر الفرق الضالة والمنحرفة على معاونة الكفار والنصارى على المسلمين وتواطئهم معهم.

الله، فمنها ينطلق المسلم في تسيير شؤون حياته كلها وبها يضبط مسيرته ويوجه سلوكه ويحقق الغاية من وجوده، والعقيدة هي أساس بناء تصور المسلم عن الوجود كله عن الله وعن الكون والحياة والإنسان، ومن ثم إذا استقامت عقيدة الإنسان في ذلك كله واستقام تصوره فسوف يستقيم سلوكه وتنضبط ممارساته، وفق مقتضيات الإيمان بالله وتوحيده وتطبيق منهجه في هذه الحياة الدنيا ليفوز بخيري الدنيا والآخرة، وهذا من أسمى وأعلى أهداف الدعاة إلى الله[1].

المطلب الثاني

منهجه في الدعوة إلى الإيمان بالله

الإيمان بالله تعالى هو الركن الأول من أركان الإيمان، ومعرفته غاية كل مسلم؛ لأن معرفة الله وعبادته هي أشرف المطالب وأعلى المراتب وأنبل المقاصد، والله سبحانه لما خلق الخلق لم يتركهم هملا، بل أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، فالقرآن الكريم من أوله إلى آخره متضمن لعقيدة التوحيد، والرسول ﷺ جاءت دعوته لتقرير هذه العقيدة، وترسيخها، وبيانها، والعمل على تطبيقها والتمسك بها، والإيمان بالله هو الإقرار والاعتراف بأن الله هو الرب الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور وهذا مقتضى توحيد الربوبية، وكذلك الإيمان بأن الله هو الإله المستحق للعبادة

---

(١) انظر مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية ص ٣١، طبعة مكتبة السوادي ط١، ١٤١٤هـ.

وحده دون سواه وهذا هو مقتضى توحيد الألوهية، وكذلك الإيمان بأسماء الله وصفاته وإثبات ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تكييف، وهذا هو توحيد الأسماء والصفات ولقد قرر الإمام ابن كثير هذه الأقسام الثلاثة وبيّنها ودعا إلى الإيمان بها واعتقادها والتسليم بها، في مواضع كثيرة من تفسيره فقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

«وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل بها كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع، فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإنعامه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ قال: يا سبحان الله: إن البعرة تدل على البعير وإن أثر الأقدام ليدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟! وحكى فخر الدين عن الإمام مالك رحمه الله أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنغمات، وعن أبي حنيفة رحمه الله أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم دعوني فإني مفكر في أمر قد احترت فيه، ذكروا

(١) سورة البقرة، الآيتان [٢١-٢٢].

لي أن سفينة في البحر موقرة[١] فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسلفي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع ؟! فبهت القوم، ورجعوا إلى الحق، وأسلموا على يديه، وعن الشافعي رحمه الله أنه سئل عن وجود الباري تعالى فقال: هذا ورق التوت طبيعة واحدة يأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، ويأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد، وعن الإمام أحمد رحمه الله أنه سئل عن ذلك فقال: ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن بصوت مليح يعني البيضه إذا خرج منها الدجاجة»[٢].

وقال أيضاً: «شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانيته وألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشا أي مهدا كالفراش مُقَرَّرةً موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات والسماء بناء وهو السقف كما قال في الآية الأخرى:

---

(١) موقرة: محملة وثقيلة، المعجم الوسيط ص١٠٤٩.

(٢) التفسير ١/٧٨.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[١]، وأنزل لهم من السماء ماء – والمراد به السحاب ههنا – ماءً في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد، رزقا لهم ولأنعامهم، كما قرر هذا في غير هذا الموضع من القرآن، ومِنْ أشبه آية بهذه قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢][٣].

وهكذا نجد ابن كثير رحمه الله يستخدم المنهج الحسي والعقلي في الدعوة إلى الإيمان بوجود الله سبحانه فهو يستدل على توحيد الربوبية بالآيات والبراهين والدلائل الكونية والطبيعية، ويورد الأقوال والأمثلة التي ذكرها العلماء في ذلك، وكذلك الشأن في توحيد الألوهية فقد دعا رحمه الله إلى عبادة الله وحده دون سواه، وأنه لا يتم تحقيق لا إله إلا الله إلا بذلك، فيقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٤]، «وقوله الله لا إله إلا هو إخبار بتوحيده وتفرده بالألوهية لجميع المخلوقات»[٥]، وقال عند تفسير الآية: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٦]، «يخبر تعالى عن تفرده بالألوهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له بل هو الله الواحد

---

(١) سورة الأنبياء، الآية [٣٢].

(٢) سورة غافر، الآية [٦٤].

(٣) التفسير ١/ ٧٦.

(٤) سورة النساء، الآية [٨٧].

(٥) التفسير ١/ ٦٤٩.

(٦) سورة البقرة، الآية [١٦٣].

الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو وأنه الرحمن الرحيم»[١].

كما يقرر رحمه الله أن الإله الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور هو سبحانه الرب والإله المستحق للعبادة دون سواه، فما دام «أنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة.... فبهذا استحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره»[٢].

وهو هنا استخدم المنهج العقلي في الدعوة إلى الإيمان بتوحيد الألوهية، فما دام أنه سبحانه الخالق الرازق المحيي المميت فلم يعبد غيره ولم يتوكل على سواه. فقال عند تفسيره الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٣]: «يقول تعالى مقررا أنه لا اله إلا هو؛ لأن المشركين – الذين يعبدون معه غيره – معترفون أنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم، ففاوت بينهم، فمنهم الغني ومنهم الفقير، وهو العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فَلِمَ يُعبد غيره؟ وَلِمَ يُتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية وكان

---

(١) التفسير ١/ ٢٥٠.

(٢) المرجع نفسه ١/ ٧٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآية [٦١].

المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك»[١]، فواجب الدعاة أن يقوموا بواجب الدعوة إلى توحيد الله في ربوبيته، وأنه سبحانه الخالق الرازق المحيي المميت وأنه رب كل شيء ومليكه، فلا خالق غيره، ولا رب سواه، وأن كل ما في الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيئته، وأنه سبحانه الإله المعبود وحده دون سواه، كما أن عليهم أن يسلكوا منهج الرسل في العناية بتوحيد الألوهية ودعوة الناس إلى توحيد الله وعبادته وعدم الإشراك به، وأنه لا ينبغي أن ينصرف الدعاة بسبب ظهور موجة الإلحاد في هذا العصر عن الاهتمام بتوحيد الألوهية والاكتفاء بدعوة الناس إلى الإيمان بوجود الله وبيان عظمته بل يكون هذا طريقاً للدعوة إلى عبادته وعدم الإشراك به سبحانه.

وأما توحيد الأسماء والصفات فمنهج ابن كثير رحمه الله هو الإيمان بأسماء الله وصفاته على منهج السلف وعدم الخوض والجدل الكلامي والفلسفي واتباع أسلوب القرآن في ذلك، كما أنه رحمه الله عند تقريره للإيمان بأسماء الله وصفاته يستخدم المنهج العاطفي في زيادة الإيمان والخوف من الله وخشيته ومحبته والتوكل عليه والالتجاء إليه، من خلال أسماء الله وصفاته فيقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٢]، «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به

---

(١) التفسير ٣/٥١٩.

(٢) سورة فاطر، من الآية [٢٨].

أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»[١].

وقال رحمه الله عند تفسيره الآية: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾[٢]، «أي: لا يثقله ولا يُكْرثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة، وهو الغني الحميد الفعَّال لما يريد الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون وهو القاهر لكل شيء الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه»[٣].

وابن كثير كما ذكرنا يرى أن منهج السلف هو المنهج الصحيح في إثبات الأسماء والصفات وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه، فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، كقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه»[٤].

---

(١) التفسير ٣/٦٧٨.

(٢) سورة البقرة، من الآية [٢٥٥].

(٣) التفسير ١/٣٨٤.

(٤) المرجع نفسه ١/٣٨٤.

وقال رحمه الله عند تفسير الآية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[١]، «المسلك في ذلك طريقة السلف إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل»[٢].

المطلب الثالث

منهجه في الدعوة إلى الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[٣].

وقد أشار ابن كثير رحمه الله في مواطن كثيرة من تفسيره إلى وجوب الإيمان بالملائكة جملة وتفصيلا، وإلى صفاتهم وأعمالهم والتفاضل بينهم وبين صالحي البشر، وكلام المشركين عن الملائكة والرد عليهم، وأن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، كما أشار رحمه الله إلى علاقة الملائكة بالإنسان فهناك ملائكة يقبضون روحه عند الموت، وآخرين يحفظونه من أمر الله، وملائكة يكتبون أعماله وملائكة يبشرون المؤمن بالخير والكافر بالعذاب وملائكة يرسلهم الله لهلاك الأمم المكذبة وغير ذلك من القضايا والمباحث المتعلقة بالملائكة، والتي بَيَّنها ابن كثير ودعا إلى الإيمان بها، وحيث إن المقام لا يتسع للكلام عنها مفصلا لأنه ليس هذا موضعه، فسنتعرض لذلك بشيء من الإيجاز

---

(١) سورة طه، الآية [٥].

(٢) التفسير ٣/١٨٠.

(٣) سورة البقرة، الآية [٢٥٨].

وذلك حسب النقاط التالية:

[١] تأكيد ابن كثير على الإيمان بالملائكة والتصديق بوجودهم فقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[١] «فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وهو أنه لا اله إلا هو، وصدَّق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله»[٢].

[٢] والملائكة عباد مكرمون وهم في غاية الطاعة لربهم يقول رحمه الله عند تفسير الآيات: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[٣]، «أي: الملائكة عباد مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية وهم في غاية الطاعة قولا وفعلاً: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمر به بل يبادرون إلى فعله وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى منهم خافية»[٤].

[٣] من صفات الملائكة أن خلقهم حسن وأخلاقهم وأفعالهم بارَّة يقول ابن

---

(١) سورة البقرة، الآية [١٧٧].

(٢) التفسير ١/٢٥٨.

(٣) سورة الأنبياء الآيتان [٢٦-٢٧].

(٤) التفسير ٣/٢٢٣.

كثير عند تفسيره الآية: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[١] «قال ابن عباس ومجاهد...: هي الملائكة... وقال قتادة هم القرَّاء... وقال ابن جرير: الصحيح أن السفرة الملائكة... ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ «أي: خَلْقهم كريم حسن شريف وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة»[٢].

[٤] من صفاتهم الخَلْقية أن لهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع. يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[٣] «أي: يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعا «مثنى وثلاث ورباع» أي منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث.. أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب»، ولهذا قال: يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير. قال السدي: يزيد في الأجنحة وخَلْقهم ما يشاء»[٤].

[٥] إن خُزَّان النار من الملائكة غلاظ شداد ولا يعلم عددهم إلا الله. يقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ

---

(١) سورة عبس، الآيتان [١٥-١٦].

(٢) التفسير ٤/٥٥٦.

(٣) سورة فاطر، الآية [١].

(٤) المرجع نفسه ٣/٦٧٠، والحديث متفق عليه، وأخرجه البخاري كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه رقم (٣٢٣٢)، ومسلم كتاب الإيمان باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ رقم (١٧٤).

﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[١] «وما جعلنا أصحاب النار أي خزانها «إلا ملائكة»أي زبانية غلاظا شدادا، وذلك ردا على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة فقال أبو جهل: يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟ فقال الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي: شديدي الخلق لا يُقاومون ولا يُغالبون».

وقد رد ابن كثير رحمه الله على من توهم أن عدد الملائكة تسعة عشر فقط، فقال عند تفسير الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، «أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم أنَّما هم تسعة عشر فقط، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانية ومن شايعم من المِلّتين الذين سمعوا هذه الآية فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها فأُفْهِموا صدر الآية وقد كفروا بآخرها وهي قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾. وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: **(فاذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم)**»[٢].

---

(١) سورة المدثر، الآية [٣١].

(٢) التفسير ٤/٥٢٥والحديث متفق عليه، وأخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم رقم (٣٢٠٧)، ومسلم كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات رقم (١٦٤).

وقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] «أي: طباعهم غليظة قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، شداد أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج... وقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز منه، وهؤلاء هم الزبانية عياذا بالله»[2].

وقال عند تفسير الآية: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[3]، «يعني الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: مرصد ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ أي: ابن آدم ﴿مِن قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة: ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إلا ولها من يراقبها مُعَدٌّ لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[4] وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس؟ على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[5][6].

---

(١) سورة التحريم، الآية [٦].

(٢) التفسير ٤/٤٦٢.

(٣) سورة ق، الآيتان [١٦-١٧].

(٤) سورة الانفطار، الآيات [١٠-١٢].

(٥) التفسير ٤/٢٦٣.

(٦) سورة ق الآية [١٨].

[٦] أشار ابن كثير رحمه الله إلى علاقة الملائكة بالبشر فمن هذه العلاقة:

(أ)أن هناك ملائكة موكلة بقبض الروح من الجسد فقال عند تفسير الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[١] «أي: إذا احتضر وحان أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: ملائكة موكلون بذلك، قال ابن عباس وغير واحد، لملك الموت أعوان من الملائكة يُخْرِجون الروح من الجسد، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم، وهم لا يفرطون، أي في حفظ روح المتوفى بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله – عز وجل – إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين عياذا بالله من ذلك»[٢].

(ب)كما أن هناك الملائكة الحفظة الموكلة بحفظ الإنسان، يقول رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[٣] «أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحوادث، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بدلان حافظان وكاتبان، كما جاء في

(١) سورة الأنعام، الآية [٦١].

(٢) التفسير ٢/١٧٧.

(٣) سورة الرعد، الآية [١١].

الصحيح: **(يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون)**[١] وفي الحديث الآخر: **(إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم)**[٢].

وقال رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٣] «يعني وإن عليكم لملائكة حفظه كراما، فلا تقابلوهم بالقبائح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم»[٤].

(جـ) نزولهم من السماء إلى الأرض في ليلة القدر وعند تلاوة القرآن وإحاطتهم بحلق الذكر ووضع أجنحتهم لطالب العلم تعظيماً له، يقول ابن كثير رحمه الله عند تفسير الآية: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[٥]، «أي يكثر نزول الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة ينزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما ينزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾... إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ رقم ٧٤٢٩).

(٢) التفسير ٢/٦٢٠ والحديث أخرجه الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في الاستغفار عند الجماع رقم (٢٨٠٠).

(٣) سورة الانفطار، الآيات [١٠-١٢].

(٤) التفسير ٤/٥٦٩.

(٥) سورة القدر، الآية [٤].

(٦) التفسير ٤/٦٣٤.

(د) أن الله يرسل الملائكة لهلاك الأمم المكذبة لرسلها، يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ۝ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾[1]، «يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه.... ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام، فحمل مداءنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأُتبعتْ بحجارة من سجيل منضود»[2].

(هـ) الملائكة تبشر الكفار بالعذاب والنكال يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[3]، «وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله»[4].

---

(١) سورة القمر، الآيتان [٣٣-٣٤].

(٢) التفسير ٤/٣١٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية [٩٣].

(٤) التفسير ٢/٢٠٠.

(و) تفضيل صالحي البشر من المؤمنين على الملائكة، يقول ابن كثير عند تفسير الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[1]، «ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأيديهم بأنهم خير البرية، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة ﷺ وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة»[2].

وقد رد رحمه الله على الذين فَضَّلوا الملائكة على صالحي البشر عند تفسير الآية: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[3]: «وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وليس له في ذلك دلالة لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح لأن الاستنكاف هو الامتناع والملائكة أقدر على ذلك من المسيح فلهذا قال: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل»[4].

وقال أيضاً عند تفسير الآية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[5]، «أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات، وقد استدل بهذه الآية على أفضلية جنس

(١) سورة البينة، الآية [٧].

(٢) التفسير ٤/٦٤٣.

(٣) سورة النساء، الآية [١٧٢].

(٤) التفسير ١/٧٢٢.

(٥) سورة الإسراء، الآية [٧٠].

البشر على جنس الملائكة»[١].

وأخيراً قال رحمه الله: «ومن أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر من البشر كانت الدواب أتم منه»[٢].

[٧] من الملائكة من هم موكلون بالقطر والنبات والأرزاق قال تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾[٣]، قال ابن كثير: «جاء صبيغ التميمي[٤] إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن... المقسمات أمراً، قال: هي الملائكة»[٥].

وقال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[٦]، قال ابن كثير: «قال علي ومجاهد... هي الملائكة وزاد الحسن تدبر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها عز وجل»[٧].

وقال ابن كثير «وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، يُصَرِّفون الرياح

---

(١) التفسير ٣/٦٨.

(٢) المرجع نفسه ٢/٣٣٧، عند تفسير الآية: ﴿أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف ١٧٩].

(٣) سورة الذاريات، الآية [٤].

(٤) صبيغ: بوزن عظيم — بن عسل بكسر العين وسكون السين وقصته مع عمر مشهورة، انظر ترجمته في الإصابة للحافظ ابن حجر ٢/١٩٨ -١٩٩. طبعة دار السعادة بمصر ط١ ١٣٢٨هـ.

(٥) التفسير ٤/٢٧٣.

(٦) سورة النازعات، الآية [٥].

(٧) المرجع نفسه ٤/٥٥١.

والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله، وقد روينا أنه ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض»[١].

[٨] تهنئة الملائكة للمؤمنين بالجنة، كما قال سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[٢].

يقول ابن كثير: «أي: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام»[٣].

وغير ذلك من الحقائق التي جاءت بها النصوص عن الملائكة وأوردها ابن كثير رحمه الله من خلال منهج عاطفي دعا فيه إلى تعميق الإيمان بالإله المعبود المهيمن على هذا الوجود الذي وضع جنوده من الملائكة للقيام على مختلف أمور الكون، ولبيان عظمة الله تعالى وقوته وسلطانه، فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق، وكذلك للدعوة إلى شكر الله على عنايته ببني آدم حيث وكّل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم وغير ذلك من مصالحهم مما يتعين على الداعية استخدام ذلك المنهج عند الحديث عن الملائكة في دعوته إلى الله.

---

(١) البداية والنهاية ١/١٠٥ طبعة دار هجر بالرياض ط١ ١٤١٧هـ.

(٢) سورة الرعد الآيات [٢٣-٢٤].

(٣) التفسير ٢/٦٢٩.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الدراسات السابقة	٦
أسباب اختيار الموضوع وأهميته	١٣
مشكلة البحث وأهم تساؤلاته	١٤
منهج الدراسة	١٥
هيكل البحث	١٥
التمهيد	٢٥-١٠٤
أولاً: ترجمة ابن كثير رحمه الله	٢٧
ثانياً: تفسير القرآن العظيم «لابن كثير» مكانته وأهميته	٥٩
ثالثاً: مفهوم الدعوة وأهميتها عند ابن كثير	٩٤
الباب الأول	
خصائص منهج الدعوة إلى الله عند ابن كثير	١٠٥-٣٨٨
الفصل الأول	
اعتماد منهج ابن كثير الدعوي على الكتاب والسنة	١٠٧-١٣٤
المبحث الأول: تقديم ابن كثير الكتاب والسنة على ما سواهما	١١٣
المبحث الثاني: الرد إلى الكتاب والسنة عند الخلاف	١١٩

الموضوع	الصفحة
المبحث الثالث: رد ابن كثير للأقوال والآراء التي تخالف الكتاب والسنة	١٢٤
الفصل الثاني	
النقل والعقل ونظرية المعرفة منهج دعوي عند ابن كثير	١٣٥-١٩٠
المبحث الأول: عدم تعارض النقل مع العقل	١٣٧
المطلب الأول: نظرة ابن كثير إلى العقل	١٤٢
المطلب الثاني: إنكار ابن كثير على من عارض النصوص بالرأي	١٥٥
المطلب الثالث: انحراف أصحاب الفرق الذين غلوا في العقل	١٦٠
المبحث الثاني: نظرية المعرفة عند ابن كثير	١٦٦
المطلب الأول: المعرفة عند ابن كثير	١٦٦
المطلب الثاني: طرق المعرفة عند ابن كثير	١٧٣
الفصل الثالث	
الاحتجاج باللغة العربية منهج دعوي لدى ابن كثير	١٨٩-٢٥٤
المبحث الأول: مكانة اللغة العربية من الدين	١٩١
المبحث الثاني: اعتماد ابن كثير اللغة العربية في تفسيره القرآن الكريم	٢٠٠
المطلب الأول: رجوع ابن كثير إلى اللغة واحتكامه إليها	٢٠٣

الموضوع	الصفحة
المطلب الثاني: اهتمام ابن كثير رحمه الله بشتى جوانب اللغة	٢١٠
المطلب الثالث: الاستدلال باللغة في المسائل الخلافية	٢٢٠
المبحث الثالث: عناية ابن كثير بالمصطلحات	٢٣٢
المطلب الأول: صحة نسبة المصطلح ومعناه	٢٣٣
المطلب الثاني: اتباع المنقول من المصطلحات	٢٣٨
المطلب الثالث: أثر مخالفة المصطلحات في اللغة والشرع والعقل على الاختلاف العلمي والعملي على الأمة	٢٤٥
الفصل الرابع	
من منهج ابن كثير الدعوي تقديم قول الصحابي على غيره	٢٥٣-٢٩٤
المبحث الأول: تعريف الصحابي	٢٥٥
المبحث الثاني: حجية قول الصحابي	٢٦٣
المبحث الثالث: عدالة الصحابة وما انفردوا به عن غيرهم	٢٧١
المبحث الرابع: المدارك التي شاركهم فيها غيرهم	٢٨٣
المبحث الخامس: ترجيح ابن كثير قول الصحابي على غيرهم من الناس	٢٨٦
الفصل الخامس	
الشمول والموضوعية	٢٩٣-٣٨٨
المبحث الأول: شمولية منهج ابن كثير في الدعوة	٢٩٥
المطلب الأول: شمول العقيدة	٢٩٦

الموضوع	الصفحة
المطلب الثاني: شمول العبادة	٣٠٨
المطلب الثالث: من منهج ابن كثير الدعوي الاهتمام بقضايا المجتمع	٣١٧
المطلب الرابع: شمول دعوته للطوائف والفرق	٣٢٥
المطلب الخامس: شمول دعوة ابن كثير للمرأة	٣٣٠
المبحث الثاني: الموضوعية في منهج ابن كثير	٣٥٨
المطلب الأول: الإخلاص في الوصول إلى الحق	٣٦٠
المطلب الثاني: محبة الآخرين والحرص على نفعهم	٣٦٥
المطلب الثالث: حسن الظن بالآخرين والبحث عن عذر لهم	٣٦٧
المطلب الرابع: العدل والإنصاف مع الخصوم	٣٦٩
المطلب الخامس: النظرة الواقعية للإنسان من حوله من حيث تكوينه ولوازم ذلك	٣٧٤
المطلب السادس: اجتناب الجدل المذموم في الدين	٣٧٩
المطلب السابع نبذ الجمود والتعصب الفكري	٣٨٤
الباب الثاني	
منهج الدعوة إلى الله عند ابن كثير من خلال أركان الدعوة	**٣٨٩-٦٧٠**
الفصل الأول	
منهج ابن كثير في الدعوة إلى الله باعتبار الموضوع	**٣٩١-٤١٨**
المبحث الأول: منهج ابن كثير في الدعوة إلى العقيدة	٣٩٣

الموضوع	الصفحة
المطلب الأول: أسباب اهتمام ابن كثير بالدعوة إلى العقيدة	٣٩٣
المطلب الثاني: منهجه في الدعوة إلى الإيمان بالله	٤٠٠
المطلب الثالث: منهجه في الدعوة إلى الإيمان بالملائكة	٤٠٧